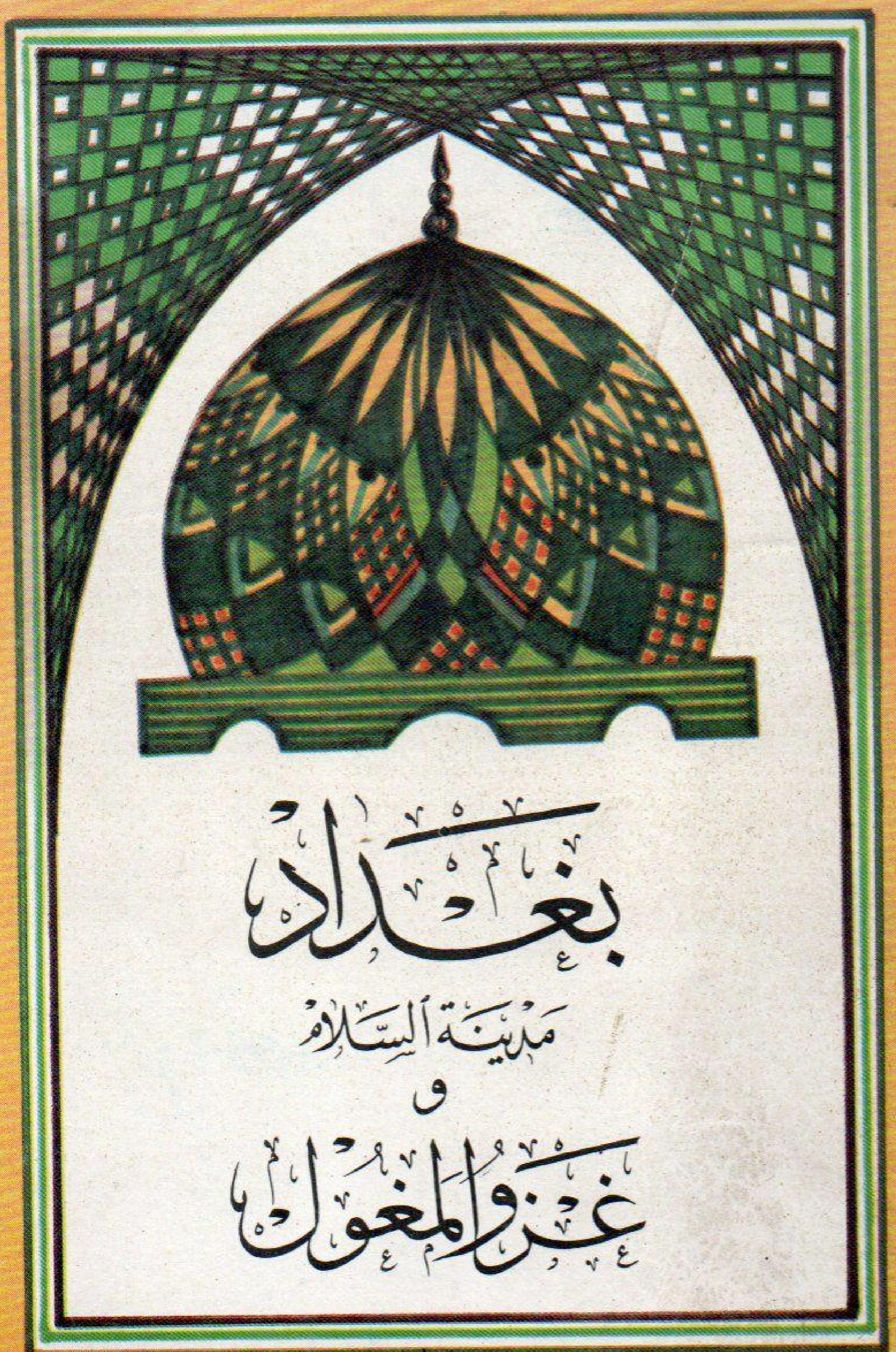
سلمان التكريتي



بغداد

مدينة السلام

و

غزو المغول

الناشر
مكتبة الشرق الجديد - بغداد





سلمان التكريتي

بغداد

مدينة السلام

و

غزو المغول

دراسة تاريخية تحليلية للصراع السياسي لاحتلال بغداد، واسقاط الخلافة العباسية، وازالة السيادة العربية، وقمع الحضارة العربية الاسلامية، واضواء على خيانة ابن العلقمي

الناشر
مكتبة الشرق الجديد - بغداد

الأهداء

الى كل المقاتلين الابطال الذين ساهموا في معركة الشرف العراقية بالدم أو العرق أو المال بإيثار وتضحية . .

وهم جميعاً يفتتون المؤامرة الفارسية الغادرة ضد العراق والامة العربية وحضارتها الانسانية

ـ المحتوى ـ



الاستهلال

ليس غريباً ان تنشأ الدولة وتنمو وتتطور نحو العلاء فكذلك ليس غريباً ان تسقط الدولة او تضعف، ثم تنهار فيها اذا عرفنا ان اعتماد الخلفاء او الملوك او القادة على عناصر غريبة اجنبية، سواء كانـوا من الاحلاف او المجـاورين او الـداخلين في الدين. ولا يمكن ان يكـون هناك مـبرر لـلاتحـاد الستراتيجي (المصيري) بين حلفاء لا تجمعهم رابطة سوى عداوة طرف ثالث، واعتماد الدولة العباسية والدعوة العباسية فيما قبل، عـلى اعداء الـدولة الامـوية الـذين هم الفـرس، لمجرد كـونهم اعداء للدولـة الامويـة، فاعتمـدوا عليهم وجعلوهم دعاتهم، ثم ولا تهم في الاقـاليم ووزراءهم في الدولة، امر لا مبرر له، لأن هذا التحالف كان يجب ان يكون تحالفا تاكتيكيا «مرحليـاً». والتركيـز على عصـور الخلافة العباسية هو محور دراستنا هذه، لأن سطوع شمس الحضارة العربية كان في اول هذه العصور، وافول هذه الشمس، كان ايضا في نهاية هذه العصور. ومدينة بغداد المحدثة، ارتبط اسمها بتاريخ الدولة العربية العباسية، وتاريخ واحدة من اكبر الحضارات الانسانية في عطاءاتها التي اشرقت بوجهها الصبوح طيلة خمسة قرون ونيف من السنـوات. واذ يصعد منحني التـطور الحضاري العربي في بغداد في القرون الثلاثة الاولى من الخلافة العربية العباسية، يبدأ هذا المنحني بالهبوط بعد اندماج العناصر الاجنبية في كيان الـدولة، دون انصهـار وذوبان فكري وقومي. وبهذا بدأ الضعف يدب في هذا الكيان الذي تصارعت فيه العناصر الغريبة المتباينة أحيانا، والمتنافرة احيانا اخرى. وقد ظهر ضعف هذه الدولة بأهمال الخلفاء العباسيين للكثير من الاصلاحات الداخلية، بعد ان طغت حياة الترف عليهم، وحب جمع المال او صرفه على الملاهي والعبث الماجن الرخيص وغير الرخيص، مما ادى الى تقوقع الخليفة وانزوائه في قصره المنيف ذي

المسناة المطلة على الشط الجميل الذي تكتنفه الاجمات و الغيطان، دون اي اهتمام بردع الذين يحاولون قضم اطراف الدولة وضمها الى رقاعهم، او الاستقلال بها او الانفصال عن الدولة العربية، او الارتباط بها ارتباطا شكليا يتمثل بذكر اسم الخليفة والدعوة له على منابر الجوامع في صلاة الجمعة الجامعة فقط.

وقد رافق قضم اطراف الدولة العربية العباسية او الاستقلال بها او اقتطاعها، خراب السدود وانطمار الانهار وحدوث الفيضانات التي كانت عوامل مؤثرة في ظهور الغلاء الفاحش في جميع الحاجيات الضرورية والكمالية، وندرتها وشحة المنتوجات الزراعية، مما جعل المواطنين عامة يعانون شظف العيش والحرمان، فظهر العيارون والشطار الذين ينهبون في الطرقات ويسطون على الدور والدكاكين والحمامات، يسرقون حتى ملابس المستحمين، وينهبون حتى العمائم عن رؤوس اصحابها في الاسواق. فسبب ذلك انهيارا اقتصاديا وثقافيا واخلاقيا.

وارض العراق (وادي الرافدين) والهلال الخصيب، ارض الخصب والماء والعطاء، كانت وظلت محط انظار الشرق. فبدأ الزحف نحوها.. نحو الغرب، منذ أن كانت المعارك تترى بين عشائر اياد وبكر وتغلب وشيبان من ناحية، والفرس من ناحية اخرى، لأن العشائر العربية كانت تعيش على تخوم الاراضي الفارسية. ولشدة الهجمات الفارسية وتكرارها انتفض بنو شيبان وبنو بكر وبنو اياد وبنو تغلب. فكانت الوقائع الحاسمة في تاريخ العرب، وكان من ابرزها واقعة ذي قار التي انتصر فيها بنو شيبان ضد الفرس في أول عهد الرسالة المحمدية. فاستبشر النبي محمد (ﷺ) بهذا الانتصار، فقال: «اليوم انتصف العرب من العجم، وبي نصروا». وآذن الصراع هذه المرة بين الوثنية والثنوية من ناحية في بلاد الفرس ضد التوحيد في الجزيرة العربية والعراق على وجه الخصوص. وشعر الفرس بالخطر الداهم على وثنيتهم وملكهم وامبراطوريتهم. فاصطدموا بالرسالة المحمدية، او دين التوحيد، ومزق كسرى يزدجر كتاب

النبي محمد (ﷺ)، وانف من دعوته واستقبال مبعوثيه، ولم يحتف بهم، ولم يفعل مثله المقوقس حاكم مصر ولا امبراطور الحبشة ولا امبراطور الروم، الذين استقبلوا مبعوثي النبي محمد (ﷺ) واحتفوا برسائله اليهم.

ويدور الزمان دورته، فيغضب الفرس، ويحنقون لسقوط امبراطوريتهم العسكرية، بظهور عمر بن الخطاب وتظهر فرقة الخوارج، ويقتل علي بن ابي طالب، ويظهر (زادويه) وعبدالله بن سبأ وبدعته، كما تظهر الفرق الغالية، وتنتقل الخلافة الاسلامية من الدينية الى الخلافة السياسية. ويبدأ التناحر الهاشمي - الاموي، وتظهر الدعوة العباسية، ويكون الفرس سنداً للدعوة العباسية؛ ويعتلي العباسيون صهوة الخلافة العربية، وتبدأ محاولات الاستقلال والانفصال عن الدولة العربية العباسية. ويظهر (ابو سلمة الخلال) و (ابو مسلم الخراساني) و (البرامكة) و (طاهر بن الحسين واولاده)، ويصطدم (بنو سهل) ببني الربيع، ويظهر الافشين، فيحدث هذه المرة «الصراع العربي - الفارسي - السلجوقي» صراعا ثلاثيا.

الخلفاء العباسيون ضعاف الشخصيات، نازلو الهمم، سهلو القيادة والانقياد، فركبهم الاعاجم، وصاروا دمى والاعيب بأيديهم يأتمرون باوامرهم، وينزلون عند رغباتهم حتى اضطر بعض الخلفاء الى انقاص عدد الجند للاستفادة من رواتبهم. والجواسيس يجوبون البلاد طولا وعرضا، ويجتازون الحدود شرقا وغربا بشكل تجار ينقلون الاخبار والاسرار الى الاعداء، سواء كانوا من الثوار المنتفضين على الخلافة في الداخل، او الغزاة من الروم المتحفزين من الغرب، او المغول والتتر المترصدين من الشرق.. والمفاوضات تجرى سراً وشراً ضد الخلافة مع الاعداء.. كل الاعداء المتربصين. واذ تحل المجاعة والطواعين والفيضانات يتقدم الزحف المغولي التتري، ويقضم ما وراء النهر ثم خراسان وفارس وكرمان وقرميسين وقلعة آلموت وقلاع الاسماعيلية اجمعين، ويظهر وزير المستعصم بالله خليفة الدولة العربية العباسية، مؤيد الدين

محمد بن عبدالله بن العلقمي متصديا بموقفه الغريب المريب، والخليفة بموقفه الضعيف المغفل، حتى تثبت الاسانيد، فيرتبك الأمر على الخليفة المستعصم بالله، ليكون آخر خليفة للدولة العربية العباسية. ولا يستفيق هذا الخليفة الاخير من غفلته وجهالته السياسية وضحالته الخططية العسكرية، الا وهو يسمع صهيل خيول المغول والتتر، وجيوشهم تطرق ابواب بغداد الثمانية من الغرب ومن الشرق، واذا بالمجانيق تهد اعالي اسوار بغداد واركانها. فاذا المواجهة المسلحة في آخر لحظة وامام ابواب المدينة، وحول اسوار العاصمة تثبت اقصى درجات الفشل وادنى درجات الحيطة والحذر. وتكتسح بغداد، وتحصد الانفس حصدا، رجالا ونساء، وتتساقط العمائم عن الرؤوس وتقتطف الرؤوس عن الاعناق، وتنحني المنائر وتتساقط احجارها وتتقصف النخيل وتتيبس الاشجار، وتنطفىء شمعة العلم وفنارات المعرفة، التي استمرت تنشر انوارها طيلة خمسة قرون ونصف القرن ونيف من السنوات.

وبعد ان صعدت الخلافة العربية العباسية بالحضارة في مراقي التقدم حتى اوائل القرن الرابع الهجري علميا وفنيا وسياسيا، وامتدت رقعة الدولة العربية العباسية الى ما وراء نهر جيحون شرقا، والمحيط الاطلسي غرباً، اضافة الى شبه الجزيرة العربية والاندلس، الا ان الانحدار التنازلي والضعف والانهاك دبت في كيان الدولة، منذ ان ظهر السلاجقة ثم البويهيون في سماء الدولة، فأصبح الخليفة دمية يلعب بها الغلمان والوزراء، وتظهر البدع، وينشغل الناس بالتمردات التي تنحرف عن طريقها الحقيقي في تغيير الاوضاع الاجتماعية والاحوال الاقتصادية، والغاء الفروق الاجتماعية والاختلافات الطبقية والاحوال الاقتصادية الى مجرد قوى لاسقاط الدولة العربية بالذات.

وتتمزق الدولة العربية وتتشرذم اجزاؤها الى قطاعات، يتحول عدد منها الى دويلات تابعة للخلافة العربية العباسية بالاسم فقط، او مستقلة استقلالا تاما عن الخلافة. والمغول والتتر، يبدأون بقضم اطراف دولة الخلافة ويقتربون

من تخوم العراق . . والخلفاء يقبعون خلف اسوار عاصمتهم ، كأنما العاصمة ، عاصمة من المهالك ، وكأنما هي وحدها دنيا الخلافة وسؤددها . وتجيء الضربة القاضية بالمفاوضات التي تجري سرا بين وزير الخلافة ويفضح الجواسيس التجار اسرار الخلافة الذين يروحون ويجيئون بين همذان قاعدة المغول والتتر ، وبغداد عاصمة الدولة العربية العباسية ، وهم يحملون تجارتهم الاقتصادية النافقة وتجارتهم التآمرية الدافقة . ويتعرف الزاحفون على متانة وقوة اسوار هذه العاصمة ، بغداد العظيمة المعظمة ، واهبة الحب والخير والامن والعطاء والسلام ، بعد أن سجلت نقلة حضارية تفوق النقلة الحضارية التي سجلتها اثينا الاغريق .

ونظرا للاهمية الكبيرة ، فأننا اخذنا على عاتقنا بحث موضوع السيادة العربية واعمال التخريب السياسي الذي قام به الرتل الخامس تحت مظلة الصراع لقلب نظام الحكم والسيطرة على السلطة ، فآثرنا عدم الركون الى اليسير من المصادر التاريخية ، بل استفتينا عشرات المصادر والمراجع التاريخية مثبتين نصوصها ، حتى يتيسر للمطالع الموازنة والحكم على مُجريات الاحداث والملابسات التي ترتب عليه الزحف المغولي التتري نحو العراق لاسقاط الخلافة العربية ، واحتلال بغداد وسحق حضارتنا الانسانية .

وان غرضنا هو تسليط الاضواء على الحقائق وازالة الضباب ، والنظرة الغائمة للاحداث التي عرقلت نزوح الامة الى الكمال من ناحية ، ونزوع الحضارة العربية الى العطاء من ناحية ثانية ، وفضح مسيرة النهضة الحضارية العظيمة التي تعتز بها الانسانية جمعاء ، حيث كانت بغداد مجد هذه الحضارة العظيمة ، ولأن هذه الحضارة كانت واحدة من اعظم الحضارات العالمية الانسانية .

الفصل الاول

بغداد في المنظور التاريخي

مع ان حديثنا في هذا الكتاب، هو عن بغداد - وهي عاصمة العراق جغرافياً، وعاصمة الخلافة العباسية سياسيا واداريا، فلابد لنا من ان نعرف شيئا عن البلد الذي تقع فيه هذه العاصمة. وبغداد هي وسط العراق تقريبا ما بين شرقه وغربه، وشماله وجنوبه. والعراق يعتبر من اقدم المواطن الحضارية، اذ قد عرفت فيه الكتابة لأول مرة في التاريخ قبل حوالي الالف الخامس قبل الميلاد، وعرف فيه النظام السياسي (الدولة) وتكوينها، وتطور المجتمعات التي صنعت حضارات ما تزال تخلب اعجاب الدارسين. لذلك اصبح العراق محط قوافل المهاجرين ومستوطنا لكل القادمين من جنوب الجزيرة العربية، لما يتمتع به من الاراضي الخصبة والمياه الوفيرة والامطار الغزيرة والغابات من النخيل الكثيفة والانهار التي تشق ارضه من الشمال الى الجنوب التي تصلح للتنقل والاسفار عبرها. وفي العصر العباسي كان يطلق على القسم الشمالي (الجزيرة) وهو الذي يضم ماردين وديار بكر والرها (اورفه) اضافة الى الموصل ودقوقا (داقوق) شرقا وعنه، غربا. وكان يطلق على القسم الاوسط والجنوبي اسم (العراق) وهو الذي يقول عنه الاصطخري: «اما العراق، فأنه في الطول من حد تكريت الى حد عبادان على بحر فارس، وفي العرض عند بغداد، من قادسية الكوفة الى حلوان، وعرضه بواسط - من واسط الى قريب الطيب، وعرضه بالبصرة، من البصرة الى حدود (جبّى). الذي يطوف بحدوده من تكريت مما يلي المشرق حتى يجوز بحدود شهرزور، ثم يطوف على حدود حلوان وحدود السيروان والصيمرة وحدود الطيب وحدود السوس، حتى ينتهي الى حدود (جبّى). ثم الى البحر،

فيكون في هذا الحد من تكريت الى البحر تقويس، ويرجع الى حد المغرب من وراء البصرة في البادية على سواد البصرة وبطائحها الى واسط ثم على سواد الكوفة وبطائحها الى الكوفة، ثم على ظهر الفرات الى الانبار، ثم من الانبار الى حد تكريت بين دجلة والفرات، وفي هذا الحد، من البحر الى تكريت تقويس ايضا، فهذا المحيط بحدود العراق» [1]

ويقول القلقشندي ؛ «فأما عراق العرب، وهو بغداد وبلادها وما يليها من ديار بكر وربيعة ومضر . . » [2] وهذا معناه ان العراق كان يمتد من البصرة حتى بغداد فالموصل وديار بكر التي بضمنها ماردين موطن قبائل بكر وربيعة، وآمد والرها (اورفه) من تركيا الحالية .

واذ قامت الخلافة العباسية، فأن ابا العباس السفاح جعل عاصمته الانبار، لأنه كان منشغلا بالتأسيس السياسي للدولة، فاذا جاء ابو جعفر المنصور للخلافة فأنه نقل العاصمة من الانبار الى الكوفة . . لكنه بعد فترة قصيرة، امر ببناء عاصمة جديدة للدولة الجديدة، فوقع اختياره على قرية بغداد لسببين ؛ السبب الاول اجتماعي، هو انه وجد ان الانبار والكوفة لا تصلحان عاصمة لخلافته، والسبب الثاني سياسي فأن ابا جعفر المنصور«لما استقبل عددا من افراد الراوندية، سلموا عليه سلاماً يختلف عن السلام الذي للملوك والامراء» وذلك «لأن فرقة الراوندية تقول ان للملوك حقا الهياً في الحكم . . وتحل فيه بعض الصفات الالهية حتما . . وادعت ان جبرائيل يحل في جسد الخليفة . وهذا ما عاملوا به المنصور . » [3] فأمام هذه الحقيقة قرر ابو جعفر المنصور الانتقال من

---

(١) الاصطخري ابو اسحق ابراهيم الكرخي : المسالك والممالك ص ٥٦ .

(٢) القلقشندي ابو العباس احمد : صبح الاعشى في صناعة الانشا ج٤ ص٤٢١ والخطيب البغدادي : تاريخ بغداد ج١ ص٢٥

(٣) ياقوت الحموي : معجم البلدان ج١ ص ٤٥٧ - ٤٥٨ وابن الطقطقي : الفخري في الآداب السلطانية ص١١٥ وابن الفقيه الهمذاني ؛ بغداد مدينة السلام : ص٣٠

الكوفة، وبناء مدينة جديدة، حصينة لا يقدر على اقتحامها احد. وهكذا كان اختيار مدينة بغداد الواقعة بين قريتين هما بگدادو وكرخايا، وهما قريتان اراميتان سكنهما السريان، وهي التي تقع عند اقرب مسافة بين النهرين.

اسـم بغـداد

وهنا لن اتعرض الى تسمية بغداد وانها جاءتنا من الفارسية، ولن اعترف بذلك مطلقاً، واخالف جميع المؤرخين في هذه التسمية. وذلك ان المؤرخين الذين كتبوا عن تاريخ بغداد بعد تأسيسها، ثم بعد ازدهارها، ثم بعد احتلالها من قبل المغول بقيادة هولاكو، انما اعتمدوا على استشراء استعمال اللغة الفارسية في العراق، ودخول الاعاجم الفرس واندماجهم الشكلي بالعرب، فقد رأوا ان يكون اسم بغداد هذا منحوتا من كلمتين. وهذه محاولات تقريبية تكهنية لا نصيب لها من الصحة والاعتبار. لكن بعد ظهور المكتشفات الحفرية او الاثرية، وحل الكتابة المسمارية ووصول مدونات أكدية وآرامية، كشفت لنا الكثير من الامور التي من جملتها اسم بغداد. فيحق لنا ان نؤكد ان اسم بغداد عراقي وعربي سرياني (آرامي) ولا يمكن ان يكون اسما فارسيا. وان هذه المكتشفات اثبتت ان اسم مدينة بغداد قديم جداً، يعود الى اكثر من الفي سنة قبل الميلاد، ولأنه توجد اسماء عراقية اخرى عديدة على صيغة بغداد مثل باعقوبا (بعقوبة) وباعشيقة (بعشيقة) وغيرها. وتأكيدا لقولنا هذا يقول هرتسفيلد: «كانت بغداد مدينة بابلية قديمة يرتقي تاريخها الى الفي سنة قبل الميلاد على ما يحتمل. وجاء اسمها في القوائم المكتشفة في خزانة اشور بنيبل، وورد ايضا ذكرها في صخرة ميشو Michaux التي وجدت على دجلة قرب موضع المدينة الحالية، ويرجع تاريخها الى عهد (تغلت فلاشر) الاول سنة ١١٠٠ ق. م»[٤]

---

(٤) لغة العرب (مجلة): السنة الرابعة عام ١٩٢٦ ص٨١.

ويقول يدج في كتابه (النيل والفرات): «ان اسم بغداد البسيط نال مدة احد عشر قرناً ونصف قرن، مجدا وسطوة وبهاءً ورونقاً في الشرق والغـرب. وهناك ما يدعو الى الاعتقاد بأنه كان في موضعها، او فيما يلحق بجوارها سوق تجارية غنية خطيرة دامت بضعة الوف من السنين وامر بنـاء البابليين لبكـدادا Bak – da – du ، او ربما كان بناتها من الشمريين، وامر بناء اليونان لسلوقية والبرثيين لطيسفون والساسانيين للمدائن، وكلها في نطاق بضعة اميال قليلة من مدينة بغداد العربية العظيمة ..

«ووجد اسم بكدادو Bak – da – du ، في قائمة عثر عليها في نينوى، وقد كتبت في القرن السابع قبل الميلاد»، والدليل على ان اسم بغداد لا يمكن ان يكون فارسيا هو: «أن الفرس لم يدخلوا العراق الا في عهد كورش (المئة الرابعة قبل الميلاد)، وبغداد معروفة بهذا الاسم قبل الفرس بمئات السنين»[٥]

ويقول الاستاذ يوسف غنيمة: «ان اسم بغداد آرامي مبنىً ومعنىً، وهو مؤلف من كلمتين، من (ب) المقتضبة من كلمة (بيت) عندهم، وكثيرا ما تقع في اوائل اسماء المدن مثل باعقوبا وباقوفا وبطنايا وباعشيقـا وباعـذرا وباجـرمي وغيرها. واللفظة الثانية (كدادا) بمعنى غنم او ضان .. فيكون مفاد بكدادا، مدينة او دار او بيت الغنم او الضان. واذا كانت هناك سوق فمن المحتمل انهم كانوا يبيعون فيها الغنم او الضان في اول الامر»[٦]

لكن الاب انستاس الكرملي يقول: «ان اسم بغداد ليس بآرامي، اذ من الثابت في التاريخ ان الاراميين لم تطأ اقدامهم ارض العراق قبل القرن الثاني عشر قبل الميلاد، في حين وجدت آثار مرقومة تبرهن انه كان على عهد الملك حمورابي (القرن ١٨ ق . م) مدينة في مملكته بأسم (بگداد) ثم ان حجراً من حجارة الحدود يعود تاريخه الى عهد الملك الكشي (مارثاس) كتب فيهـا كلمة

---

(٥) لغة العرب (مجلة) السنة الرابعة عام ١٩٢٦

(٦) لغة العرب (مجلة) السنة الرابعة عام ١٩٢٦/ ص ٨١ .

(بگداد)»[٧] . والكرملي هنا يعارض يوسف غنيمة، ولا يرجح اختصار بيت الارامية بحرف (ب) ويدعي ان ذلك يتطلب عدة قرون. لكننا نقول ان اسماء العديد من المدن العراقية في الشمال والوسط التي تبتدىء بحرف الباء ذات معنىً ومبنىً آرامي، مما يجعلنا، قياساً نقول ان اسم بغداد آرامي لأن (بگدادو): بيت الغنم، مثل باعقوبا (بعقوبة) بيت الحارس، وباقوفا: بيت الاخشاب، وباجسرا: بيت الجسر، وبحزاني: بيت المشهد، وبعشيقا: بيت الظالم، وباطنايا: بيت الطين، وباعويرا: بيت المعبر وباصخرا (سحرايا): بيت اصحاب القصور، وباكلبا: بيت الكلب، وبامرني: بيت حصين، وباريما: بيت الرفعة.[٨]

بناء بغداد

لقد بنيت بغداد ـ المدينة المدورة، كما هو معروف على ضفة نهر دجلة، وعند اقرب نقطة من منعطف نهر الفرات، اضافة الى ذلك، فأن نهر دجلة جعل من مدينة بغداد، محصنة بنهرين من الصعب عبورهما في حالات الهجوم العسكري، ومدينة بغداد كما يقول الاصطخري: «مدينة محدثة في الاسلام، لم تكن بها عمارة، فابتنى المنصور المدينة في الجانب الغربي، وجعل حواليها قطائع لحاشيته ومواليه واتباعه، مثل قطيعة الربيع والحربية وغيرهما، ثم عمرت، فلما كان في ايام المهدي جعل معسكره في الجانب الشرقي، فسمي عسكر المهدي ثم عمرت بالناس والبنيان، وانتقلت الخلافة الى الجانب الشرقي، وهي اليوم اسفل هذا الجانب بالحريم، وليس وراءها بنيان للعامة متصل، وتفترش قصور الخلافة وبساتينها من بغداد الى نهربين ـ وهو نهر يأخذ من الجانب الايمن لنهر النهروان

(٧) جمال بابان: اصول اسماء المدن والمواقع العراقية ج١ص ٤٨ .

(٨) عن المعاجم السريانية .

متجها نحو كلواذى حيث يصب في دجلة ـ فرسخين على جدار واحد، حتى تتصل من نهربين الى شط دجلة، ثم يتصل البناء بدار الخلافة مرتفعا على دجلة الى الشماسية نحو خمسة اميال ـ وتحاذي الشماسية في الجانب الغربي الحربية ـ فيمتد نازلا على دجلة الى آخر الكرخ، ويسمى الشرقي جانب الطاق، وجانب الرصافة، وعسكر المهدي، فمن ينسبه الى الطاق يعني ان اوله باب الطاق، وهو موضع السوق الاعظم، ومن نسبه الى الرصافة نسبه الى قصر كان الرشيد بناه بقرب المسجد الجامع بها، ومن نسبه الى عسكر المهدي، فأن المهدي، كان عسكر من هذا الجانب بحذاء مدينة ابي جعفر المنصور، ويسمى الجانب الغربي، جانب الكرخ. وببغداد مساجد جوامع في ثلاثة مواضع، في مدينة المنصور، وفي الرصافة ودار الخلافة. وتتصل العمارة والبنيان بكلواذى، وبها مسجد جامع. فلو عد في جملة بغداد، لجاز. وقد عقد بين الجانبين جسران من سفن. ويكون من باب خراسان الى ان يبلغ باب الياسرية، وذلك عرض الجانبين جميعا، نحو خمسة اميال، واعمر بقعة منها، الكرخ، وبها اليسار ومساكن معظم التجار. واما الاشجار والانهار التي في الجانب الشرقي ودار الخلافة ـ فأنها من ماء النهروان وتامرّا (القاطول)، وليس يرتفع اليها من ماء دجلة الا شيء يسير يعصر عن العمارة وينضح بالدواليب، واما الجانب الغربي، فأنه قد شق اليه من الفرات، نهر عيسى من قرب الانبار، تحت قنطرة (دِمّا). وتتحلب من هذا النهر، صبابات تجتمع فتصير نهرا، يسمى (الصراة)، ويتفجر منها انهار، وبها عمارات الجانب الغربي، ويقع ما بقي من ماء الصراة الصغيرة والكبيرة في دجلة، وينتهي آخر نهر عيسى الى دجلة في جوف مدينة بغداد. اما نهر عيسى فأن السفن تجري فيه من الفرات الى ان يقع في دجلة. واما الصراة فأن فيها حواجز تمنع من جري السفن فتنتهي السفن منها الى قنطرة الصراة، ثم يحول ما فيها ويجاوز به ذلك الحاجز الى سفن غيرها. وبين بغداد والكوفة سواد مشتبك غير متميز، تخترق اليه انهار من الفرات، فأولها مما يلي بغداد، نهر صرصر

(ابو غريب) ثم نهر الملك (الرضوانية) ثم نهر سورا»[9]

ويقول ابن الفقيه الهمذاني عندما سأل ابو جعفر المنصور صاحب بغداد (القرية) الدهقان، ان هذا الدهقان قال: «اراه يا امير المؤمنين ان تنزل في نفس بغداد، فأنك بين اربعة طساسيج: منها طسوجان في الجانب الغربي، وطسوجان في الجانب الشرقي، فاللذان في الغزبي هما قطربل وبادوريا واما اللذان في الجانب الشرقي فهما نهر بوق وكلواذى، فأن (ضرب) منها طسوج او تأخرت عمارته كان الآخر عامراً) وانت يا امير المؤمنين على الصراة ودجلة تجيئك الميرة من المغرب في الفرات ومن الشام ومصر، وسائر تلك البلدان، وتحمل اليك طرائف الهند والصين والسند والبصرة وواسط في دجلة، وتجيئك (ميرة) ارمينية واذربيجان وما يتصل بها من سامرا، وتجيئك الميرة من الروم وآمد وميافارقين وآرزن والثغور الجزرية، ومن الجزيرة والموصل وبلد ونصيبين الى مشارف الشام في دجلة، وانت بين انهار لا يصل اليك عدوك الا على جسر، او قنطرة، فأذا قطعت الجسر واخربت القنطرة لم يصلك.. وانت بين دجلة والفرات لا يجيئك احد من المشرق والمغرب الا احتاج الى العبور، وانت تتوسط البصرة والكوفة وواسط والسواد. وانت قريب من البر والبحر والجبل.. وقال له ذلك الدهقان نعم يا امير المؤمنين، وها هنا شيء آخر قال: ما هو؟ قال: انَّ المدن تحصن بالاسوار والخنادق وقد رزقك الله سورا وخندقا لم يعمل مثلهما لسائر مدن الشرق والغرب. قال: وما هما؟ قال: دجلة والصراة يكتنفان مدينتك من جانبيها، قال: صدقت يا دهقان»[10]

وحرصا من المنصور على أمن الخلافة، بعد أن اتم بناء مدينة بغداد، وجعل الاسواق في طاقاتها «قال الشروي، بل كان سبب اخراج الاسواق عنها، ان المنصور حين استتم البناء دعا اليه رسل الملوك الذين كانوا على بابه، فقال:

---

(٩) الاصطخري ابو اسحق ابراهيم: المسالك والممالك ص ٥٢ ـ ٥٣.

(١٠) ابن الفقيه الهمذاني: بغداد مدينة السلام؛ تحقيق د. صالح احمد العلي ص ٣١ ـ ٣٢.

كيف ترون مدينتي هذه؟ قالوا؛ ما رأينا احسن تقديرا ولا احكم بناء ولا احصن اسوارا منها. فقال: هل ترون فيها عيبا؟ فقال احدهم: نعم. سوقها في جوفها، والجواسيس لا ينكر عليهم مخالطة السوقة ومبايعتهم، وقال آخر: ومن عيوبها ايضا ان ليس لها نهر يخترقها»[11] . وهكذا طلب ابو جعفر المنصور اخراج الاسواق من المدينة المدورة (بغداد) الى الكرخ التي تقع خارج اسوار المدينة والى الجنوب الغربي منها.

وقال ابن الجوزي: «لما فرغ المنصور من مدينته وصير الاسواق فيها من كل جانب، قدم عليه وفد من الروم، فأمر ان يطاف بهم في المدينة، ثم دعاهم فقال للبطريق: كيف رأيت هذه المدينة؟ قال البطريق: رأيت امرها كاملا الا في خلة واحدة. قال: ما هي؟ قال: عدوك يخترقها متى شاء وانت لا تعلم واخبارك مبثوثة في الآفاق لا يمكنك سترها. قال: كيف؟ قال: الاسواق فيها، والاسواق غير ممنوع منها احد، فيدخل العدو وكأنه يريد ان يتسوق. واما التجار، فأنها ترد الآفاق فيتحدثون باخبارك، فأمر المنصور حينئذ بأخراج الاسواق من المدينة الى الكرخ، وان يبنى ما بين الصراة الى نهر عيسى وولى ذلك محمد بن جبيش»[12] ، «ثم وجه في احضار المهندسين واهل المعرفة بالبناء والعلم بالذرع والمساحة وقسمة الارضين، حتى اختط مدينته المعروفة بمدينة ابي جعفر، واحضر البنائين والفعلة والصناع من النجار ين والحدادين والحفارين، فلما اجتمعوا وتكاملوا، اجرى عليهم الارزاق واقام لهم الاجرة، وكتب الى كل بلد في حمل ما فيه ممن يفهم شيئا من البناء، فحضره مائة الف من اصناف المهن والصناعات. ثم اختطها في شهر ربيع الاول سنة احدى واربعين ومائة وجعلها مدورة، ولا تعرف في جميع اقطار الدنيا مدينة مدورة غيرها، ووضع اساس

---

(١١) ابن الفقيه الهمذاني: بغداد مدينة السلام، تحقيق د. صالح احمد العلي ص ٣٨ .
(١٢) ابن الجوزي جمال الدين ابو الفرج: مناقب بغداد ص ١٣

المدينة في وقت اختاره (نوبجت المنجم) و (ما شاء الله بن سارية) [١٣] . وقبل وضع الاساس ضرب اللبن العظام، وكان في اللبنة التامة المربعة ذراع في ذراع، وزنها مائتا رطل، واللبنة المنصفة طولها ذراع وعرضها نصف ذراع. وحفرت الآبار للماء وعملت القناة التي تأخذ من نهر كرخايا، وهو النهر الآخذ من الفرات، فا تقنت القناة واجريت الى داخل المدينة للشرب ولضرب اللبن وبل الطين. وجعل للمدينة اربعة ابواب، بابا سماه باب الكوفة، وبابا سماه باب البصرة، وبابا سماه باب خراسان، وبابا سماه باب الشام. وبين كل باب منها الى الآخر خمسة آلاف ذراع بالذراع السوداء من خارج الخندق، وعلى كل باب منها، بابا حديد عظيمان جليلان، ولا يغلق الباب الواحد منها، ولا يفتحه الا جماعة رجال؛ يدخل الفارس بالعلم والرامح بالرمح الطويل، من غير ان يميل العلم ولا يثني الرمح، وجعل سورها باللبن العظام التي لم ير مثلها قط على ما وصفنا من مقدارها والطين. وجعل عرض اساس السور تسعين ذراعا بالسوداء، ثم ينحط حتى يصير في اعلاه على: خمس وعشرين ذراعا وارتفاعه ستون ذراعا مع الشرفات. وحول السور فصيل جليل عظيم، بين حائط السور وحائط الفصيل مائة ذراع بالسوداء، وللفصيل ابرجة عظام وعليه الشرافات المدورة، وخارج الفصيل، يدور مسناة بالآجر والصاروج متقنة محكمة عالية، والخندق بعد المسناة قد اجري فيه الماء من القناة التي تأخذ من نهر كرخايا، وخلف الخندق الشوارع العظام. وجعل: لابواب المدينة اربعة دهاليز عظاما آزاجا كلها، حول كل دهليز ثمانون ذراعا، كلها معقودا بالآجر والجص. فاذا دخل من الدهليز الذي على الفصيل وافى رحبة مفروشة بالصخر ثم دهليزا على السور الاعظم، عليه بابا حديد جليلان عظيمان، لا يغلق كل باب ولا يفتحه الا جماعة رجال. والابواب الاربعة كلها على ذلك، فاذا دخل من دهليز السور

---

(١٣) ولعل هذا من وضع المؤرخين المتأخرين وزياداتهم، لأن ابا جعفر المنصور وامثاله لم تكن له عناية بمثل هذه العلوم لمعارضتها للعقيدة الاسلامية.

الاعظم سار في رحبة الى طاقات معقودة بالآجر والجص فيها كواء رومية يدخل منها الشمس والضوء ولا يدخل المطر» (١٤)

«قالوا: وكانت بغداد قديمة فحضرها امير المؤمنين المنصور (رض) وابتنى بها مدينة، وابتدأها سنة خمس واربعين ومائة، فلما بلغه خروج محمد وابراهيم ابني عبدالله عاد الى الكوفة، ثم حول بيوت الاموال والخزائن والدواوين من الكوفة الى بغداد، سنة ست واربعين ومائة، وسماها مدينة السلام، واستتم بناء حائط مدينته وجميع امره، وبناء سور بغداد القديم سنة سبع واربعين ومائة، وتوفي سنة ثمان وخمسين ومائة بمكة. . وبنى المنصور للمهدي الرصافة في الجانب الشرقي ببغداد. وكان هذا الجانب يدعى عسكر المهدي لأنه عسكر فيه حين خرج الى الري. . وابتاع ارض مدينة السلام، من قوم من ارباب القرى بادوريا،وقطربل، وبهزبوق ونهربين، واقطعها اهل بيته وقواه، وجنده، وصحابته وكتابه، وجعل مجمع الاسواق بالكرخ، وامر التجار، فأبتنوا الحوانيت والزمهم الغلة» (١٥)

و «سمي المخرم ببغداد، مخرما لأن (مخرم بن شريح بن حزن الحارثي) نزله. . وكان ناحية قنطرة البردان للسري بن الحطيم صاحب الحطمة التي تعرف ببغداد»، «. . الصالحية ببغداد نسبت الى صالح بن المنصور. . والحربية الى حرب بن عبدالله البلخي، وكان على شرط جعفر بن ابي جعفر بالموصل، والزهيرية تعرف بباب التبن نسبت الى زهير بن محمد من اهل ابيورد، وعيساباذ نسبت الى عيسى بن المهدي. . وقصر عبد ويه مما يلي براثا نسبت الى رجل من

---

(١٤) اليعقوبي احمد بن ابي يعقوب: كتاب البلدان ص ٧ ـ ٨

(١٥) البلاذري ابو الحسن: فتوح البلدان ص٢٩٣ ـ ٢٩٤ .

د. يعقوب لسنر: ترجمة د. صالح احمد العلي: خطط بغداد ص ٨٠ ـ ٩٢

الازد يقال له عبد ويه [١٦]

المظاهــر العمــرانية

مع كون بغداد حديثة البناء، اذ أجمع المؤرخون على ان الخليفة العباسي الثاني ابا جعفر المنصور هو الذي امر ببنائها، واشرف على التخطيط واختيار المكان والبناء، الا ان المؤرخين مع ذلك يؤكدون ان بغداد كانت سوقا يقصدها تجار الصين بتجاراتهم، فيربحون الربح الواسع» [١٧] . والسبب في اختيار المنصور هذا الموقع لمدينة بغداد، لكون اهل الكوفة افسدوا جند المنصور [١٨] . لأن اكثر اهل الكوفة كانوا من الفرس، واللغة المتداولة فيها ايضا، هي اللغة الفارسية، لذلك خرج المنصور نحو الجبل يرتاد منزلا، وطريق الناس يومئذ على المدائن. ولا يشك ان موقع بغداد، لا يمكن ان يكون خلوا من القرى العامرة، خاصة وهذا الموقع يقع بين الصراة من الغرب ونهر دجلة من الشرق. ومثل هذا الموقع الحصين عسكريا، الوافر المياه، الخصب الارض لا يمكن ان يترك بلقعا خاليا. ولقد اصبحت بغداد مدينة السلام مركزا ثقافيا عالميا، لحقبة من الزمن امتدت طيلة خمسة قرون، اضافة الى ما كانت تتمتع به من بهجة وجمال، ونظافة وعمران حتى وصفها ابو الوفاء بن عقيل في القرن الخامس الهجري وهو الذي قضى حياته في بغداد، وكان معتزاً بها اعتزاز البغداديين في العصور الوسطى المعروفين بحبهم لمدينتهم العظيمة، وهو يظهر حبه لبغداد بمعلومات غنية معتمدة واحساسا دقيقا بالجمال، فلا يذكر امرا يكاد يستبعد، لكنه يذكر محلته، وهي واحدة من عشر محلات، كل محلة كبلد من بلاد الشام، وهي المعروفة بباب

(١٦ ـ ١٧) البلاذري: فتوح البلدان ص ٢٩٤
د. يعقوب لسنر؛ خطط بغداد؛ ترجمة د. صالح احمد العلي ص ٨٥ .
(١٨) ولها وزن: الدولة العربية وسقوطها .

الطاق فيقول: «اما شوارعها، فشارع مما يلي دجلة من احد جانبيه قصور على دجلة، طراز ممتد من عند الجسر الى اوائل الزاهر، وهو بستان نلملك نحو مائتي جريب، وجانبه الآخر مساجد ارباب القصور، ومساكن غلمانهم، وفي خلال ذلك اصطبلاتهم. ثم يليه عن يمينه عند الجسر سوق يحيى الجامعة بين دور الوزراء والامراء مما يلي الشط كدار شادي والربيب وابن الاوحد وقصر الوافي الذي كان عليق دوابه كل يوم الف مخلاة، ثم في آخر السوق دار فرج ومساكن التقات والرؤساء. ومن الجانب الغربي، اعني جانب سوق يحيى، الدكاكين العالية والدروب العامرة، من دقاقين وخبازين وحلاويين، ثم نهاية الدور الشاطئية: دار معز الدولة (البويهي) ذات المسناة التي عرضها مائة آجرة، وكان لها روشن. فهذا طراز باب الطاق الشاطئي. فأما دواخلها، فأوائلها العرصة التي هي رحبة الجسر، وتنقسم رحبة الجسر الى شارعين عظيمين: احدهما للاساكفة، ثم سوق الطير، وهو سوق يجمع الرياحين، وفي حواشيها، الصيارف الظراف والقصابين وسوق الصاغة، لم يشاهد احسن بناء منه؛ بناء شاهق واساطين ساج عليها غرف مشرفة، ثم الوراقين؛ سوق كبيرة وهي مجالس العلماء والشعراء، ثم سوق الرصافة، عظيمة جامعة، ثم شارع الترب، وقصر المهدي وجامع الرصافة، ودرب الروم، وشارع عبدالصمد والسقايات العجيبة في طريق الجامع، ذات الاجراس الكثيرة، ونظير هذا من الجانب الغربي، الكرخ وشاطئه؛ قصور منتظمة ذوات دواليب وبساتين ورواشن متقابلة، وبين يدي ذلك دار خيطية مشذبة لرب الدار، مسرجة بالحلية المليحة والرجاشات العجيبة، والبط يتلاعب في مشرعة الدار الشاطئية، ولربما اختلطت اصوات اغانيها برنيم دواليبها ونقيق بطها وضجة غلمانها، وخدمها، ودجلة تنسل بين شاطىء قصورها الشاطئية. ولقد نزلت كثيراً في سميرية منحدرا، فما ازال أسمع هذه الانغام من شرعة الجسر بباب الطاق الى باب المراتب.. وفي السبوت: مجالس القراء على الكراسي بالالحان وحلق العلاج والصراع،

ومسابقة السفن. ومن احسن القصور، كانت دار الفخرية بالغربي، ودار المملكة بالشرقي، ولم يكن للدار المعزية، مثل دار (يلدرك) والحريم الطاهري، ودوره الشاطئية وسوره الدائر، وبابه الجديد ودار الامير حسن بن اسحق المقتدر الذي عرضت عليه الخلافة فأباها. . وكنت اسمع من المشايخ ان بدجلة خمسمائة مصفرة مزينة، لا يركب فيها الا الاظراف التجار والاجناد وارباب المقاطعات: الرجل وغلامه والملاحون بالثياب الجميلة. . وكان بسور الحلاويين خزانة كتب فيها اثنا عشر الف مجلد. . وكانت اسواق الكرخ وباب الطاق لا يختلط العطارون بارباب الزهائم والروائح المنكرة، ولا ارباب الانماط بارباب الاسقاط»[19] .

«وعلى ضفتي دجلة قصور الخلافة والمدارس والابنية العلية بالشبابيك، والطاقات المطلة على دجلة، وبناؤها بالآجر. . ومن بيوتها ما هو مفروش بالآجر ايضاً، ملصق بالقير، وهو الزفت. ولهم الصنائع العجيبة في التزويق والربط والبيمارستانات والصدقات الجارية ووجوه المعونة»[20]

اما مساحة مدينة بغداد (مدينة السلام) المدورة فأن «ذرع بغداد ثلاثة واربعون الف جريب وسبعمائة جريب وخمسون جريباً ـ الجريب يساوي ١٥٩٢م٢ ـ منها الجانب الشرقي في ستة عشر الف جريب وسبع مئة وخمسون جريباً، والجانب الغربي سبعة وعشرون الف جريب . . و . . تقرر ان طول بغداد على شاطىء دجلة من باب الشماسية الى دار الخلافة، خمسة اميال، وان عرضها من باب خراسان (في الجانب الشرقي) الى الياسرية خمسة اميال ايضاً. وقد حسب لسيترانج معتمدا على هذه الارقام مساحة بغداد، خمسة وعشرين ميلا مربعا، على الرغم من ان الميل العربي يساوي الفي متر، الميل الانكليزي يساوي ١٧٢٨ ياردة/ ١٥٠٠م»[21]

---

(١٩) ابن الجوزي جمال الدين ابو الفرج عبدالرحمن : مناقب بغداد ص ٢٧
وجورج مقدسي خطط بغداد: ترجمة د . صالح العلي ص ٢١ ـ ٣٢

(٢٠) القلقشندي ابو العباس احمد بن علي: صبح الاعشى في صناعة الانشا ج٤ ص ٣٣١

(٢١) د. يعقوب لسنر، خطط بغداد؛ ترجمة د. صالح احمد العلي ص ١٢٥/٢٠٣

وعندما اصبحت بغداد جانبين حول نهر دجلة ربط هذا الجانبان بثلاثة جسور لعبور السابلة، ثم اضيف جسران آخران بعد مدة، وهكذا توسعت بغداد، وبني سور حول الرصافة التي هي الجانب الشرقي، وامتدت المدينة المدورة (دار السلام) حتى اشتملت على الكرخ، فعرف الجانب الغربي كله باسم الكرخ. وزهت بغداد بجانبيها؛ بعمرانها واسواقها ومساجدها وجوامعها وحماماتها حتى قيل ان فيها آلاف الحمامات لكننا نرجح ان فيها ما يقرب من المائتي حمام، وفيها ثلاثون مدرسة، اشهرها واكبرها المدرسية النظامية ثم المدرسة المستنصرية التي ما تزال عمارتها باقية لحد الآن، اما ما فيها من الاسواق فيقدر باثنين وسبعين سوقاً [٢٢] معروفة باسمائها، وتسع سويقات، وهذه الاسواق معروفة بما يباع فيها» وباسماء اصحابها كسوق الحناء، وسوق الدجاج، وسوق الطيب، وسوق العطارين، وسوق الصاغة وغيرها. ولا يسعنا المقال حتى نعدد اوصاف بغداد وجمالها وعظمتها، اذ يكفي ان نورد نخبة من الاقوال والقصائد او مقاطع القصائد التي قيلت عن بغداد، فيقول الخطيب البغدادي: « . . عن ابن عائشة قال: كتب عمر بن الخطاب الى كعب الاحبار: اختر لي المنازل، قال: فكتب: يا امير المؤمنين، انه بلغنا ان الاشياء اجتمعت، فقال السخاء: اريد اليمن، فقال حسن الخلق: انا معك. وقال الجفاء: اريد الحجاز، فقال الفقر: وانا معك. وقال البأس: اريد الشام. فقال السيف؛ وانا معك. وقال العلم؛ اريد العراق: فقال العقل؛ وانا معك، وقال الغنى: اريد مصر: فقال الذل؛ وانا معك، فأختر لنفسك قال: فلما ورد الكتاب على عمر، قال؛ فالعراق اذاً؛ فالعراق اذاً» . [٢٣]

---

(٢٢) د. حمدان الكبيسي: اسواق بغداد ـ صفحات متعددة .

(٢٣) الخطيب البغدادي؛ تاريخ بغداد ج١ ص٢٥ .

وقال الفرج الببغاء: «هي مدينة السلام، بل مدينة الاسلام، فأن الدولة النبوية والخلافة الاسلامية بها عششتا وفرضتا وضربتا بعروقهما وبسقتا بفروعهما. وان هواءها اغذى من كل هواء، وماءها اعذب من كل ماء، وان نسيمها أرق من كل نسيم، وهي من الأقليم الأعتدالي بمنزلة المركز من الدائرة»[٢٤]. وقال أحد الفضلاء: «بغداد جنة الأرض ومدينة السلام، وقبة الأسلام ومجمع الرافدين وغرة البلاد، وعين العراق، ودار الخلافة، ومجمع المحاسن والطيبات، ومعدن الظرائف واللطائف. وبها أرباب الغايات في كل فن وآحاد الدهر في كل نوع[٢٥]. وقال أبو أسحق الزجاج: «بغداد حاضرة الدنيا وما عداها بادية»[٢٦] وقال عمارة بن عقيل بن بلال بن جرير الخطفي:

ما مثل بغداد في الدنيا ولا الدين ... على تقلبها في كل ما حين
ما بين قطربل فالكرخ نرجسه ... تندى، ومنبت خيري ونسرين
تحيا النفوس بريـاها اذا نفحت ... وخرشت بين اوراق الرياحين
سقياً لتلك القصور الشاهقات ... وما تخفي من البقر الأنسية العين
تستن دجلة فيما بينها فترى ... وهم السفين تعالى كالبراذين
مناظر ذات ابواب مفتحة ... أنيقة بزخاريف وتزيين
فيها القصور التي تهوي باجنحة ... بالزائرين الى القوم المزورين
من كل حراقة تعلو مفارقها ... قصر من الساج عالٍ ذو أساطين[٢٧]

---

(٢٤) ياقوت الحموي: معجم البلدان

(٢٥ - ٢٦ - ٢٧) ياقوت الحموي؛ معجم البلدان

والخطيب البغدادي: تاريخ بغداد ص ٤٥ وابن الفقيه الهمداني؛ بغداد مدينة السلام ص٦٢

وقال أبو محمد عبدالوهاب بن علي بن نصر المالكي وهو يودع بغداد :

سلام علىٰ بغداد من كل منزل ... وحق لها مني السلام المضاعف
فو الله ما فرقتها عن قلىٰ لها ... واني بشطي جانبيها لعارف
ولكنها ضاقت علي برحبها ... ولم تكن الأرزاق فيها تساعف[28]
وكانت كخل كنت اهوىٰ دنوه ... وأخلاقه تنأىٰ به وتخالف

ووجد علىٰ حائط بجزيرة قبرص مكتوباً :

فهل نحو بغداد مزار فيلتقي ... مشوق ويحظىٰ بالزيارة زائر
الىٰ الله اشكو لا الىٰ الناس انه ... علىٰ كشف ما القىٰ من الهم قادر[29]

ووجد علىٰ بعض الأميال بطريق مكة مكتوباً :

ايا بغداد يا اسفي عليك ! ... متىٰ يقضي الرجوع لنا اليك؟
قنعنا سالمين بكل خير؛ ... وينعم عيشنا في جانبيك[30]

وقال الرشيد وهو في طريقه الىٰ الحج :

اقول وقد جزنا زرود عشية ... وكادت مطايانا تجوز بنا نجد
علىٰ اهل بغداد السلام فأنني ... ازيد بسيري عن ديارهم بعد[31]

(٢٨ ـ ٢٩ ـ ٣٠ ـ ٣١) ياقوت الحموي : معجم البلدان . وابن الفقيه الهمداني : بغداد مدينة السلام ص٦٣ والخطيب البغدادي : تاريخ بغداد ج١ ص٥٣

وقال طاهر بن المظفر بن طاهر الخازن :

سقى الله صوب الغاديات محلة ... ببغداد بين الخلد والكرخ والجسر
هي البلدة الحسناء خصت لأهلها ... باشياء لم يجمعن مذ كن في مصر
هواء رقيق في اعتدال وصحة ... وماء له طعم الذمن الخمر
ودجلتها شطان قد نظما لنا ... بتاج الى تاج، وقصر الى قصر
ثراها كمسك، والمياه كفضة ... وحصباؤها مثل اليواقيت والدر [٣٢]

وقال أبو اسحاق الزجاج : «الدنيا بادية وبغداد حاضرتها» [٣٣] وقال الشافعي : «ما دخلت بلداً قط الا عددته سفراً، الا بغداد، فأني حين دخلتها عددتها وطناً» [٣٤] . وأنشد الجاحظ في بغداد:

يا حبذا بغداد من بلدة ... يا ليتني اوطنت بغدادا
لم ترعني مثلها بلدة ... اطيب اصداراً وايرادا
ان ردني الله الى أهلها ... لم اتزود للنهى زادا [٣٥]

وقال عمارة بن عقيل بن بلال بن جرير الخطفي في مدح بغداد :

اعاينت في طول من الأرض أو عرض ... كبغداد من دار بها مسكن خفض
صفا العيش في بغداد واخضر عودها ... وعيش سواها غيره خفض ولا غض
تطول بها الاعمار ان غذاءها ... مرىء وبعض الأرض امرأ من بعض

(٣٢ ـ ٣٣ ـ ٣٤ ـ ٣٥) ابن الجوزي : مناقب بغداد ص ٣٠

قضى ربها أن لا يموت خليفة ... بها، انه ما شاء في خلقه يقضي
تنام بها عين الغريب ولا ترى ... غريباً بأرض الشام يطمح في الغمض
فأن جزيت بغداد منهم بقرضها ... فما اسلفت الا الجميل من القرض
وان رميت بالهجر منهم وبالقلى ... فما اصبحت اهلا لبحر ولا بغض

وقال محمد بن علي بن خلف النيرماني :

فدى لك يا بغداد كل مدينة ... من الأرض، حتى خطتي وداريا
فقد طفت في شرق البلاد وغربها ... وسيرت خيلي بينها وركابيا
فلم ار منها مثل بغداد منزلا ... ولم ار فيها مثل دجلة واديا
ولا مثل أهليها أرق شمائلا ... واعذب الفاظاً واحلى معانيا
وقائلة: لو كان ودك صادقاً ... لبغداد لم ترحل، فقلت جوابيا
يقيم الرجال الموسرون بأرضهم ... وترمي النوى بالمقترين المراميا [٣٦]

ومما يدل على الذوق الرفيع وحب الجمال في المطعوم والمشروب ما قال محمد بن عبيدالله التميمي: سمعت ذا النون يقول بمصر: من اراد المروءة والظرف فعليه بسقاة الماء ببغداد. فقيل له: وكيف ذلك؟ فقال؛ لما حملت الى بغداد رمي بي على باب السلطان مقيدا، فمر بي رجل متزر بمنديل ديبقي، بيده كيزان خزف رقاق وزجاج مخروط، فسألت: هذا ساقي السلطان؟ فقيل لي: لا. هذا ساقي العامة. فأومأت اليه: اسقني. فتقدم وسقاني، فشممت من الكوز رائحة مسك، فقلت لمن معي: ادفع اليه ديناراً فاعطاه، فأبى، وقال؛ لا

(٣٦) ياقوت الحموي؛ معجم البلدان ج١ وابن الجوزي؛ مناقب بغداد ص٣٢ والخطيب البغدادي: تاريخ بغداد ج١ ص٥٢

آخذ منك شيئاً، فقلت له: لمَ؟ فقال: انت اسير، وليس من المروءة ان آخذ منك شيئاً. فقلت: كمل الظرف في هذا»[٣٧] وقال محمد بن أدريس ليونس بن عبد الاعلى؛ يا يونس دخلت بغداد؟ قال يونس؛ لا. قال محمد بن أدريس: يا يونس ما رأيت الدنيا، ولا رأيت الناس»[٣٨]. وقال ابن عائشة: «ما رأيت أحسن من تلطف أصحاب الحديث ببغداد للحديث»[٣٩]. وقال محمد بن سلام: قال: سمعت ابن علية يقول: ما رأيت قوماً اعقل في طلب الحديث من أهل بغداد»[٤٠]. وقال أبو الحسن البغدادي عن ابراهيم بن عبدالله قال: جئت انا وابي الىٰ ابي عثمان الجاحظ في آخر عمره. فقال: جئت الى شق مائل، ولعاب سائل، الأمصار عشرة، فالصناعة بالبصرة، والفصاحة بالكوفة، والخبر ببغداد، والغدر بالري، والحسد بهراة، والجفاء بنيسابور، والبخل بمرو، والطرمذة بسمر قند، والمروءة ببلخ، والتجارة بمصر»[٤١]. وقال ابن الحسين احمد بن جعفر المنادي؛ ان بغداد سميت حين سكنت مدينة السلام، فليس في الأرض مدينة علىٰ هذا الإسم غيرها. . وقال: هذا الىٰ تركنا ذكر اشياء كثيرة من مناقبها التي افردها الله بها دون سائر الدنيا، شرقاً وغرباً، وبين ذلك من الاخلاق الكريمة والسجايا المرضية، والمياه العذبة الغدقة، والفواكه الكثيرة الدمثة، والأحوال الجميلة والحذق في كل صنعة، والجمع لكل حاجة، والأمن من ظهور البدع، والاغتباط بكثرة العلماء والمتعلمين والفقهاء والمتفقهين، ورؤساء المتكلمين وسادة الحساب والنحوية، ومجيدي الشعراء، ورواة الاخبار والأنساب، وفنون الآداب، وحضور كل طرفة، واجتماع ثمار الازمنة في زمن واحد، لا يوجد ذلك في مدن الدنيا الابها، سيما زمن الخريف. . وستى هرب

---

(٣٧) ابن الجوزي: مناقب بغداد ص٣١ والخطيب البغدادي: تاريخ بغداد ج١ ص٥٠

(٣٨ - ٣٩ - ٤٠) والخطيب البغدادي: تاريخ بغداد ج١ ص٤٥

(٤١) الخطيب البغدادي؛ تاريخ بغداد ج١ ص٤٥

حد من خصمه وجد من يستره في قرب او بعد» . . وعن رفاه مدينة بغداد ووفرة ثرواتها يقول البغدادي عن احدهم: «رأيت في زمن ابي جعفر، كبشاً بدرهم، وحملا باربعة دوانق، والتمر ستين رطلا بدرهم، والزيت، ستة عشر رطلا بدرهم، والسمن، ثمانية ارطال بدرهم.. والعسل عشرة ارطال بدرهم» . . . . ويقول ابن جبير . . . : «ثم نرجع الى ذكر بغداد: هي كما ذكرناه جانبان؛ شرقي وغربي، ودجلة بينهما، فأما الجانب الغربي فقد عمه الخراب، واستولى عليه، وكان معموراً اولا، وعمارة الجانب الشرقي محدقة، لكنه مع استيلاء الخراب عليه يحتوي على سبع عشرة محلة، كل محلة منها مدينة مستقلة، وفي كل واحدة منها: الحمامان والثلاثة والثمانية.. بجوامع يصلى فيها الجمعة؛ فاكبرها القرية، وهي التي نزلنا فيها بربض منها يعرف بالمربعة على شط دجلة بمقربة من الجسر، فحملته دجلة بمدها السيلي، فعاد الناس يعبرون بالزوارق، والزوارق فيها لا تحصى ،كثرة، فالناس ليلا ونهارا من تمادي العبور فيها، في نزهة متصلة، رجالا ونساء. والعادة ان يكون لها جسران: احدهما مما يقرب من دور الخليفة، والآخر فوقه لكثرة الناس. والعبور بالزوارق لا ينقطع منها، ثم الكرخ، وهي مدينة مسورة، ثم محلة باب البصرة، وهي ايضا مدينة، وبها جامع المنصور، وهو جامع كبير عتيق البنيان حفيله، ثم الشارع، وهي ايضا مدينة. فهذه الاربع، اكبر المحلات. وبين الشارع ومحلة باب البصرة، سوق المارستان، وهي مدينة صغيرة، فيها المارستان الشهير ببغداد، وهو على نهر دجلة، وتتفقده الاطباء كل يوم اثنين وخميس، ويطالعون احوال المرضى به، ويرتبون لهم اخذ ما يحتاجون اليه، وبين ايديهم قومة يتناولون طبخ الادوية والاغذية. وهو قصر كبير فيه المقاصير والبيوت وجميع مرافق المساكن الملوكية،

(٤٢ - ٤٣) الخطيب البغدادي: تاريخ بغداد ج١ ص٥١، وص ٧٠

(٤٤) توفي ابن جبير، محمد بن احمد سنة ١٢١٧م، وكان قد ولد سنة ١١٤٥م

والماء يدخل اليه من دجلة» [٤٥] . . «والشرقية حفيلة الاسواق، عظيمة الترتيب، تشتمل من الخلق على بشر لا يحصيهم الا الله تعالى، الذي احصى كل شيء عددا، وبها من الجوامع ثلاثة، كل يجتمع فيها: جامع الخليفة، وجامع السلطان، وجامع الرصافة. . واما حماماتها فلا تحصى عدة، وذكر لنا احد اشياخ البلد انها بين الشرقية والغربية نحو الالفي حمام، واكثرها مطلية بالقار مسطحة به، فيخيل للناظر انه، رخام اسود صقيل. وحمامات هذه الجهات اكثرها على هذه الصفة لكثرة القار عندهم، لأن شأنه عجيب، يجلب من عين بين البصرة والكوفة، وقد انبط الله ماء هذه العين ليتولد منها القار، فهو يصير في جوانبها كالصلصال، فيجرف ويجلب، وقد انعقد، فسبحان خالق ما يشاء، لا اله سواه. . والمدارس بها نحو الثلاثين، وهي كلها بالشرقية، وما منها مدرسة الا وهي يقصر القصر البديع عنها، واعظمها واشهرها النظامية، وهي التي بناها نظام الملك، وجددت سنة اربع وخمس مئة. ولهذه المدارس اوقاف عظيمة وعقارات محبسة تتصير الى الفقهاء المدرسين بها، ويجرون بها على الطلبة ما يقوم بهم. ولهذه البلاد في امر هذه المدارس والمارستانات شرف عظيم وفخر مخلد. . .» [٤٦] . «ومن المساجد المعروفة آنئذ في بغداد، هي جامع المدينة ومسجد الحربية وجامع السلطان (بالمخرم) وجامع دار القز، وجامع العقبة، وجامع العتابين، ومسجد التوثة ومسجد شارع دار الرقيق، ومسجد قصر عيسى» [٤٧]

---

(٤٥) ابن جبير، رحلة ابن جبير ص١٨٠
(٤٦) ابن جبير، رحلة ابن جبير ص١٨٣
(٤٧) ابن الجوزي جمال الدين: مناقب بغداد ص٢٣

الفصل الثاني

مركز بغداد الحضاري

لقد انفردت بغداد في حقبة مديدة من الزمن بمركزها العظيم المعطاء. وهي لمدة خمسة قرون وينوف قليلا كانت، ليس احدى اكبر المراكز الحضارية والثقافية الفكرية في العالم، انما كانت فريدة زمانها ووحيدة عصرها الذي امتد هذه القرون الخمسة. فلقد حفلت بالمدارس التي اصبحت نواة الجامعات.. ففي كل مسجد وفي كل جامع، كانت مدرسة، ثم تطورت قضايا التعليم والثقافة بحيث صارت هناك مدارس مستقلة عن المساجد والجوامع، اضافة الى ما كان في المساجد والجوامع.. فقد تكون المدارس مرتبطة بالجامع مثل مدرسة ابي حنيفة التي تم بناؤها عام ٤٥٩هـ، وهي ملاصقة لجامع ابي حنيفة، وقد تكون مستقلة، ولا علاقة لها بأي مسجد او جامع مثل المدرسة النظامية التي بنيت عام ٤٥٧هـ وتم افتتاحها عام ٤٥٩هـ، ثم المدرسة المستنصرية التي وضع اساسها عام ٦٢٥هـ وافتتحت عام ٦٣١هـ في زمن الخليفة المستنصر بالله. ولم تكن مدارس بغداد هذه، مجرد مدارس يعلم فيها المدرسون الطلاب، انما كان الطلاب يتلقون معارفهم وعلومهم من مدرسين علماء ومؤلفين.. وقد قدم اكثر هؤلاء المدرسين المؤلفات التي ما تزال فخر الثقافة العربية والانسانية. ومن هؤلاء المدرسين من قدم الكتاب الواحد، ومنهم من قدم عشرات الكتب، ومنهم من قدم المئات مثل ابن الفوطي وابن الجوزي ومنهم من قدم عدة مؤلفات، كل مؤلف بالعديد من الاجزاء التي قد يصل بعضها الى العشرات، ولم تكن المؤلفات مقصورة على الحديث النبوي والفقه وحدهما، انما شملت جميع المعارف الثقافية والآراء الفكرية المعروفة آنئذ. فالى جانب تفسير الحديث والفقه، هناك مؤلفات

في التاريخ، ومؤلفات في الجغرافية، وفي الرياضيات، وفي الفيزياء، وفي الفلسفة وعلم الكلام والتصوف، بل ظهرت الفرق الفكرية والفلسفية، كالمعتزلة واخوان الصفا، كما نقلوا الفلسفة الاغريقية وشرحوها، وابدعوا، وتعمقوا فيها حتى صارت لهم فيها مذاهب. ولا ادل على ذلك من ظهور الكندي، والفارابي وابن سينا الذين امتد اثرهم الى الاندلس فظهر ابن رشد الذي اعترف له الاوربيون بفضل الابداع، وتنافسوا في التعصب له، وليس عليه، حتى عرف من ترجم او شرح واقتفى المنهج الرشدي، باسم الرشديين. ولم يكن الطب اقل حظاً من الفقه والتاريخ، اذ صارت بغداد والكثير من مدن العراق ايضا، تعج بالاطباء الذين يعالجون المرضى ويركبون الادوية الذي عرف بالاقرباذين (اي الصيدلة). وقد كان يرافق هؤلاء الاطباء والاقرباذينيون (الصيادلة) طلاب العلم الذين يتعلمون عليهم. والمدرسة المستنصرية بالذات قرر الخليفة المستنصر بالله ان يكون لها طبيب يداوي الطلاب المرضى فيها، كما يتعلم عليه طلاب آخرون، اي ان المستنصرية وحدها، اضافة الى ما كان يدرس فيها من الفقه على المذاهب الاربعة فأنها كانت ايضا مدرسة طبية.

لاشك ان هذه الثقافة الفكرية التي حظيت بها بغداد، جعلها مركزا حضاريا مرموقا في العالم يؤمه العلماء وطلاب العلم من اصقاع العالم المعروفة كافة. وقد شاء الحظ ايضا لبغداد، ان تكون عماد النهضة الحضارية في الوطن العربي، حتى جلى فيها الشعراء والفنانون، وصارت ترفد بهم ولايات الدولة شرقا وغربا، حتى عبروا البحر الى الاندلس، فشعت الاندلس بالثقافة العربية وحضارتها وفنونها على فرنسا، ثم امتدت الى عموم اوربا حتى اصبحت ركيزة الفكروالثقافة الاوربيين.

بغداد اذن كلها اصبحت مدرسة، تدرس فيها الآداب والعلوم والفنون والفلسفات والرياضيات والهندسة المعمارية، وكل ما يخطر بالبال. ففي بغداد وحدها لا يقل عن ثلاثين مدرسة التي كان اشهرها المدرسة النظامية والمدرسة

المستنصرية، والمدرسة البهائية ومدرسة بنفشا، والمدرسة التتشية (خمارتكين) ومدرسة زمرد خاتون ومدرسة مشهد ابي حنيفة والمدرسة البشيرية وغيرها. . اما اذا اعتبرنا بغداد ممتدة حضاريا الى كل بقاع الدولة العربية فأننا نجد ان المؤرخين والاخباريين يسجلون لنا ما يزيد على التسعين مدرسة. وهذه المدارس هي بمستوى الجامعات الحديثة لأنها تخرج علماء اللغة والفقه والشريعة والصيدلة (الاقرباذين) والفلك والتنجيم والطب والفيزياء والرياضيات والنقاد ايضا.
ولقد كان للمدارس في بغداد نظام واسس وشروط، بل ان افتتاحها ايضا له مراسيم واحتفال. وهذا يعني ماتلاقي المدارس وعلماؤها وطلابها من الحفاوة والتقدير اللائقين بهم. ففي سنة احدى وثلاثين وستمائة «في جمادى الآخرة تكامل بناء المدرسة المستنصرية التي أمربأنشائها الخليفة المستنصر بالله، وانفق عليها اموالا كثيرة، فركب نصير الدين بن الناقد نائب الوزارة في يوم الاثنين (١٥) جمادى الآخرة، وقصد دار الخلافة واجتاز بها الى دجلة، ونزل في شبارة من باب البشرى مصعداً الى الدار المستجدة المجاورة لهذه المدرسة، وصعد اليها وقبل عتبتها ودخلها، وطاف بها ودعا لمالكها، وكان معه استاذ الدار. . ثم عاد متوجهاً الى داره في الطريق التي جاء بها، وخلع على استاذ الدار وعلى اخيه. . وعلى حاجبه عبدالله بن جمهور، وعلى المعمار والفراشين المرتبين في الدار المذكورة المستجدة وعلى مقدمي الصناع: ونقل في هذا اليوم الى المدرسة من الربعات الشريفة والكتب النفسية المحتوية على العلوم الدينية والادبية ما حمله مائة وستون حمالا، وجعلت في خزانة الكتب، وتقدم الى الشيخ عبد العزيز شيخ رباط الحريم بالحضور الى المدرسة واثبات الكتب واعتبارها، والى ولده العدل ضياء الدين احمد الخازن بخزانة كتب الخليفة التي في داره ايضا، فحضرها واعتبرها ورتبها احسن ترتيب مفصلا لفنونها ليسهل تناولها ولا يتعب مناولها.

«وفي يوم الخميس (٥) رجب، حضر نصير الدين نائب الوزارة وسائر الولاة والحجاب والقضاة والمدرسون والفقهاء ومشايخ الربط والصوفية والوعاظ

والقراء والشعراء، وجماعة من اعيان التجار الغرباء، الى المدرسة، وتخير لكل مذهب من المدارس وغيرها، اثنان وستون نفسا، ورتب لها مدرسان ونائب تدريس، اما المدرسان فهما محي الدين ابو عبدالله محمد بن يحيى بن فضلان الشافعي، ورشيد الدين ابو جعفر عمر بن محمد الفرغاني الحنفي، وخلع على كل واحد منهما جبة سوداء وطرحة كحلية وامطي بغلة بمركب جميل وعدة كاملة، واما النائبان، فجمال الدين ابو الفرج عبدالرحمن بن يوسف الجوزي الحنبلي، نيابة عن والده، لأنه كان مسافرا في بعض مهام الديوان، والآخر ابو الحسن علي المغربي المالكي، وخلع على كل واحد منهما قميصاً مصمتاً وعمامة قصب، ثم خلع على جميع المعيدين وهم لكل مذهب اربعة، خلعا بالحكاية، ثم خلع على المتولين للعمارة والصناع والحاشية وعلى المعينين للخدمة بخزانة الكتب وهم الشمس علي بن الكتبي الخازن والعماد علي بن الدباس الشريف والجمال ابراهيم بن حذيفة المناول، ثم مد سماط في صحن المدرسة اجمع، فكان عليه من الاشربة والحلواء وانواع الاطعمة، ما يجاوز حد الكثرة، فتناوله الحاضرون تعبئة وتكويراً، ثم افيضت الخلع على الحاضرين من المدرسين ومشايخ الربط والمعيدين بالمدارس والشعراء والتجار الغرباء، ثم انشد الشعراء المدائح فيها وفي منشئيها» [1]

وللمدرسة المستنصرية شروط كما هي، وربما اكثر من شروط اية مدرسة اخرى، بحيث «يكون الفقهاء مائتين وثمانية واربعين متفقهاً، من كل طائفة اثنان وستون بالمشاهرة الوافرة والجراية الدارة، واللحم الراتب والمطبخ الدائر، الى غير ذلك من الحلواء والفواكه والصابون والبزز والفرش والتعهد وشرط ان يكون في دار الحديث التي بها شيخ عالي الاسناد وقارئان وعشرة انفس يشتغلون بعلم الحديث النبوي، وان يقرأ الحديث في كل يوم سبت واثنين وخميس من كل

(١) ابن الفوطي ابو الفضل كمال الدين عبدالرزاق: الحوادث الجامعة ص ٥٣ ـ ٥٦ .

اسبوع وشرط لهم الجراية والمشاهرة والتعهد ما للمشتغلين بعلم الحديث وشرط ان يرتب بها طبيب حـاذق مسلم وعشرة انفس من المسلمين يشتغلون بعلم الطب، ويوصل اليهم مثل ما للمقدم ذكرهم، وان يكون الطبيب يطب من يعرض له مرض من ارباب هذا الموقف، ويعطى المريض ما يوصف لـه من ادويـة واشربة وغـير ذلك، وشرط ان يكـون بها من يشتغـل بعلم الفرائض والحساب، الى غير ذلك مما اذا استقصي ذكره، طال تعداده»[٢]

لقد انتشرت العلوم العربية ،فانتشرت معها الثقافة العربية، وانتشرت ايضا اللغة العربية. . وسادت الثقافة العربية عموم الاصقاع التي دخلتها. ولم يدخل العرب عالم الثقافة الاوربية من نوافدها انما دخلوها من اوسـع ابوابهـا، لأن دخـولهم ما كـان قسراً او غصبـاً، انما كـان باستقبـال وترحـاب. . واستقبل الاوربيون ورحبوا بما كان يحمل هؤلاء العرب من ثقافة وفكر ومشاريع لصنع معالم الحضارة العربية. فدخلت هذه الثقافة والمعالم الحضارية عقول الاوربيين وحياتهم اليومية، مثلما دخلت بيوتهم فسيطرت الحضارة العربية على مجمل الحياة الاوربية، بثمارها اليافعة واكلها الشهية. فصار الاوربيون ينهجون نهج هـذه الحضارة الوافدة عليهم، ويقلدونها وينشئون لها المدارس على غرار مـدارسها فتعلموا كتابة الحروف التي كانت تحمل افكار هذه الحضارة الجديدة الوافـدة عليهم، وتمكنوا فعلا من حل رمـوزها والغازها، واخذوا ينقلون امهات الكتب والتصانيف في مختلف فروع المعرفة. وشاع استعمال اللغة العربيـة مثلما شاع هضم الثقافة العربية وتقليد معالم الحضارة العربية، بفضل انتشار العلماء العرب من اساطـين الفكـر العلمي في الكيمياء والفيـزياء والـرياضيـات والفلسفة وغيرها. وما ذلك الا لبدائية الفكر الاوربي والحضارة الاوربيـة آنئذ، ورقي الفكر والحضارة العربيين. لأنهما ما دخلا بصفـة حضارة غـالب على حضـارة مغلوب، ولم تدخلاها بالقوة العسكرية الاحتلالية لأنه، كان يمكن ان يحدث رد

(٢) ابن الفوطي: الحوادث الجامعة ص٥٩

فعل، وتلقيا مقاومة ورفضا، لكنهما دخلتا سلما وبرغبة، بدون رهبة فأمتزجتا بما كان لديهم، وتغلبتا عليهم، لأنهم كانوا، الاضعف في الميزان الفكري والحضاري، وكنا الاقوى في الميزان الفكري والحضاري، وهم الذين استدعوا علماءنا ومفكرينا ليعملوا في دورهم الثقافية او في بلاطاتهم الملكية. فقد استدعى الملك النورماندي روجر الثاني ملك صقيلة، العالم العربي الادريسي ليرسم له خريطة العالم، فكان له الاثر البالغ في تعميق الحضور العربي للعلوم ومعالم الحضارة التي اصبحت من اكبر الركائز، ان لم تكن اكبر ركيزة للحضارة الاوربية الحديثة. فلقد استمرت هذه العطاءات في جميع الحقول، فكان الاسطرلاب العربي والبحارة العرب مثلا مفاتيح لفتح ابواب الملاحة والبحرية، حيث خاضوا غمار البحر، قادة وهداة للسفن الملاحية والاستكشافية، فكان من هؤلاء ابن ماجد واسامة ابن منقذ وغيرهما ممن سجلوا ريادة في عالم العلاقات العلمية والسياسية بين اوربا العصور الوسطى والحضارة العربية.

وهكذا كان وجود العلماء العرب في بلدان اوربا وهم الذين تقنوا علومهم، وصاروا اساطين ..الفكر العالمي، اذ انتشروا في جميع البقاع والاصقاع المأهولة فتعلم منهم الاوربيون علومهم، وتعلموا ايضا لغتهم. . اي اللغة العربية، وكتبوا بها، حتى «رأينا الفارو ـ كاهن قرطبة في اواسط القرن التاسع للميلاد ـ يولول في اوائل ذلك العصر، شاكياً من ابناء دينه انصرافهم الى مطالعة اشعار العرب واساطيرهم، وهيامهم بدراسة كتابات لاهوتيي المسلمين وفلاسفتهم وهم لا يقصدون بذلك الى تفنيدها، بل يقصدون الى التعبير عن خوالجهم باسلوب عربي رائع صحيح. وكان الفارو يتساءل قائلا: انى يتاح لانسان في هذه الايام ان يقابل واحداً من ابناء جنسنا يقرأ التفاسير اللاتينية للكتب المقدسة؟ ومن ذا الذي يدرس منهم فصول الاناجيل وسير الانبياء والحواريين؟

واحسرتاه! ان كل الشبان ذوي المواهب لا يعرفون الا العربية، والا

كتابات العرب، فهم يقرأونها ويدرسونها بحماسة بالغةمنتهـاهاكما انهم ينفقون المال الطائل لاقتنائها في مكاتبهم، وانك لتراهم ـ حيثما وجدوا ـ يذيعون ان تلك الآداب جديرة بالاعجاب. فاذا تجاوزت عن ذلك واخذت تحدثهم عن الكتب المسيحية ازور جانبهم واجابوك ابـازدراء: انها اسفار تافهة لاحظ لها ولا قيمة».. واحسرتاه عليهم! لقد نسي المسيحيون انفسهم حتى ليندر العثور بين آلاف منهم على فرد واحد يستطيع ان يحرر الى احد اصدقائه رسالة لاتينية باسلوب مقبول، على حين ترى جمهرتهم قادرة على الأبانة عما في نفوسهم باسلوب عربي قد وصل حداً فاقوا معه العرب انفسهم» [٣]

وارتقت بغداد واصابتها سمعة عريضة، واصبحت محط انظار العلماء، لأنه منذ تأسيس بغداد، حظي العلم فيها برعاية خاصة اولاها الخليفة ورجال حاشيته ثم اهل بغداد، فأخذ العلماء ومحبو العلم يتقاطرون اليها من مختلف ارجاء الدولة، فجاءها العلماء من المدينة المنورة والكوفة والبصرة، كما جاءها علماء من جنديسابور والهند، ليعرضوا معارفهم، فيزيدوا ويستزيدوا، وانموا حركة فكرية متعددة الجوانب، رحبة الآفاق، عميقة الاراء، يوسعها اعجاب بالفكر وتقدير لحملته، ورغبة في نشره. وكانت حرة مفتوحة للجميع، هدفها الفكرة دون المال، والكلمة دون المادة، تعمل ضمن اطار العروبة والاسلام في أفق رحب من الانسانية والعالمية في جزئياتها وكلياتها دون الانحصار في الاقليمية الضيقة» [٤]

مظاهر بغداد الثقافية والمدارس

وارتفعت قامة بغداد بين عواصم العالم، بفضل ما نـالت، وفضل مـا

---

(٣) دوزي: ملوك الطوائف ترجمة كامل كيلاني ص٨

(٤) د. صالح احمد العلي: بغداد مدينة السلام الجانب الغربي ص٦

وهبت من الشعراء والادباء والفلاسفة والمحدثين والفقهاء والمشرعين، وضجت مدارسها بهؤلاء العلماء وامتلأت اسواق الوراقين بـالمجلدات وانتعشت تجارة الوراقة والاستنساخ، وكان من اكبر الوراقين وربما النساخ ايضا، ابن النديم البغدادي صاحب كتاب الفهرست العظيم، وبهذا نلمس لمساً واضحا الحياة الفكرية الرائعة التي وصلت اليها بغداد، فعندما انشئت بغداد «لم يرافق انشاءها تثبيت رسمي لمدرسة فكرية معينة، ولم تقرر السلطات فيها اتجاهات فكرية يلتزم المفكرون على السير في خطوطها، وانما اتاحت حرية واسعة لمختلف الاتجاهات الفكـرية، فكـانت السوق الـذي يأتيـه العلماء لعرض معـارفهم بعد اكتـمال نضجهم، ولم يكن فيها مركز رسمي للعلم، وانما كان العلم ينشر حيثما يقيم العلماء الذين توزع سكناهم في اماكن متعددة من المدينـة، ومع ان الجـوامع والمساجد كانت مراكز مفضلة للعلم، الا انه لم يكن مقصورا عليها فقط، علماً ان بغداد كان فيها ثلاثة جوامع كبيرة، وعدد كبير من المساجد، وقد نشطت هذه الحركة الفكرية بانفتاحها لكل الناس من مختلف المشارب، وعـرضت في كل ميدان من ميادين المعرفة تيارات متعددة، الى ان استقرت لبغداد سمات فكرية خاصة في تلك الميادين» [٥] . . «ويسرت هذه الحرية نمو الثقافة بمختلف ميادينها واتجاهاتها، وكان هذا التنوع في بغداد اوسع مما في المدن الاخرى، فقد اجتمعت في اصوله الافكار التي كانت قد نمت في المدينة ومكة وفي الكوفة والبصرة، وفي اقاليم المشرق، وانضاف اليها ما قدمه (اهل الكوفة) من معارف اهل الصحراء في الجزيرة، وما قدمه المترجمون من ثقافات الامم الاخرى وخاصة الاغريق ومن كتب بالاغريقية، والهنود وما الفوه، وبذلك اتسمت الثقافة بـالسمة العـالمية الشاملة دون الاقليمية الضيقة . ومن ذلك يقول ابن الفقيه الهمذاني :«من جميل امر بغداد ان السلطان آمن من ان يغلب عليهـا رئيس لبعض الآراء، كغلبة الطالبيين كثيرا بالشيعة على اهل الكوفة، وذلك لأن ببغداد من مخالفي الشيعة من

---

(٥) د. صالح احمد العلي: بغداد مدينة السلام (الجانب الغرب) ص٩٤

يقرن بالشيعة، وبها من مخالفي المعتزلة من يقرن بـالمعتزلـة، وبها من مخـالفي الخوارج من يقرن بالخوارج، فكل فريق يقاوم ضده، ويدفعه عن...رأسه، فقد تركوا الرياسة للسلطان ورمحوا تسليط القنا والتفاني بالحروب»[٦] .

وقد ارتبطت الحضارة العربية في بغداد، وانتشار الثقافة العربية عن طريق اللغة العربية التي انتشرت في جميع الآفاق. فأن «السمة الاسلامية والعالمية التي اتسمت بها بغداد منذ تأسيسها تمت في ظلال اللغة العربية، وتوجهت وجهة عالمية رحبة، دون ان تنحدر الى اقليمية ضيقة. فعلوم اللغة عنيت بالعـربية عموما واستمدت مادتها وثبتت نظامها فيما يستعمله العرب دون التقيد بما كان في بغداد، وعلوم الدين التي تشمل دراسة القرآن الكريم والحـديث والعقائـد، وعالجت المشاكل العامة التي تهم العالم الاسـلامي دون الانحصار بمـا هو في بغداد، بل حتى كتب التاريخ عنيت بالتاريخ العام دون الاقتصار على تاريخ بغداد. واذ كان كل هذا انمى السمة العالمية للفكر العربي، فأنه اغفل الاشارة الى دور بغداد واحوالها، مما قوى الصعوبات في دراسة تفاصيل احوال بغداد، وفي التمييز بين ما تم في بغداد، وما تم في غيرها. والواقع ان النزعات الاقليمية والتعصب لبغداد، لم يظهر الا منذ القرن الرابع الهجري، ولم يكن قويا بالمقارنة مع ما ظهر في الاقاليم الاخرى»[٧]

«ووافق كل ذلك تطور كبير في الكتابة عنها ـ أي بغداد ـ فالفت كتب عن فضـائلها، وكـثرت الكتب عن علمائها، بعضهـا مختص بعلماء علم محدد او مذهب معين، وبعضها شامل لأكثر من ذلك، وتتوج هذا بكتاب (تاريخ بغداد) لاحمد بن علي المشهور بالخطيب البغدادي الذي ضم تراجم سبعة آلاف وثمانمائة وثلاثين من علمائها، خاصة في علوم الحديث بالاضافة الى مقدمته الضافية في خططها. وتميز كتاب الخطيب (البغدادي) بذكر مساكن او مدافن عدد غير قليل

---

(٦) د. صالح احمد العلي : بغداد مدينة السلام (الجانب الغربي) ص٩٤

(٧) د. صالح احمد العلي: بغداد مدينة السلام الجانب الغربي ص٩٦

من علمائها، مما له فائدة كبيرة في تتبع استمرار العمران في كثير من مناطقها الى ما بعد القرن الثالث الذي اقتصرت عليه مقدمته الخططية» [٨]

ومن الامثلة الاخرى على مثل هذا النشاط والابداع والدأب في العطاء في مختلف العصور، اننا نجد مؤرخاً واحداً قد الف وصنف وعلق وانتقى (٢١٤) مؤلفا، ولم يكن هذا المؤرخ المؤلف سوى ابن الذبيثي، وقد زادت مؤلفات جلال الدين السيوطي المعروف بتعدد معارفه، على المائتي مؤلف. وقد ترجم ابن الذبيثي لألف واربعمائة واربعين عالما تضمهم حقبة من الزمن تقدر بقرن واحد. وكلنا يعرف الفهرست لابن النديم البغدادي الذي جمع فيه عناوين مؤلفات ما لايقل عن تسعمائة علم من العلماء والشعراء والفقهاء والاطباء والفلاسفة واللغويين والمفسرين والجغرافيين والمؤرخين. ولاشك ان مؤلفات هؤلاء الاعلام لا تقل عن العشرة آلاف عنوان لهذه الكتب في مختلف شؤون العلم والمعرفة. وهذا الكم من المؤلفين والكتب التي الفوها لا تمتد لاكثر من ثلاثة قرون المنتهية بوفاة مؤلف الفهرست (ابن النديم) او قبيل وفاته بقليل علما ان وفاته قد وقعت سنة ٣٧٧ او ٣٧٨ على ما اتفق عليه اكثر المؤرخين: «والحق ان كتاب الفهرست ذخيرة لا تقدر، وغرضه ان يحصي جميع الكتب العربية المنقولة من الامم المختلفة والمؤلفة في جميع انواع العلوم ويصنفها ويبين مترجميها او مؤلفيها ويذكر طرفاً من تاريخ حياتهم.. فكان الكتاب على هذا النمط اجمع كتاب لاحصاء ما الف الناس.. واشمل وثيقة تبين ما وصل اليه المسلمون في حياتهم العقلية والعلمية.. واكثر هذه الكتب التي وصفها قد ضاعت بتوالي النكبات على المملكة الاسلامية، ولا سيما في غزو التتر لبغداد.. والناظر في كتاب الفهرست، يعجب لهذا النشاط العلمي كما يعجب بسعة اطلاع ابن النديم وحبه للوقوف على كل شيء حتى في ادق مسائل الاديان المختلفة والمذاهب المتنوعة، يفصل مذهب ماني ومزدك، كما يفصل مذهب ابي حنيفة والشافعي،

---

(٨) د. صالح احمد العلي: بغداد مدينة السلام الجانب الغربي ص٩٠

ويستقصي البحث عن احوال الصين والهند، كما يستقصي البحث عن الشام والعراق»[9] . وهو مع كل ذلك مجرد وراق (اي بائع كتب وناسخ) او مجلد كتب .

لقد انبثق للحضارة العربية في تاريخ الدولة العربية، فجران، الفجر الاول كان قبل الميلاد بقرون عديدة. . ايام حضارة الاكدين والأراميين والاشوريين، والفجر الثاني انبثق بعد ظهور الاسلام، وتكوين نظام الدولة المركزية العربية. ولقد تميز هذا الفجر الوردي الساحر الجميل في دمشق اولا لفترة قصيرة، ثم في بغداد العاصمة المركزية العظيمة المعظمة لمدة ما ينوف على الخمسة قرون ونصف القرن ونيف من السنوات. وقد بدأ شعاع شمس هذا الفجر ينتشر ليس على ارض الوطن العربي وحده، انما على ارجاء المعمورة قاطبة حتى كادت اوربا تترك لغتها اللاتينية وتستبدل بها اللغة العربية [10] لأن علماء اوربا ومفكريها الناشئين آنئذ لم يكتفوا بتعلم اللغة العربية ودراسة العلوم والفلسفات بها، انما انشأوا وشجعوا على انشاء المدارس التي تقدم العلوم وترجماتها العربية. ولقد احاط ملوك اوربا انفسهم بالعلماء والمفكرين العرب، فروجر الثاني في القرن الثاني عشر استدعى الى بلاطه في صقليا، الشريف الادريسي الذي قام برسم خريطة العالم. ببحارها وخلجانها وانهارها، كما وضع بناء على رغبة الملك روجر الثاني نفسه، كتابه الجغرافي المعروف «نزهة المشتاق في اختراق الآفاق» الذي يعتبر من اعظم الكتب الجغرافية والمناخية. وقد قام المجمع العلمي العراقي عام ١٩٥١ بطبع خريطة الادريسي هذه بطول مترين وعرض متر واحد، واستخرج (كونار ميلر) هذه الخريطة ونشرها باللاتينية في

---

(٩) ابن النديم: كتاب الفهرست ـ المقدمة

(١٠) دوزي: ملوك الطوائف؛ ترجمة كامل كيلاني ص ٨ و٩

طبعة ملونة عام ١٩٣١[١١] . اما ملك صقلية فردريك الثاني، فقد اهتم بالحضارة العربية، وقد كان على دراية بها فأسس في نابولي اول جامعة للدولة عنيت بالدراسات الطبية في القرن الثالث عشر.

الحركــة الفكــرية

ولقد اشاد بفضل الحضارة العربية على الحضارة الاوربية الاب اليسوعي الاسباني خوان اندريس، فنشر بالايطالية في بارما (١٧٨٢/١٩٩) كتابا جليلا في سبعة مجلدات تحت عنوان «اصول كل الاداب وتطورها واحوالها الراهنة»[١٢] ثم اعاد نشره منقحاً وموسعا (١٨٠٨/١٨١٧) في ثمانية مجلدات. وقد اكد فيه ان النهضة التي قامت في اوربا في كل الميادين العلمية والفنية والادبية والصناعية مردها الى ما ورثته عن حضارة العرب. وقد تأثر البابا سلفستر الثاني (١٠٠٣) بالعلم العربي اثناء قيامه برحلة الى الاندلس وتعرفه على العلوم العربية، فقام بنقل الارقام العربية الى اوربا. ويقرر ماكس ماير هوف ان ابا جعفر الغافقي المتوفى (١١٦٥) م هو اعظم الصيادلة العرب، وان ابن العوام الاشبيلي وضع كتابا في الفلاحة (اي الزراعة)، صنف فيه (٥٨٥) نوعا من النباتات مع صور ملونة، بحيث اعتبر احسن كتاب عربي في العلوم الطبيعية (النبات(. ولقد اشتهر في القرن الثالث عشر الملك الفونس الحكيم، ملك البرتغال بحبه للعلوم العربية، فأمر بترجمة الكتب الفلكية، كما ترسم ابنه الملك دينيس خطى ابيه فأمر ايضا بترجمة الكثير من الكتب العربية.[١٣]

---

(١١) د. توفيق الطويل، في تراثنا العربي الاسلامي ص ٢٠٩ وص ٢١٠

(١٢) د. توفيق الطويل: في تراثنا العربي الاسلامي ص٢١٤

(١٣) د. توفيق الطويل: في تراثنا العربي الاسلامي ص٢١٥ وص٢١٦

ولقد كان للحضارة العربية قيمة ثقافية وعلمية وفكرية في عموم حواضر الدولة العربية، التي اثرت ذلك التأثير الفعال، بحيث احالت ظلام الجهل الاوربي الى نور بهي ساطع، جاء بفضل المكتبات التي كانت تضم ليس مئات المجلدات، بل آلافها، في الوقت الذي كانت الكتب تكتب باليد، وتستنسخ عنها النسخ العديدة مما يتطلب وقتا وجهدا كبيرين. وحسبنا ان نشير الى ان العصر العباسي وحده كان غنيا بتلك المكتبات التي بلغت العشرات، منها مكتبة الحكمة في بغداد، التي انشأها الرشيد ثم تعهدها ونماها ابنه المأمون، وهي التي كانت تضم مائة الف مجلد.. تصوروا في ذلك الوقت تضم مكتبة واحدة، مائة الف مجلد، ومخطوط باليد، وليس مطبوعا بالآلة. فأية عظمة واية عبقرية واي حرص واي دأب كان يبذله هؤلاء القوم، لرعاية الثقافة ومعالم الحضارة ونشرها!؟ والعجيب ان مكتبة دار الحكمة هذه، كانت تضم الى جانب هذه الكتب كرتين سماويتين اولاهما من صنع بطليموس، والثانية من صنع عبدالرحمن الصوفي (٩٠٣م ٩٨٦م) وفي قرطبة كانت مكتبة انشأها الحكم بن الناصر، تضم مائتي الف مجلد. وكانت فهارسها تستغرق اربعاً واربعين كراسة، كل منها خمسون ورقة. تصوروا ان لهذه المكتبة وفي ذلك الحين، فهارس يهتدي بها المراجع والدارس!! فأية نباهة هذه التي بلغها العرب؟! وحتى بعد انحسار سيادة الدولة العربية، ونهوض اوربا، ظلت المكتبات العربية في ثراء مستمر. فمكتبة مدينة النجف وحدها كانت تضم اربعين الف مجلد، وتضم مكتبة ابي الفداء سبعين الف مجلد، وتضم مكتبة السلطان عماد الدين المؤيد الرسولي اسماعيل (٧٣٢هـ) مائة الف مجلد، ومكتبة مراغة تضم اربعمائة الف مخطوط جمعها نصير الدين الطوسي [١٤] من منهوبات مكتبات بغداد اثناء

---

(١٣) د. توفيق الطويل: في تراثنا العربي الاسلامي ص٢١٥ وص٢١٦

(١٤) نصير الدين الطوسي، وزير هولاكو بعد ان مهد له السبل لاحتلال قلعة آلموت الاسماعيلية ورافقه في احتلال بغداد واشرف على المذبحة التي قام بها المغول والتتر بأبناء بغداد.

احتلال بغداد في الغزو المغولي التتري . اما مكتبة العزيز بالله الفاطمي بالقاهرة، فقد كانت تضم مليون وستمائة الف مجلد، مفهرسة ومنظمة، بينما لم يستطع ملك فرنسا شارل الخامس ان يجمع في مكتبته اكثر من الف مجلد ، كما يقول المستشرق جاك بسلر.[١٥]

ولكن ماذا كانت تضم هذه الآلاف المؤلفة من الكتب التي كانت عماد النهضة العربية والتطور العلمي والنضوج الفلسفي والازدهار الفكري التي اضفت على حياة المجتمع العربي رخاء وسعادة ومذاقا ونكهة لتلك الحياة، وهي التي تركت ايضا بصماتها وطابعها العربي الاصيل المتميز في تكوين الفكر الاوربي، بالرغم من تزاوج الفكر العربي بالفكر الاغريقي وتلاقحه. فلقد اتفق المؤرخون على ان نشأة العلوم وبالاخص الكيمياء والفيزياء والطبيعة قد قامت على التجربة على ايدي العرب، فجابر بن حيان (١٩٨)هـ القرن التاسع الميلادي، ازال عن علم الكيمياء السرية والغموض والرمزية. واصطنع منهجا استقرائيا تجريبيا، واستخدم فيها المكاييل والموازين تحقيقاً للدقة والضبط. وقد تم اكتشاف الكثير من المركبات الكيمياوية في المختبرات العربية التي ما تزال معتمدة في ايامنا الحاضرة في علم الكيمياء الحديث، مثل حامض النتريك (ماء الفضة) وحامض الكبريتيك (زيت الزاج) وماء الذهب (الماء الملكي) كما تم كشف البوتاس والنشادر ونترات الفضة وكلوريد الزئبق (السليماني) ونترات البوتاس وكبريتات الحديد (الزاج الاخضر) والزرنيخ [١٦] . وقد لعبت هذه المركبات الكيمياوية دورا مهما وبارزا في صناعة البارود والمفرقعات واصبحت المرتكز القوي والمهم في الصناعات الكيمياوية الحديثة. ولقد حقق العلماء العرب بآلاتهم واجهزتهم كشوفا علمية اثارت بدقتها، اعجاب الباحثين من العلماء الاوربيين في العصر الحديث، ومن دلالات هذه الدقة الجداول العربية

---

(١٥) د. توفيق الطويل: في تراثنا العربي الاسلامي ص٢٠٨

(١٦) د. توفيق الطويل: في تراثنا العربي الاسلامي ص١١١

التي قدر فيها الوزن النوعي للمعادن والاحجار الكريمة، وبالاخص ما سجله البيروني وابن الخازن اللذان استخداما مقياسا للسوائل لتحديد كثافتها. ويمكننا الاشارة الى عدد من الارقام التي وردت في كتب البيروني والخازن ومقارنتها بالارقام العلمية الحديثة، لنتأكد من دقة تلك الارقام القياسية، ونتبين تفوق العلماء العرب ايامئذ في تلك البحوث، فنجد ان الوزن النوعي عند البيروني هو :

للذهب ١٩,٠٥	والوزن الحديث ١٩,٢٦
الزئبق ١٣,٥٩	والوزن الحديث ١٣,٥٩
والنحاس ٨,٨٦	والوزن الحديث ٨,٨٥
والحديد ٧,٧٤	والوزن الحديث ٧,٧٩
والقصدير ٧,١٥	والوزن الحديث ٧,٢٩
والرصاص ١١,٢٩	والوزن الحديث ١١,٣٥
واللازورد ٣,٧٦	والوزن الحديث ٣,٩٠
والياقوت ٣,٦٠	والوزن الحديث ٣,٥٢
والزمرد ٢,٦٢	والوزن الحديث ٢,٧٢
واللؤلؤ ٢,٦٢	والوزن الحديث ٢,٧٥
وماء البحر ١,٠٤١	والوزن الحديث ١,٠٢٧
وزيت الزيتون ٠,٩٢٠	والوزن الحديث ٠,٩١٠
وحليب البقر ١,١١٠	والوزن الحديث ١,٠٤٠ ١,٤٢٠
ودم الانسان ١,٠٣٣	والوزن الحديث ١,٠٤٥ ١,٠٧٥

هذا غيض من فيض امثلة في العلوم التي بحث فيها العرب ووسعوها، فأينعت هذه الحضارة الرفيعة، بعد ان كانت احاجي والغازا، وكان يختلط فيها السحر بالتخريف. . فحنانيك يا بغداد. . يا من انجبت عواصم العلم العربية ورفعت مكانة عواصم العلم الاوربية!

ونضيف، ان الدول المهزومة على مدى التاريخ والدول المخذولة، وقفت ضد المنجزات الحضارية في العالم عامة ومنجزات الحضارة العربية خاصة. فقد وقف الفرس في الشرق ضد حركة التطور الثقافية والفكرية في محاولة لوقف الزخم الحضاري المتصاعد، منذ ان بزغت الحضارة على ارض اكد واشور، ثم الجزيرة والسواد بعدئذ. وقد استمرت الحروب آمادا طويلة بين العرب الرافدينيين والفرس بمختلف عناصرهم من اخمينيين وكشيين وفرثيين وساسانيين. وكما وقف الفرس هذا الموقف الحاقد الانتقامي لدولتهم المنكسرة ضد نهضة الامة العربية، فقد وقف مثلهم مستعمرون آخرون في الغرب، هم الروم الذين استمرت حملاتهم العداونية بمختلف الدعاوى والتبريرات، لتدمير الحضارة العربية، ومنذ قيام الدولة العربية؛ آرامية كانت او آشورية على ارض الرافدين، وحتى سقوط معاقل الروم واحدا واحدا في سوريا على ايدي اجدادنا العرب الصناديد. وبين هاتين الدولتين اللتين حاولتا بكل جهودهما وسبلهما وقف عملية تطور الحضارة العربية التي اشرقت على الامة العربية والعالم اجمع ايضا، وقفت الدول الاستعمارية بدء بالمغول والتتر، وانتهاء بالاستعمار البرتغالي والفرنسي والايطالي والبريطاني، وصنيعة امبريالية القرن العشرين، الصهيونية الهجينة والشوفينية القومية (اللاقومية) والدين اليهودي على ارض فلسطين العربية المحتلة.

وفي الوقت الذي عاشت الاقوام الغازية، تخرب وتدمر وتحرق المدن والكتب، فأن ابناء الامة العربية كانوا يبنون المدن في البلدان التي خلصوها من الجهل والتخلف او حرروها من اوضار الاحتلال والتسلط وغيرها؛ وفي الوقت

الذي احرقت والقيت الوف الكتب في نهر دجلة، بحيث صارت صفحة مائه سوداء لمدة ثلاثة ايام، بعد ان كانت هذه الصفحة حمراء بفعل سيل دماء المذبوحين من اهالي بغداد، على ايدي المغول والتتر بقيادة هولاكو السفاح، فأن ابناء الامة العربية تركوا الدور عامرة بالكتب والمؤلفات والمجلدات والدوارق والانابيب والانابيق في المختبرات. وفي الوقت الذي كان الغزاة والمستعمرون يفرضون لغاتهم على ابناء الامة العربية، كانت دور العلم والمعرفة والمدارس والمكتبات مفتوحة الابواب لابناء الامم.. كل الامم في العالم، الذين كانوا يشدون الرحال الى هذا الوطن العربي المعطاء، للاغتراف من معين علومه وآدابه وفلسفاته العربية. فالتاريخ يذكر لنا طاليس وارسطوطاليس وهيرودوتس قد زاروا العراق واطلقوا عليه اسم (ميزوبوتيميا)، قد اطلقوا على علوم ابناء الامة الرافدينية، ونقلوها الى بلادهم من ارض الاغريق، وان كانت نظرية المثلث القائم الزاوية قد عرفت بنظرية فيثاغوراس، فأنها كانت معروفة في الرياضيات الرافدينية في تل اسمر بالقرب من بغداد، قبل ان تعرف في بلاد الاغريق، وان انتقالها الى الاغريق مثل انتقال غيرها من النظريات والافكار العلمية والمعارف الثقافية الاخرى، لابد أن يحدث عن طريق العرب او غير العرب الذين كانوا يستوطنون شمال العراق وآسيا الصغرى التي كانت تقع ضمن ممتلكات الدولة اليونانية ثم الدولة الرومانية فيما بعد. فأن زينون الرواقي(اواخر القرن ٥ ق. م) ولوقيانوس السميساطي (١٢٥ ـ ١٩٢) وغيرهما من الفلاسفة والعلماء الكثيرين، هم من ابناء الامة العربية الذين كانوا يستوطنون جنوب اسيا الصغرى وسوريا، وهم الذين كانوا ينقلون المعارف الثقافية العربية الرافدينية الى بلاد الاغريق، وهم الاصل والاساس الذي كان يرسي اللبنات الحضارية الاولى في اي قطر من اقطار العالم خارج الوطن العربي.

لقد نقل ابناء الامة العربية المعالم الحضارية واسس الحضارة في الوطن العربي، الى كل الاقطار والاقوام والامم الذين تعاملوا معهم فما تزال الكتب

الاوربية تعلن صراحة. عمق تلك التأثيرات والاقتباسات الاوربية عن الحضارة والثقافة والعلوم العربية. فدانتي (١٢٦٥ - ١٣٢١) وبوكاشيو (١٣١٣ - ١٣٧٥) ودانيل ديفو(١٦٦٠ - ١٧٣١)وشيكسبير (١٥٦٤ - ١٦١٦) وكولردج (١٧٧٢ - ١٨٣٤) مثلما هم شامخون في تراث اممهم، الا ان حناجرهم تصهل بصوت الثقافة العربية التي نقلوها واستقوها من الكتب العربية. ولولا الكندي (٨٠١ - ٨٦٧) وابن سينا (٩٨٠ - ١٠٣٧) والفارابي (٨٧٢ - ٩٥٠) وابن رشد (١١٢٦ - ١١٩٨) وابن طفيل (١١١٠ - ١١٨٥) وعشرات الفلاسفة والمفكرين والعلماء، لما عرفت اوربا، الثقافة بهذا العمق والسعة والرحابة، ولما اهتدت الى المعرفة بهذه السرعة، ولما دخلت عالم النور الا بعد وقت طويل ومحاولات عسيرة. وبالرغم من عظمة جالينوس (١٣١ - ٢٠١) وابو قراط (٤٦٠ - ٣٧٧) ق.م في الطب، الا ان كتاب القانون لابن سينا، وكتب ابن النفيس (١٢١٠ - ١٢٨٨) وحنين بن اسحق (١١١٧ - ١١٨٨) في الطب وابن الهيثم الحسن (٩٦٥ - ١٠٣٩) في الفيزياء والبصريات، كانت هي المعين الذي نهل منه الاوربيون. وقد بلغ من اعتزاز الاوربيين بالفكر العربي بالذات بحيث انهم كانوا يترجمون الكتب العربية الى لغاتهم ويتبعون الفكر العربي ويفسرونه حتى دعي من كانوا يقتفون خطوات ابن رشد من الاوربيين باسم الرشديين، اي شراح واتباع فلسفة ابن رشد الفيلسوف العربي. ومع كل هذا التأثير، وهذا العمق في اصالة الفكر العربي، فأن المستعمرين الغربيين يظلون يوجهون الطعنات للامة العربية، ويحاولون الدس عليها، وعلى علومها وطمس معالم هذه الحضارة العربية اليانعة العطاء. ولكن بدلا من هذه الهبات الحضارية العربية، وهب الينا الاستعمار الخراب والدمار، ابتداء من الهجمة المغولية التترية والمذبحة الدامية التي نفذها المغول والتتر. وحتى حملة نابوليون على مصر، ثم احتلال سوريا ولبنان ومحاولة فرنساءفرنسة شمال افريقيا، ومحاولة تغريب الثقافة والفكر العربيين، وتقسيم الوطن العربي الى ما سمي بالاقطار العربية، وزرع الكيان

الصهيوني لفرض توجيه الضربات واقامة قاعدة استعمارية لاجهاض حركة التحرر العربية، ووقف عجلة التنمية والتطور.وبدل ان يكافىء المستعمرون جميعا، الامة العربية على حسن صنيعها، من رعاية وتطوير ونشر الحركة الفكرية العربية الانسانية الاهداف، فأنهم قاموا وما يزالون يقومون بتطويق الامة العربية وتوجيه الضربات اليها لغرض الهائها عن نهوضها الحضاري الجديد وتطورها العلمي الاصيل الذي تمثل باثارة الحرب الاستعمارية العدوانية الفارسية في الرابع من ايلول ١٩٨٠ العميقة جذور العداء، منذ انطواء صفحة دولة الاكاسرة الفرس حتى بعيد ايمانهم بالعقيدة الاسلامية .

ان العقلية العربية التي ابدعت حضارة فاضت على العالم نورا وسعادة وخيرا، فأنها لا، ولن تعجز عن الاخذ بزمام المبادرات العلمية الحديثة التي تتمثل بمجالي عصر الطاقة النووية ومستحدثاتها والحسابات الالكترونية،وكل مقتنيات الحضارة الصناعية الحديثة.

ولاشك ان كل العطاءات الحضارية تنبثق عن الدراسات الجامعية والمختبرات التجريبية، وقد كانت المدرسة النظامية والمدرسة المستنصرية اولى الجامعات العلمية، لأنهما كانتا تضمان الى جانب العلوم اللغوية والدينية والعلوم الانسانية، العلوم التجريبية والعلوم البحتة. ولقد انشئت المدرسة النظامية (الجامعة) سنة (١٠٦٥)م وانشئت المدرسة المستنصرية سنة (١٢٣٣)م في الوقت الذي انشئت اولى جامعات اوربا الحديثة وهي جامعة اوكسفورد سنة (١١٣٣) وجامعة قشتالة سنة (١٢٠٨) وجامعة سلمنكا سنة (١٢٢٧)م وجامعة كتلونيا سنة (١٣٠٠)م وجامعة كمبردج (١٣٠٩)م.

ومثلما كان هذا في تطور العلوم اللغوية والدينية والانسانية والتجريبية، فهناك حركة ابداع متناهية في فن العمارة العربية اعتمادا على فن الريازة الذي حفل بابداعات كانت ركيزة الفن المعماري الجديد والاصيل .

الفصل الثالث

المؤامرة الفارسية على الدولة العربية

لابد من وجود الصراع، خاصة بين دولتين متاخمتين، وقد يصل الصراع الى حد الاقتتال، وقد يطول هذا الاقتتال وقد يقصر. ومنذ ان تكونت المجتمعات، وعرف الانسان الاوطان وحدودها، بدأ يتنازع من اجل هذه الحدود.. ومع ان الانسان في بدء ظهوره الاجتماعي، لم يكن قد وضع القوانين الدولية، وتحديد المياه الاقليمية، الا انه كان يلجأ الى الاتفاقات والمعاهدات المؤقتة او الدائمة من اجل احترام حقوقه والحفاظ على حدود ارضه ووطنه. والصراع بين ابناء العراق وبين الفرس انما هو صراع من هذا النوع. وقد تبلور بعد أن تمركزت الحضارة في وادي الرافدين منذ ايام الاكديين والبابليين والكلدانيين، واخيراً الاشوريين.

التدخل الاجنبي

لقد توضح هذا الصراع يوم اعاد الفرس بزعامة قمبيز، السبايا اليهود من بابل الى اورشليم بعد احتلال نبوخذ نصر بلاد فلسطين. وغزا الفرس العراق حتى قيض للقبائل العربية لأن ينتفضوا ضد الاستعمار ويحرروا ارضهم، ثم جاء الدين الاسلامي، وبه فتحت الامصار والاصقاع. فغضب الفرس وحنقوا حتى بعد ان دخلوا في الاسلام. لكن ظل الكثير من الفرس خارج حدود الاسلام، اذ ان الكثير منهم ظلوا مجوسا حتى عام (٢٥٠هـ) [1]، وذلك على عهد الحسن

---

(١) الصابي ابو اسحق: المنتزع من كتاب التاجي ص٤٤

بن زيد الحسني في اقليم الديلم. ولم يقل الصابي[٢]، ان هؤلاء المجوس الذين في الديلم كانوا أخر من دخل الاسلام. وهذا يعني ان هناك الكثير من الفرس ظلوا على اديانهم الوثنية او الثنوية، سواء كانت الزاردشتية او المجوسية[٣]. وان افراداً منهم كانوا يدخلون الاسلام، اذا ما وجدوا الفرصة سانحة او وجدوا ان هناك من المغريات والمكاسب التي يمكن ان يحققوها اذا ما دخلوا الاسلام، مثلما فعل ابناء بويه الذين كان ابوهم بويه الديلمي صياداً، ولما كبر اولاده انتموا الى عسكر (ما كان[٤]). وهذا معناه ان الاسلام لم يكن عقيدة راسخة في نفوس الفرس على وجه العموم. لذلك فأن الكثير من هؤلاء الذين لم يدخلوا الاسلام او الذين دخلوا الاسلام بدون عقيدة او ايمان راسخ، لا يمكن ان يكونوا صادقي الاخلاص للدولة العربية، عباسية كانت او علوية او غيرهما. وقد كان المفروض ان يفكر العباسيون بأن هؤلاء الفرس الذين استخدموهم في اسقاط الدولة الاموية، انما كان ذلك لأمر في نفس يعقوب (كما يقال)، لأنهم يريدون اسقاط السيادة العربية كلاً، اي انهم يضربون العرب بالعرب حتى يضعفوهم، والفرس يذكرون عداوتهم للعرب منذ ان هزمت امبراطوريتهم بظهور الاسلام والدولة العربية، فبدأت المؤامرة.

بدأت المؤامرة الفارسية.. ولم تنته.. بدأت المؤامرة منذ هوى تاج كسرى وسقط على الارض، وسقطت الامبراطورية العسكرية، وتمرغ كسرى الفرس تحت ارجل بغالهم وارجل الخيول العربية في معركة القادسية التي قادها سعد بن ابي وقاص وانتصر فيها سنة ١٤هـ.. والفرس هم الذين كانوا يناوشون عرب العراق، ولا يحفظون معهم عهدا ولا يكنون لهم وداً، ولا يرعون لهم حداً.. وكم مرة حمل كسرى الفرس علامة الحد (حجراً او صخرة)، ووضعها على بغلته

---

(٢) الصابي هو ابو اسحق ابراهيم بن هلال الكاتب، وهو كاتب الانشاء عند الخليفة

(٣) الزرادشتية، تعرف بالمجوسية، ديانة وضعها زرادشت (٦٦٠ ـ ٥٨٣ ق.م)

(٤) الصابي: التاجي ص١٤ وص٥٤ والسيوطي: تاريخ الخلفاء ص٣٨٧ وص٣٩٧

وهو يحارب اهل العراق، حتى اذا وقفت الحرب وضع الحد عند موقفه مدعياً ان هذا هو حدبلاد فارس، مثلما كان قد قام به مع الهياطلة حينما كان يقاتلهم، فنقل علامة الحد من مكانه الى موقع جديد متقدم في بلاد الهياطلة [٥] ولم تكن تلك الحروب صغيرة، ولم تكن تلك المعارك احداثاً هينة، كما لم تكن ايضاً حاسمة، حتى قيض للعرب في يوم ذي قار المثنى بن حارثة الشيباني فكسر الجيش الفارسي فقال النبي محمد (ﷺ) قولته المأثورة: «اليوم انتصف العرب من العجم، وبي نصروا» وجاء الفاروق عمر بن الخطاب. . وانتدب "سعد بن ابي وقاص وخالد بن الوليد والقعقاع وعاصم ابن عمرو التميمي، والمثنى بن حارثة الشيباني" لفتح العراق. . وفتح هؤلاء بجند العرب وجند العراق، وهزموا رستم ويزدجرد كسرى الفرس، وكانت معارك القادسية. . المعارك التي حسمت الموقف الى جانب الدولة العربية الفتية، وتحررت مدن العراق واحدة بعد واحدة بأيدي ابناء الامة العربية. . تحررت المدائن. . وجلولاء. . وتقدمت الجيوش واكتسحت امامها فلول الجيش الفارسي المنكسر شر انكسار، والمنهزم اخزى هزيمة. . وسقطت نهاوند والري ومرو واصفهان. . وصارت بلاد فارس كلها ضمن الدولة العربية وتحت راية الاسلام. . لكن حقد الفرس يبدأ بالتأجج لمجدهم الشائه الذي تحطم، ويحزنون على امبراطوريتهم الزائفة، ويأسفون لأكاسرتهم، فيبدأون بالدس اللئيم، ويؤججون الحقد في نفوسهم ضد العرب، فيغضبون من الفاروق عمر بن الخطاب (رض) ويحنقون عليه، فيقررون قتله بالفارسي ابي لؤلؤة الذي شفع له المغيرة بن شعبة ليعمل في المدينة المنورة التي قرر الخليفة الفاروق عمر بن الخطاب ان لا يدخلها اجنبي غير عربي [٦] . فيشحذ ابو لؤلؤة خنجره، ويداهم الفاروق عمر بن الخطاب (رض) العربي الاصيل خليفة المسلمين وامير المؤمنين، وينوشه بخنجره المسموم ذي

---

(٥) الطبري ابو جعفر بن جرير؛ تاريخ الامم والملوك ج٢ ص٨٥

(٦) السيوطي جلال الدين: تاريخ الخلفاء ص١٣٤ والمسعودي: مروج الذهب ج١ ص٥٣٣ والطبري؛ تاريخ الامم والملوك ج٣

الرأسين، ويطعنه عدة طعنات وهو قائم للصلاة، يعدل الصفوف في الفجر الوردي الجميل. ويسقط الخليفة العربي عمر بن الخطاب (رض) مضرجاً بدمائه، ممزق الجسد. . ويحاول المصلون الامساك بالقاتل. . فيضرب القاتل بخنجره المسموم ذي الرأسين يميناً ويساراً، ويتساقط ثلاثة عشر مسلماً [٧] عربياً ممن كانوا قائمين للصلاة، فيستشهد مع ابن الخطاب (رض) ستة مسلمين عرب. . ويقفز الى الوجود عراقي عربي، ويتقدم بكل قوته وعنفوان شبابه وايمانه، فيلقي رداءه على ابي لؤلؤة، ويلفه به ويسقطه ارضا، فيمسك به المصلون. . العراقي هو الذي انتدب نفسه للاخذ بثأر خليفة المسلمين وامير المؤمنين عمر بن الخطاب (رض). وهذا اول شهيد عربي مسلم بايدي الفرس انتقاماً وثأراً لمجد الفرس الشائه وامبراطوريتهم الزائفة. ولم يكن قتل الخليفة عمر بن الخطاب (رض) من قبل ابي لؤلؤة الفارسي، لمجرد انه قد ظلمه بفرض ضريبة المهنة عليه ما دام يربح، ويحقق ربحاً حلالا يكفيه او فوق ما يكفيه. ولماذا يريد ابو لؤلؤة الفارسي ربحاً فوق ما يكفيه. . ولماذا لم يطلب ابو لؤلؤة تخفيض هذه الضريبة من المغيرة بن شعبة، او يطلب منه انصافه؟! ولماذا لم يحقد على المغيرة بن شعبة؟! ولماذا لم يقتل ابو لؤلؤة، المغيرة بن شعبة بدلا من الخليفة عمر بن الخطاب (رض)!؟ اذن هو الحقد على الخليفة العربي عمر بن الخطاب (رض) الذي فل امبراطورية اكاسرة الفرس. . وحطم عنجهيتهم، ومرغ تاج كسرويتهم. ومن الذي قتل علي بن ابي طالب (رض) امير المؤمنين وخليفة المسلمين؟! اليسوا هم الخوارج. . الفرقة التي انشقت عن الطرفين العربيين المسلمين، وهي اول فرقة لعب فيها الفرس لعبتهم من وراء الكواليس، فلقد كان احد اركان الثلاثة الذين اتفقوا على قتل الثلاثة المسلمين الذين اشتركوا في الصراع على الخلافة، وهو عمرو بن بكر التميمي والمعروف بزاد ويه كما يقرر

---

(٧) جلال الدين السيوطي: تاريخ الخلفاء ص١٣٤ والمسعودي؛ مروج الذهب ج١ ص٥٣٣

المسعودي [٨] وزاد ويه فارسي، تميمي بالولاء، ولا يخفى على المرء ما يكنه هذا الفارسي، وما يريده، وما يحاول من اجل فارسيته المهيضة الجناح، ومجوسيته المكتومة. واذا عبدالرحمن بن ملجم الخارجي العربي، يصبح صنيعة للفرس وهو ربيب علي بن ابي طالب (رض). . وكان قرار قتل الخوارج للثلاثة الذين افسدوا الاسلام في تقديرهم!! وافسدوا الخلافة الاسلامية كما هم يقولون!! وفرقوا وحدة الصف الاسلامي بعد مقتل الخليفة عثمان بن عفان (رض)!! ووقع الاختيار على عبدالرحمن بن ملجم لقتل علي بن ابي طالب، وهو ربيبه وصنيعة الفرس!! وهل قتل عبدالرحمن بن ملجم صنيعة الفرس لعلي بن ابي طالب (رض) العربي، دفاعا او مطالبة بدم الخليفة العربي عثمان بن عفان (رض)!؟ والمصادفة عجيبة ان يقع الاختيار على قاتل علي بن ابي طالب (رض) امير المؤمنين وخليفة المسلمين العربي، على احد صنائع الفرس. والمصادفة اعجب حينما لا يتمكن الاثنان الآخران من الخوارج المتآمران على القتل، من قتل المفسدين للاسلام والخلافة الاسلامية، والمفرقين لوحدة الصف الاسلامي، وهما معاوية بن ابي سفيان وعمرو بن العاص في تقديرهم!! وكان احد القتلة زاد ويه الفارسي والتميمي بالولاء والمدعو عمرو بن بكر التميمي.

انها المؤامرة الفارسية، لتبقى الثورة متأججة. . ويدوم استعار الفتنة، وتستمر فكرة اغتصاب الخلافة من البيت الهاشمي، وبالتخصيص بعدئذ من البيت العلوي. . نعم. . هي المؤامرة الفارسية منذ معركة القادسية. . ومنذ سقوط دولة الاكاسرة. . حتى بعد ان دخل الفرس في الاسلام، ولكن ظلت الثنوية، والمانوية. . . . والزرادشتية، والمجوسية

---

(٨) المسعودي: مروج الذهب ج١ ص٦١١

(٩) المانوية ديانة فارسية جاء بها ماني بن فتق بابك بن ابي برزام تعتمد على ان مبدأ العالم كونان، احدهما نور والآخر ظلام، والنور هو الاله، والكون الثاني هو الظلام. ومن فرائض المانوية الصيام سبعة ايام في كل شهر والصلاة اربع مرات في اليوم ولها مواقيت محددة تنتهي رابعتها بعد الغروب بثلاث ساعات.

والمزدكيةثم البابكية (الخرمية) [١٠] فيما بعد، تنخر في كيان الدولة العربية الاسلامية. . ليس بدافع الاضطهاد والجور الاقتصادي والتباين الطبقي، انما هذه هي السبب المباشر او الظاهر للنخر والفتنة والثورة، والتآمر والانقضاض على الدولة العربية الاسلامية، اما السبب الخفي، المستتر، فهو الحقد على الدولة العربية، ومحاولة اعادة المجد الفارسي بالانقضاض على الدولة العربية واصحابها.

والمؤامرة الاكبر والاخطر، التي اكتشفها الفرس وفرحوا بها ومالوا اليها. . ووجدوها ذريعة بعيدة الامد، دائمة الاستعار، متوهجة الاوار. . لا تنطفيء ابد الأبدين، الا اذا تقوضت الدولة العربية الاسلامية. . وكانت باب هذه المؤامرة ونافذتها، هذه المرة وهي التي بدأت جديدة بعد سقوط الدولة الفارسية بمعركة القادسية، وبعد مقتل عمر بن الخطاب (رض) وبعد مقتل علي بن ابي طالب (رض) وبعد مقتل الحسين بن علي، وظهور نسغ جديد يدفع بحيوية المؤامرة الفارسية ضد الدولة العربية التي فلت دولة الفرس المجوس. . ونقطة القوة في هذه المؤامرة للفرس المجوس الحاقدين على السيادة العربية ونقطة الضعف على الدولة العربية. . تلك هي ظهور حفيد لعلي بن ابي طالب (رض). . او ابن للحسين بن علي (رض). وهذا الابن هو علي. . زين العابدين بن الحسين بن علي بن ابي طالب، من الأم الفارسية سلافة بنت يزدجرد

---

(١٠) المزدكية: هي صنف من الديانة الخرمية الاولى، صاحبها مزدك الذي ظهر في ايام قباذ بن فيروز، وتعتمد هذه الديانة على تناول اللذات والعكوف على الشهوات، والاختلاط، والمشاركة في الحرم والاهل، ولا يمتنع الواحد منهم من حرمة الآخر ولا يمنعون الضيف من شيء كائنا ما كان.

اما الخرمية البابكية، فهي التي نادى بها بابك بن عبدالله الذي ادعى الالوهية ودعوته خلاف المزدكية لأنه دعا الى القتل والغصب واثارة الحروب. وقد قتل بابك في شبابه جاويدان سيده، وتزوج امرأته بعد ان كان يفجر بها.

جرد او (شاه زنان) او (فريذ) [11] على مختلف الروايات، فاحتفى الفرس بهذا المولد وهذا الوليد. . وان لم تبدأ المؤامرة عملها بعيد ظهور عبدالله بن سبأ اليهودي(١٢)، فأنها ظهرت بالمؤامرة الفارسية الجديدة، وذلك في احتضانهم فكرة ، الامامة، والفرس!! ماذا تربطهم بالامامة العربية الاسلامية. . لتصبح حجة بيد المتآمرين على الدولة العربية، وبيد المنتقمين للمجد الفارسي الشائه. . انها حجة قوية تصلح لصنع بدعة جديدةيتواطأونبها ضد الدولة العربية. . والا لماذا اهتم الفرس بهذا الوليد وحده، واحتفوا بالفكرة التي ترفعه الى مجد عربي جديد، بفكرة الامامة والمعصومية التي صيغت صياغة فقهية كمالية وسامية الاهداف ولم يهتموا بوليدين آخرين، ولم يذكرهما التاريخ الا ذكرا عابرا، ويعرفهما معرفة هامشية، الا وهما سالم بن بن عبدالله بن عمروالقاسم بن محمد بن ابي بكر [12]. . وهذان الوليدان هما ولدا اختي سلافة بنت يزدجرد والاخوات الثلاث هن من سبايا العرب في معركة القادسية. لكن لأن الفرس لا يستفيدون من سالم ابن بنت يزدجرد لأنه ابن عبدالله بن عمر. ومن هو عبدالله بن عمر؟ اليس هو ابن الذي حطم عرش كسرى، وفل مجد امبراطورية الفرس. فممن اذن ينتقمون!!؟ ولأنهم لا يستفيدون من القاسم لأنه ابن محمد بن ابي بكر، فلا يحتاج الفرس الى نسج بدعة حوله. ولكن علي زين العابدين بن الحسين بن ابي طالب، يصلح تمام الصلاحية للالتفاف حوله، واحتضانه والاحتفاء بالفكرة التي تجعل منه اماما معارضا للخلافة العربية الاموية حتى اسقطوها. ويمكن عندها اذن وايضا من صنع الاحاديث واختلاقها وصنع الرواة واختلاقهم بعد

---

(١١) ابن خلكان: وفيات الاعيان ج٣ ص٢٦٦ وابن عنبه جمال الدين: عمدة الطالب في انساب ابي طالب ص١٨١

(١٢) عبدالله بن سبأ: يهودي صنعاني، ظهر في زمن الخليفة عثمان بن عفان (رض) واخذ يدعو لعلي باعتباره وصيا للنبي محمد (ﷺ) وان عثمان غصب الخلافة وصار يتنقل بهذه الدعوة بين الشام والكوفة والبصرة ومصر.

ان فشلوا في صنع واختلاق الاحاديث لاسناد علي بن ابي طالب وبعد ان اغتيلت خلافة علي بن ابي طالب، وبعد ان قتله صنيعة الفرس ثأرا لمجدهم الشائه. والحديث المختلق هو: «لله تعالى من عباده خيرتان، فخيرته من العرب قريش، ومن العجم فارس»[١٣]. ولا يصح ان يروى هذا الحديث عن النبي محمد (ﷺ) بعد ان سمع النبي محمد (ﷺ) ذاته وعرف ان كسرى مزق كتابه الذي ارسله اليه يدعوه الى الاسلام(١٣)، في الوقت الذي اكرم امبراطور الحبشة وفادة رسل النبي محمد (ﷺ) واهدى المقوقس حاكم مصر للنبي محمد (ﷺ) امرأة من بنات شعبه هي (مارية القبطية) التي ولدت له ابراهيم، وفي الوقت الذي استقبل امبراطور الروم رسل النبي محمد (ﷺ) ايضا واكرم وفادتهم، واحسن لقاءهم. ان خيرة العباد.. من العجم هي فارس، ولم تكن بيزنطة ولا اثينا ولا اديس ابابا، بالرغم من ان صاحب اديس ابابا امبراطور الحبشة استقبل كتاب النبي محمد (ﷺ) واحسن استقبال واكرم وفادة الرسل، وبالرغم من ان كسرى مزق كتاب النبي محمد (ﷺ)، ولم يستقبل رسل النبي محمد (ﷺ)، ولم يكرم وفادتهم. انها الاحبولة، لاتمام عملية المؤامرة واحكامها واقناع الذين يحتاجون الى دعوتهم وتأييدهم والاستفادة من قوتهم وتمهيد الطريق للوصول الى تحقيق مآربهم الفارسية. و شجع الفرس العلويين ووحدوا صفوفهم من اجل الدعوة للائمة العلويين المعصومين(!) لأن اية خلافة اخرى غير علوية في رأي الفرس، هي خلافة ليست عربية، ولا اسلامية.. والخلافة العربية الوحيدة والاسلامية الوحيدة هي خلافة العلويين. فليكن العلويون الشبكة..الصنارة التي يصطاد بها الفرس الفريسة.. وهي الورقة الاخيرة وليست لغيرها اخرى.. فليقوموا بالعمل الجبار. واتمام فعل المؤامرة.. يحرضون العلويين العرب، ثم يقمعون ثوراتهم.. ويحرضون العناصر الفارسية، وان لم يحرضوها هم بالذات، فهناك

(١٣) ابن خلكان: وفيات الأعيان ج٣ ص٢٧١ ـ ٢٧٤ الطبري: تاريخ الامم والممالك ج ٢ ص٩٠

من يحرضهم من ذوي المصالح او المطامع المتغلغلين في مختلف اوساط الفئات الاجتماعية، ثم يوافقون الخليفة، ويطيعون الخليفة لقمع تلك الانتفاضات والثورات لكسب ود واعجاب الخليفة، والايمان باخلاصهم، حتى يصفو لهم الجو، وتسنح لهم الفرصة لتوجيه الضربة القاضية .

قتل عم ابي جعفر المنصور [١٤] ، وقتل محمد وابراهيم ابني عبدالله بن الحسن، واطلاق جعفر البرمكي لسراح يحيى بن عبدالله العلوي [١٥] ، وتأجيج الصراع بين موسى الهادي وهرون الرشيد عن طريق امهم الخيزران، وقتل عبدالله بن طاهر للامين، وابدال اللباس العباسي الاخضر باللباس الاسود لباس اكاسرة الفرس، والايحاء للمأمون للعهد بالخلافة الى علي الرضا العلوي [١٦] ، لخلق الفتنة وتأجيج الصراع بين العلويين والعباسيين، ثم عدول المأمون، وخلع المقتدر وتنصيب القاهر. . وتطول قائمة محاولات السيطرة والتدخلات. . لكن الشيء الوحيد الذي يبقى هو خطأ استعمال الاعاجم وتوليهم المناصب الحساسة والقيادية. . لأنهم وبسرعة ينقلبون الى رتل خامس يتجسس على الدولة ويتآمر ضدها. . اذ لم تسلم الخلافة العربية العباسية بعد ازاحة الفرس، ايام المعتصم، وتقريب الاتراك. . والافشين صورة من تلك الصور التي اظهر التدخل الاجنبي وابرزه، فبدأت سيطرته ايضا، عن طريق التعمية والتحجيم، والتمويه على الحقائق والاشخاص لابعادهم، وازاحتهم ثم ملء الفراغ، لكن اذا المت الملمات، واذا وقعت الواقعة، فأن هم الاجانب ان يهربوا ويفروا من مواقع المعركة، ويبقى العرب وحدهم، ليكونوا هم الطاعن والطعين، وهم وحدهم القاتل والقتيل. ويتواطأ العرب العباسيون، والفرس المسلمون، وربما غير المسلمين ايضا، ضد الدولة العربية حينما كانت اموية،

---

(١٤) السيوطي : تاريخ الخلفاء ص٢٦١

(١٥) الطبري : تاريخ الامم والملوك ج١٠ ص٨١

(١٦) السيوطي : تاريخ الخلفاء ص٣٠٧

وحينما اصبحت الدولة العربية عباسية، انتفض الفرس المسلمون ورفعوا رؤوسهم للانقضاض على الدولة العربية العباسية، لأنهم يريدون هزيمتها اسوأ هزيمة. . ولم يكن حقد الفرس ضد الدولة الاموية لأنها اموية، انما ضدها لأنها دولة عربية. والدليل على ذلك ان حقد الفرس لم ينته ضد الخلافة بعد ان سقطت الدولة العربية الاموية، وبعد ان وصل العباسيون الى السلطة (الخلافة)؛ بل ان حقد الفرس المسلمين وغير المسلمين ايضا، بدأ ضد العباسين، واخذوا يدعون للعلويين، وشرعوا يساعدونهم في ضرب الدولة العباسية، فما هي مصلحة الفرس المسلمين وغير المسلمين لضرب العرب العباسيين للمجيء، هذه المرة، بالعرب العلويين؟ وهل هم صادقون في مجيء العلويين لتصبح الدولة علوية؟ او من هم الامويون والعباسيون والعلويون؟ اليسوا هم جميعا عربا اقحاحا؟ ام ان العلويين وحدهم هم العرب وغيرهم الاعاجم؟! والفرس، اليسوا هم الاعاجم؟! ولماذا كان الفرس الاعاجم حريصين على ضرب الامويين والعباسيين وهم عرب؟! انهم بدون شك يختبئون خلف متاريس العلويين العرب. . وانهم اذن يريدون ان يضربوا العرب بالعرب، والا فما هي مصلحتهم اذا انتصر الامويون او اذا سقطوا؟ ام ان العلويين هم وحدهم - كما يوحي الفرس المسلمون - يمثلون الدولة العربية والتاريخ العربي. .؟ انها المؤامرة اذن . .

وانها الاحبولة التي كان يجب ان لا تنطلي هذه المرة على العلويين. .

وهي الشرك الذي يتصيد به الفرس. .

والهدف هو اضعاف العرب بالعرب. . لتصبح الفريسة ضعيفة، ثم يسهل افتراسها. .

وبعد المعتصم يأتي دور البويهيين[17] وما قاموا به وما استحدثوا حتى

---

(١٧) السيوطي جلال الدين عبدالرحمن: تاريخ الخلفاء ص٣٩٧ والمسعودي: مروج الذهب ج١ ص

وصلت المؤامرة الى الوزير الفارسي مؤيد الدين محمد بن محمد بن عبدالله بن العلقمي العالم الجليل!! ونصير الدين الطوسي الفلكي المهيب، وما قاما به، وما فعلاه. وابن العلقمي خاتمة مطاف الدولة العربية العباسية، وهو الذي سلم مفاتيح ابواب بغداد سراً وليلا الى المدعو هولاكو السفاح ملك المغول والتتر.

* * *

لم يكن الصراع الفكري الذي حدث في ايام الدولة العباسية، صراعاً فكرياً ادبياً او لغوياً او فلسفياً، اي صراع محض، لمجرد اختلاف في التفسير، انما كان الصراع الفكري يستبطن صراعا سياسياً، وبجوهر قومي. فكان هذا الصراع يستقطب الفرس من جانب، ويستقطب العرب من جانب آخر. ومن خير الشواهد على هذا الصراع الفكري، هو نشوء مدرستين لغويتين في النحو، عرفت احداهما بالمدرسة الكوفية، وعرفت الثانية بالمدرسة البصرية. ومعروف ان النحو قد وضعه واوضح اسسه ابو الاسود الدؤلي، حينما ظهر اللحن في قراءة القرآن، بعد دخول الاعاجم في الاسلام، والاعاجم في ذلك الوقت هم الفرس في الغالب. ولئلا تفسر قراءة القرآن تفسيرات مختلفة، ارتؤي وضع نهج خاص بالقراءة اطلق عليه النحو. ولكن لماذا حدث الاختلاف بين الكوفة والبصرة بالذات، ولماذا لم يحدث الاختلاف بين واسط والبصرة، او بين بغداد والبصرة، بعد استحداث مدينة بغداد او. . او، ، ولو تفحصنا الامر لرأينا ان البصرة قد بناها عتبة بن غزوان بعد فتح العراق في زمن الخليفة عمر بن الخطاب (ر) فاصبحت مدينة العرب القادمين من الحجاز وهؤلاء العرب الذين سكنوا البصرة هم الذين طردوا الفرس منها فصارت قاعدة لتحرير كل العراق، وان الذي قتل علي بن ابي طالب هو عبدالرحمن بن ملجم صنيعة (زاد ويه) الفارسي. واستغل الفرس ذلك فشايعوا عبدالله بن سبأ اليهودي، وتابعوه بافكاره الدينية والخرافية التي وصلت الى تأليه علي بن ابي طالب عند الفرقة السبأية، بالرغم من ان علي بن ابي طالب (رض) رفض هذه الافكار لأنها بدع مخالفة لجوهر الدين الاسلامي. وقد اقام علي بن ابي طالب (رض) دولته كما هو معروف في الكوفة،

وليس في المدينة او الشام . . حيث ارتفعت المعارضة الفكرية والدينية استبطانا للمعارضة السياسية، فاحتضنت الفرق الاسلامية المعارضة فكريا - بالظاهر - للخلافة القائمة، سواء كانت اموية ام عباسية، لكنها المعارضة سياسيا في الباطن، في محاولة من هؤلاء الموالي الفرس لازالة السيادة العربية واعادة السيادة الفارسية، ان لم يكن على العراق مع بلاد فارس، فلا أقل من اعادة هذه السيادة الفارسية لبلاد فارس ذاتها، التي ازال العرب والاسلام هيبة السيادة الفارسية، وهووا بتاج الكسروية الى التراب، فتمرغ تحت اقدام جند العرب، وتأكيداً لما نقوله عن عصبية الكوفة الفارسية، وضعف العصبية العربية فيها الذي ادى الى هذا الصراع الفكري و المعارضة الفكرية ظاهريا، بينها تخفي المعارضة السياسية باطنا « . . وتظهر الكوفة في جميع هذه الاخبار معقلا لبني العباس ومركزا لهم . ففيها يقطن ممثلو الامام غير المرئي وسفراؤه: ميسرة وابن ماهان وابو سلمة (الخلال) واتباعهم ومساعدوهم. وهم كلهم من الموالي الفرس ومن اصحاب الحوانيت واصحاب المهارة في التجارة. وقد يكون بين اولئك الجماعة، عرب، لكن العرب لا يحتلون مكانا في القيادة. وخراسان، اعني مرو موجهة من الكوفة. فبعد عام مائة بزمن بعيد ما فتيء الدعاة في خراسان كوفيين فقط، وهم تجار غرباء» [١٨].

لايشك ان سبب هذا الصراع والحقد على الدولة العربية وسيادتها وانتصارها، انما يكون مرده الى استعلاء العرب على الفرس في بعض الاحيان، لأن الفرس اصحبوا من طبقة الموالي، وشعور هؤلاء الموالي الفرس بالاضطهاد القومي او اللغوي لأنه « . . . لغة السوق في الكوفة والبصرة نفسها هي على ما يقال في الاقل فارسية وعربية بمقدار واحد» [١٩] ، والسبب في ذلك، اي غلبة

---

(١٨) يوليوس ولها وزن؛ الدولة العربية وسقوطها ص٤٠٦

(١٩) يوليوس ولهاوزن: الدولة العربية وسقوطها ص ٣٩٠

اللغة الفارسية، او المساواة في استعمالها مع اللغة العربية ودوامها في السوق، لأن السيطرة التجارية اصبحت بايدي الموالي الفرس ولأن العلاقات التجارية والفكرية بين البصرة والكوفة كانت قوية ومتينة ومستمرة، لذلك ايضا غلبت فيها اللغة الفارسية. ويرجع السبب في ذلك في رأي ولها وزن الى قلة العناصر العربية، بالرغم من وفودهم المستمر من العراق والجزيرة العربية فيقول: «ولم تقو الموجات العربية المتتالية التي كانت تأتي من العراق، العنصر العربي، بحيث يصبح بوسعه ان يقاس في العدد العنصر الايراني. فالحرب الدائمة كانت تفنيه بوجه خاص» [٢٠].

ولا يشك ان لطغيان العناصر الفارسية على العناصر العربية يرجع الى اسباب عديدة منها تزاوج العرب بالفارسيات منذ الجيل الاول، ومنها دخول هؤلاء الفرس الاسلام خوفا او تقربا، ومنها الرغبة في المساواة مع العرب، ومنها تحقيق المنافع والمكاسب الشخصية خاصة وان هؤلاء الموالي الفرس شرعوا في تعلم اللغة العربية واتقنوها، وتفصح عدد منهم بها، فيقول الجهشياري [٢١]: «.. ولما عقدت البيعة لأبي العباس حضر خالد بن برمك لمبايعته، فرأى فصاحته فتوهمه من العرب، فقال له: ممن الرجل؟ فقال له: مولاك خالد بن برمك، وقص عليه قصته. وقال له: انا كما قال الكميت بن زيد:

فما لي الا آل احمد شيعة
وما لي الا شعب الحق شعب

فاعجب به ابو العباس واقره على ما كان يتقلد من الغنائم وجعل اليه بعد ذلك ديوان الخراج وديوان الجند وكثر فيه حامده وحسن اثره» [٢٢].

هذا قد حدث في اول الخلافة العباسية، وفي ايام البيعة بالخلافة، اي لم يمض على سقوط الدولة الاموية سوى ايام معددوات، ولم تعلن الخلافة العباسية

(٢٠) يوليوس ولهاوزن: الدولة العربية وسقوطها ص ٣٩٠

(٢١) الجهشياري: كتاب الوزراء والكتاب ص٥٩، توفي (٣٣١)هـ

(٢٢) الجهشياري ابو عبدالله محمد بن عبدوس: كتاب الوزراء والكتاب ص٨٩

عن نفسها الا بعد ايام قليلة ايضا؛ وهذا فارسي يتقن العربية ويستشهد بالشعر العربي، ويعرف اسماء الشعراء الذين يستشهد بهم الى درجة ان لا يعرف ذلك امير عربي، ولا يفرقه عن العربي الاصيل، اي ان خالد بن برمك، كان قد تعلم، وربما ابوه وجده ايضا اللغة العربية، فـذا اتقنا خلال خلافة الدولة الاموية، بعد ان اصبحت عموم الارض الفارسية وما وراء النهر تحت سلطة وسيادة الدولة العربية، وبالرغم من وجود عناصر فارسية كثيرة لم تزل لم تدخل الاسلام، فأن اهل الديلم مثلا لم يسلموا الا في خلافة المقتدر في حدود عام ٣٠٢هـ، ولا شك ان اسلام اهل الديلم، لا يعني شمول الاسلام كل بلاد الفرس، وما وراء النهر، اذ لابد ان بقي الكثير من العناصر الفارسية دون ان يدخلوا الاسلام.

«وقد جذب الاسلام الفرس اول الامر للمنافع التي يجلبها، اكثر مما جذبهم لذاته. واستعملوه سبيلا للتقرب من الطبقة الحاكمة ولمشاركتها في مزاياها ولتعريف انفسهم، ثم اتخذوا اسماء عربية ودخلوا في القبيلة العربية. وتزلف للعرب الافراد الطامحون منهم، ولعبوا دوراً متلبساً وسطاً بين الشعوب. وكانوا يدعون بالنصحاء، واشهرهم سليم وحيان النبطي»(٢٣). وهناك ادلة كثيرة تثبت ان هؤلاء الموالي الفرس قد ادعوا النسب العربي وانتموا الى قبائل عربية، وتسموا باسماء عربية لتقريب انفسهم، ومشاركة العرب في المنافع والمكاسب والمراتب العليا في السلطة. فأن اولاد بويه؛ لما وصلوا الى اعلى مراتب السلطة، وعلا شأنهم فوق شأن الخليفة العربي العباسي، طلب عضد الدولة البويهي من المؤرخ الصابي ان يضع كتابا في اخبار الدولة الديلمية، بعد ان عفا عنه، لأنه كان قد حقد عليه لمكاتبة الصابي الى عضد الدولة بما يؤلمه، فاعتقله سنة ٣٦٧هـ وعزم على القائه تحت اقدام الفيلة، فشفعوا له، ثم اطلقه سنة ٣٧١هـ. فوضع الصابي كتابا سماه التاجي. نسبة الى احد القاب عضد الدولة، وهو تاج الملة.

---

(٢٣) يوليوس ولها وزن: الدولة العربية وسقوطها ص٣٩٢

فقيل لعضد الدولة: ان صديقا دخل عليه - اي على الصابي - فرآه في شغل شاغل من التعليق والتسويد والتبييض، فسأله عما يعمل فقال: (اباطيل انمقها، واكاذيب الفقها) فحركت ساكنه، وهيجت حقده، فاعتقله، ولم يزل معتقلا في ايامه. ومهما كانت درجة هذا القول من الصحة سواء (قاله بجد ام هزل، او تقول به خصومه عليه فلا شك انه شاع على لسانه، وصار يحكى عنه ما وقع، وان لم يكن صادرا منه حقاً» [٢٤].

«وكان اتخاذ العباسيين بصورة خاصة الزوجات الفارسيات والسراري والجواري مما خلق جيلا جديدا من العرب مطعمين باصول فارسية، يتصفون بولاءين ولاء عربي من ناحية الاب وولاء فارسي من جهة الام، فكان عندهم خدم من الفرس وزوجات فارسيات. وظهر الاثر في الاولاد منذ الجيل الثاني نفسه» [٢٥].

ومن اوائل الخلفاء العباسيين الذين صاهروا الفرس ابو جعفر المنصور، يوم كان مختفياً في خراسان يدعو ضد الدولة الاموية لاقامة الدولة العباسية، ويجمع الاتباع والدعاة فيقول الجهشياري: «.. واراد ابو جعفر (المنصور) الخروج الى البصرة، فودعهم، ودفع الى الجارية، قميصه وخاتمه، وقال ان ولدت فاحتفظي بولدك، فمتى سمعت انه قد قام في الناس رجل يقال له عبدالله بن محمد ويكنى ابا جعفر المنصور، فصيري اليه بولدك، وبهذا القميص والخاتم، فأنه يعرف حقك ويحسن الصنيع اليك، وفارقهم» [٢٦]

«وقد ولدت الجارية هذه، ولدا صار فتى، فسمعت ان رجلا قام في الناس يقال له عبدالله بن محمد ويكنى ابا جعفر المنصور، فنزحت من بلاد فارس الى بغداد وقدمت القميص والخاتم فعرفها ابو جعفر المنصور فأخذ ولده واكرم

---

(٢٤) الصابي: المنتزع من كتاب التاجي ص٦

(٢٥) يوليوس ولهاوزن: الدولة العربية وسقوطها ص٣٩٠

(٢٦) الجهشياري: كتاب الوزراء والكتاب ص٨٦ وص٨٧

الجارية (ام الفتى) زوجة المنصور المطلقة، واودع ابو جعفر المنصور ولده هذا الى الموريانى لتربيته وتأديبه، وكان الفتى في غاية من العقل والكمال، وكان المنصور يخلو معه، فيسأله الموريانى عما يجري بينهما فلا يخبره، فيقول له: ان امير المؤمنين لا يكتمني شيئا، فيقول: فما حاجتك الى هذا عندي اذاً؟. . فحسده الموريانى واستوحش منه، وثقل عليه مكانه، فاطعمه سماً، فمات، وصار الى المنصور، فأعلمه انه مات فجأة، ثم ولى، فقال المنصور: قتلته! قتلني الله ان لم اقتلك به، فلم يلبث بعده ان فعل به ما فعل» [٢٧]. ان هذه الجارية التي خدمت ابا جعفر المنصور في خراسان، فأصدقها صداقها وتزوجها، فولدت منه هذا الولد الذي ابلغها ان تقدم اليه اذا ما سمعت به يتولى الخلافة، انما يعني البعد الستراتيجي لتدخل الاجانب في شؤون الدولة، لأنهم لاشك سيصلون عن هذا الطريق او ذاك الى اعلى مراتب السلطة، كما حدث بالفعل في اول ايام السلطة التي تولتها الخلافة العباسية .

تطلعات ابي سلمة الخلال

وقبل بدء ايام سلطة الخلافة العباسية تغلغل الدعاة الفرس وعاونوا العباسيين على اسقاط الدولة العربية الاموية، فاذا تسلم العباسيون السلطة، اناطوا بهم المراتب والمسؤوليات، فاذا ابو سلمة الخلال يصبح اول وزير لأول خليفة عباسي واسمه حفص بن سليمان ابو سلمة الخلال. . وهو مولى بني الحارث بن كعب. . من مياسير اهل الكوفة. وكان سبب وصوله الى بني العباس، انه كان صهرا لبكير بن ماهان، وكان بكير بن ماهان كاتبا خصيصا بابراهيم الامام. . وقام ابو سلمة بأمر دعوتهم، قياما عظيما، فلما سبر احوال بني العباس، عزم على العدول عنهم الى بني علي (رض) فكاتب ثلاثة من اعيانهم. .

---

(٢٧) الجهشياري: تاريخ الوزراء والكتاب ص٨٦ ـ ٨٧

فذهب الرسول الى جعفر بن محمد الصادق ودفع اليه كتاب ابي سلمة، فقال: ما لي ولأبي سلمة، وهو شيعة لغيري، فقال له الرسول: اقرأ الكتاب. فقال الصادق لخادمه: ادن السراج مني، فادناه، فوضع الكتاب على النار حتى احترق. فقال الرسول: الا تجيبه؟ قال: رأيت الجواب» [٢٨] . فهذه هي نفسية ابي سلمة الخلال. انه لاشك يريد الوصول الى موقع رفيع في اية من السلطتين. وانه كان يقيم الروابط بينه وبين الفريقين، فاذا غلب فريق، يكون له عنده نصيب وحظوة عند هذا الفريق الغالب المنتصر.

ان هذا يوافق ايضا ما قاله السيوطي: «في دولة بني العباس افترقت كلمة الاسلام وسقط اسم العرب من الديوان، وادخل الاتراك في الديوان واستولت الديلم ثم الاتراك، وصارت لهم دولة عظيمة، وانقسمت ممالك الارض عدة اقسام، وصارت الكل قطرا قائما يأخذ الناس بالعسف ويملكهم بالقهر» [٢٩] .

لكن انتهازية ابي سلمة الخلال ومحاولته التآمر على الخلافة العربية العباسية الفتية، انكشفت للسفاح الذي «هم بأبي سلمة الخلال فقال له داود بن علي: لا آمن عليك ابا مسلم الخراساني، ان فعلت يستوحش. لكن اكتب اليه فعرفه ما كان من ابي سلمة الخلال، فكتب ابو العباس الى ابي مسلم الخراساني يعلمه ما كان من امر ابي سلمة في الكتاب الى من كتب اليه من ولد على وما كان اجمعه من صرف الدعوة اليهم، فوجه ابو مسلم الخراساني بالمرار بن انس الضبي لقتل ابي سلمة الخلال فلما وافاه امر العباس قبل قتله بثلاثة ايام مناديا بالكوفة ان امير المؤمنين قد رضي عن ابي سلمة الخلال ثم دعاه قبل مقتله بيوم، فخلع عليه» [٣٠]

---

(٢٨) ابن الطقطقي : الفخري في الادب السطانية ص١٠٩

(٢٩) السيوطي: تاريخ الخلفاء ص٢٥٨/ ٢٥٩

(٣٠) الجهشياري: تاريخ الوزراء والكتاب ص٦٠ وابن الطقطقي: الفخري في الاداب السلطانية

طموحات ابي مسلم الخراساني

ان حكاية ابي مسلم الخراساني معروفة ايضا، في محاولة هدم كيان الدولة العربية العباسية، بعد ان كان من اكبر الدعاة لها في خراسان، لكنه حينما شعر بأن له قدرات قيادية جيدة، وسمعة جماهيرية وتـأييداً فـارسيـاً اخذ يشحذ همته لاستغلالها للاستقلال بخـراسـان، لكن ابا جعفر المنصور السياسي الـداهية، ادرك ابعاد محاولات ابي مسلم الخراساني ومرامي اهدافه، والجيش الخراساني الكبير الذي جمعه واجزل له العطاء، حتى يسبح بحمده ويخلص في الطاعة له، وادرك ابو جعفر المنصور ايضا ان بقاء هذا السياسي القيادي الفارسي يجر الوبال على الدولة العربية، فأخذ يحاول ابعاده عن خراسان، بأن يوليه ولاية اخرى فلم يرض ابو مسلم بذلك، لأنه شعر ان ابا جعفر المنصور قد تغير عليه، فهو يريد قص جناحيه وتقليم اظافره، فلم يقنع بكل العروض التي عرضها ابو جعفر المنصور، لكن ابا جعفر المنصور، تمكن من استمالته: «قال ابو ايوب سليمان بن سليمان المورياني: ولما قرب ابو مسلم الخراساني من المدائن دخلت على ابي جعفر المنصور بين العصر والمغرب، وهو في خباء شعر على مصلى، وبين يديه كتاب من ابي مسلم، فلما رآني رمى الكتاب الى وقال لي: اقرأه يا سليمان، فقرأته، ثم قال لي: والله لئن ملأت عيني منه لاقتلنه، فقلت في نفسي: انا لله وانا اليه راجعون. طلبت الكتابة حتى بلغت غايتها، وصرت كاتباً للخليفة، وقع بين الناس هذا التخليط! والله ما ارانـا نسلم. وما احسب اصحاب ابي مسلم يرضون ان قتل؛ ان يدعوا هذا على الارض، ولا احداً من اسبابه» ٣١ . . وكان كتابه هو وكان مما خاطب به ابو مسلم الخراساني ابا جعفر المنصور في كتاب كتبه اليه قبل ان يزمع الرجوع، انا كنا نروى عن ملوك آل ساسان، ان اخوف ما يكون الوزراء ما سكنت الدهماء، فأنا نافر من قربك، حريص على الوفاء بعهدك، حـري

---

(٣١) الجهشياري: كتاب الوزراء والكتاب ص٧٧

بالسمع والطاعة لك، غير انها من بعيد، حيث تقارنها السلامة، في كلام طويل» [٣٢] . فلو كان ابو مسلم الخراساني بريئا من كل جرم، فلا يمكن ان يراب بأية ريبة، اما ان كان يضمر شراً، فأن خوفه وتوجسه وشكه بالخليفة ورغبته في الابتعاد عنه وعدم الاقتراب منه، كلها تصدق ظنه، وقد يكون الطموح احيانا في غير محله، وهذا هو الذي يوقع الانسان في شباك المصيدة. ومن حق المتآمر او من يضمر الشر، ان يخاف ويتوجس، ويشك بأقرب المقربين لأن المريب يكاد ان يقول خذوني.

نفوذ البرامكة

لم تكن نكبة البرامكة، مسألة شخصية خاصة بأحد البرامكة، كأن تكون تخص جعفرا البرمكي او اخاه الفضل او خالدا. والاحابيل التي حيكت حول هذه النكبة التي حلت بهم، لم يكن لها اي وجه من الحقيقة، انما قام بها الفرس، وكل الحاقدين على السيادة العربية؛ غرضهم طعن العرب وتشويه تاريخهم، وتقليل شأنهم. ولقد صدق الكثير من الناس، وسجل الكثير من المؤرخين روايات عديدة ومختلفة عن نكبة البرامكة هذه، « . . قال عبيدالله بن يحيى بن خاقان: سألت مسروراً الكبير في ايام المتوكل، وكان قد عمر اليها، ومات فيها؛ عن سبب قتل الرشيد لجعفر، وايقاعه بالبرامكة. فقال: بأنك تريد ما تقوله العامة فيها ادعوه من امر المرأة وامر المجامر التي اتخذها للبخور في الكعبة. فقلت له: ما اردت غيره. فقال: لا. والله، ما لشيء من هذا اصل، ولكنه من ملل موالينا وحسدهم» [٣٣] . . ولم يحصل هذا الخلط والاختلاق والافتراء والتشويه، الا بسبب غضب هرون الرشيد على البرامكة ثم نكبتهم، اي

---

(٣٢) الجهشياري: كتاب الوزراء والكتاب ص٧٧

(٣٣) الجهشياري: كتاب الوزراء والكتاب ص٢٠٤

معاقبتهم دون ابدا الحجج او الحيثيات التي سوغت له هذه النكبة. ولاشك ان الخطأ الذي قام به احد هؤلاء الاخوان البرامكة او كلهم او الجرم الذي ارتكبوه، لا يمكن ان يسوغ لأي خليفة، معاقبة الجميع بجرم واحد. لكن التحليل التاريخي للحادثة (النكبة) تجعلنا نشك في كون الجرم الذي ارتكب بحق الخليفة هرون الرشيد، لم يرتكبه واحد من هؤلاء البرامكة، انما لاشك هي المؤامرة التي اشترك فيها جميع البرامكة. وان لم يشتركوا فيها فعلا، فهم كانوا يعرفون بها، ويفرحون لها، فسكتوا عن ابلاغ الخليفة، وان لم تكن مؤامرة على الخليفة بالذات، فهي مؤامرة على الخلافة العربية العباسية، اي مؤامرة على السيادة العربية، فليس من المعقول ان يقوم الخليفة هرون الرشيد بهذه النكبة عن عمل شخصي قام به احدهم مهما كان ذلك العمل سيئاً مشيناً او لااخلاقي. فهذه الغضبة التي وقعت كالزلزال، لاشك لمسألة اكبر من ذلك خاصة وان جعفراً البرمكي وزير هرون الرشيد، ووزير الخلافة العربية العباسية المترامية الاطراف، واخويه الآخرين، ان لم يكونا من بين الوزراء، فهما من الولاة الذين ولاهم هرون الرشيد على العديد من الولايات، بل ان جعفرا البرمكي الوزير ابن الوزير ايضا، تمتع بالوزارة منذ ايام استكتاب خالد بن برمك للخليفة ابي العباس السفاح وجعله بمثابة الوزير، ثم استوزره الخليفة ابو جعفر المنصور، ثم استوزر ابنه يحيى بن خالد بن برمك، ومن ثم اولاد يحيى بن برمك الوزارة والتولية، فيكون جعفر البرمكي وزير هرون الرشيد والفضل البرمكي واليا في خراسان، ومحمد البرمكي واليا ينتقل من ولاية الى ولاية اخرى. لكن الغرور يصعد بهم في مراقي المنافسة، والاعجاب بالذات يذكرهم بالمجد الفارسي الغابر، فتظهر سيطرتهم على سياسة البلاد واقتصادها، ويصبح الخليفة هرون الرشيد في الظل، فيعز عليه ان يؤول هذا المجد الاثيل الذي صنعه اجداده، وابوه الى مثل هذا المآل، فينتفض هلعاً على السيادة العربية لئلا تضيع، فتحل النكبة بالبرامكة، ويزول عندها هاجس هرون الرشيد باستلاب الخلافة وازالة

السيادة العربية التي بدأت تزهو بحضارة انسانية رائعة ترفد العالم بالخير والمحبة وتبشر بالسلام .

هيمنة بني سهل وآل طاهر

وفي خلافة المأمون ظهر قائدفارسي آخر، اصبح من اكبر اعوان المأمون ، هو طاهر بن الحسين المعروف «بأبي الطيب مصعب بن رزيق بن ماهان - ورأيت في مكان آخر - اسعد بن زاذان - والله اعلم - وهو الخزاعي بالولاء، والملقب ذا اليمينين، كان جده رزيق بن ماهان مولى طلحة الطلحات الخزاعي المشهور بالكرم والجود المفرط. وكان طاهر من اكبر اعوان المأمون، وسيره من مرو كرسي خراسان لما كان المأمون بها، الى محاربة اخيه الامين ببغداد، لما خلع المأمون بيعته. . وتقدم طاهر الى بغداد - بعد ان قتل علياً ابن عيسى بن ماهان - وحاصر بغداد والامين بها، وقتله يوم الاحد ٦ صفر سنة ١٩٨هـ. لكن المأمون قتله في مرو، بعد ان دس عليه خادما سنة ٢٠٧هـ بعد ان قطع الخطبة باسم الخليفة»[٣٤] ، وبعد ان لعب دورا مثاليا في الايقاع بين الاخوين الخليفتين؛ الامين والمأمون، وهو الذي امر بقتل الامين وقطع رأسه وتقديمه في صينية من فضة او نحاس او طبق من خوص! الى اخيه المأمون. ولاشك ان الصراع بين الاخوين، قاد الى هذا المآل. ولكن كان بأمكان الوزراء والقواد والامراء، اطفاء نار الفتنة بين الاخوين او تخفيف حدة توهجها وسعيرها، وكان بالامكان ايضا عدم القيام بمثل هذه المثلة بقطع رأس الاخ الخليفة الامين، وتقديمه الى اخيه في صينية اوطبق، فأن مثل هذا المنظر لاشك يثير حفيظة الاخ على قتله اخيه. . حتى لو كان هو قد اوصى بقتل اخيه. لكن كان يمكن تفادي هذه المثلة، انما القيام بها يعني وجود حقد لئيم كان يكنه القائد الفارسي طاهر بن الحسين بن

---

(٣٤) ابن خلكان: وفيات الاعيان ج٢ ص٥١٦

هامان، فعبر عن هذا الحقد بقتل الامين وقطع رأسه. وقد كان الاولى اخذه اسيرا وتقديمه الى اخيه الخليفة المأمون وهو الذي يقرر مصير اخيه، فقد يعفو عنه كما عفا هو ايضا عن عمه ابراهيم بن المهدي حينما نودي به خليفة للمسلمين بعد خلعه وهو في فارس ومبايعته على الرضا بولاية العهد [٣٥] لكن قطع رأس امير عربي له قيمة وله شأن، لأنه يقطع جزء من السيادة العربية، فهو ضرب الاخ باخيه، العربي بالعربي، وتأجيج الخلافات لاضعافهم ثم سنوح الفرصة لضرب القوى الاخرى المناوئة الا ضعف، وبالفعل ما ان سنحت الفرصة لطاهر بن الحسين بن ماهان حتى استقل بولاية خراسان حينما عينه المأمون واليا عليها في العاصمة مرو لأنه «كان يتمنى.. ان يخطب على منبر مرو، فوليها سنة ٢٠٦هـ وخطب في سنة ٢٠٧هـ، لم يصلّ بهم، الا ذلك اليوم، فأنه صعد المنبر فحمد الله، واثنى عليه، ولم يدع للمأمون» [٣٦] . وهكذا وضحت الحقيقة. ولو لم تكن هذه هي الحقيقة للاستقلال بالولاية او الولايات الفارسية، واضعاف السيادة العربية واعادة السيادة الفارسية الى سابق عهدها في بلاد فارس، لما لجأ ابو مسلم الخراساني وطاهر بن الحسين الى هذه المحاولات، فالاصبع على الزناد، ابو مسلم الخراساني ما يزال يتذكر آل ساسان ويتمثل بآرائهم وحكمهم، قريبا من مجد آبائه واجداده، وطاهر ابن الحسين يعلم انه مولى خزاعة، فيشعر بالضعة والصغار والاضطهاد، فاذا به يحاول الانتفاض على هؤلاء الاسياد الجدد الذين هم ليسوا من بني جنسه ولا من بني ديانة اجداده، وهم الذين قضوا على ديانة اجداده وسيادتهم، واضاعوا ملكهم، فاذا به يغضب ويحنق، ويحقد، ويحاول ايجاد متنفس لكل هذا الغضب والحنق والحقد، فلا يجده الا باعلان عدم الولاء للخليفة واقتطاع الاقليم الذي يتولاه. انه الصراع بين السيادتين. ولا يمكن للمرء ان يتخلى عن سيادة اهله واجداده وينضوي تحت سيادة اجنبية.

---

(٣٥) ابن طيفور ابو الفضل احمد الكاتب: بغداد في تاريخ الخلافة العباسية ص٦٤

(٣٦) ابن طيفور: بغداد في تاريخ الخلافة العباسية ص٦٤

والانضواء لا يكون تحت راية الاجنبي الغريب الا خوفا او طمعا او رغبة في التقرب والتودد من اجل المكاسب او المساواة، او التقية باخفاء المآرب الحقيقية والغايات والاهداف التي لا يمكن اعلانها، انما محاولة الوصول اليها بتمرير مسألة او مسائل تنطلي بالظاهر وتعمل في الباطن.

ومن امثال هذه المسائل الظاهرة البراءة، الباطنة الخبث، ما قام به الوزير الفارسي الفضل بن سهل حينما حث المأمون بأخذ البيعة لعلي بن موسى بن جعفر. فهي محاولة لتطليف الجو بين العلويين والهاشميين العباسيين في الظاهر، وتسكين غضب العلويين ووقف معارضتهم للخلافة العباسية، لكن السبب الخفي هو تأجيج الخلاف والصراع بين الهاشميين؛ العلويين والعباسيين. فلاشك ان الهاشميين العباسيين لا يرضون بانتقال الخلافة الى ابناء عمومتهم الهاشميين العلويين، لذلك سرعان ما خلعوا الخليفة المأمون وهو في مرو، وبايعوا عمه ابراهيم بن المهدي، خليفة للمسلمين واميرا للمؤمنين. لأن «المأمون كان قد جد في تجديد العهد لعلي بن موسى بن جعفر، وتقدم الى الفضل بأخذ البيعة على الناس والكتابة الى الاقاليم في ابطال لبس السواد. وكتب الفضل بن سهل الى الحسن بن سهل (اخيه) يعلمه بذلك ويأمره بطرح لبس السواد؛ وان يلبس الخضرة، ويجعل الاعلام .... والقلانس خضراً، ويطالب بذلك، ويكاتب فيه عماله .... ودب الهاشميون بعضهم الى بعض، وخلعوا المأمون، وعقد الامر لابراهيم بن المهدي»(٣٧) وهذه المحاولة اججت الغضب والمعارضة الحادة في بغداد ضد الخليفة، المأمون، الذي سرعان ما شعر بالخطر المحدق، فتراجع عما قام به. وهذا لاشك يدل على ضعف سياسة الخلافة وسياسة الخليفة، ويضعه في موقف حرج جدا، بحيث تشعر الجماهير (الرعية) ان الخليفة ضعيف الرأي، واهي الحجة بحيث لم يقدر على الدفاع عن فكرته او سياسته في العمل الذي قام به، بل لم يتمكن من اقناع

(٣٧) الجهشياري: كتاب الوزراء والكتاب ٢٥٥ ـ ٢٥٦

الرعية فيما بعد ببيان الاسباب التي حدت الى العهد بالخلافة لعلي بن موسى بن جعفر، ولم يتمكن من عرض الاسباب المقنعة فيما بعد لتلك البيعة للعلويين.

فهي اذن محاولة اضعاف السياسة العربية وزعزعة السيادة العربية، وضرب العرب بالعرب بتأجيج الخلافات واصطناعها ايضا، واثارة الفتن والمعارضات، وقد اكتشف ذلك معاصرو الاحداث ومعاصرو الخلفاء انفسهم واولئك الوزراء الذين دبروا تلك الاعمال وحاولوا الوصول الى اهدافهم، فقد «كان المأمون قال للفضل (بن سهل): ينبغي ان تحضر (نعيم بن حازم) فأنه وجه من الوجوه، وله سابقة وجلالة ورياسة، فتناظره فيما اجمعنا من هذا الامر. فاحضره الفضل (بن سهل) بحضرة المأمون وعرفه بما عزم عليه ورغبه فيه، وذكره ما يلزم من الانقياد له، فأبى ذلك (نعيم) وذكر ما كان منه، ومن سلفه في نصرة الدولة الهاشمية، وما وصلوا اليه بها من العز والامن والثروة والجاه وما بلغوه فيها من الحماية وبذل المهجة ومقارعة الاعداء، وانه لا يقبل الضيم ولا يسمح بطاعة من كان يسفك دمه ويدفعه عما يلتمسه ويقارعه دونه. فكلمه الفضل في ذلك، خلط له ليناً بغلظة فقال له (نعيم): انك انما تريد ان تزيل الملك عن بني العباس الى ولد علي، ثم تحتال عليهم، فتصير الملك كسروياً. ولولا انك اردت ذلك لما عدلت عن لبسة علي وولده وهي البياض، الى الخضرة، وهي لباس كسرى والمجوس» (٣٨)

لا توجد صراحة بعد هذه الصراحة في مواجهة المتآمرين بالحقائق الناصعة في ضرب العرب بالعرب، لأضعاف السيادة العربية وتصفية الدولة العربية ونقلها من ثم الى الفرس لاعادة المجد الكسروي الغابر، انتقاماً وثأراً له. ولا يمكن تفسير كل تلك المحاولات بغير التفسير، والجهشياري نفسه حينما يعرض هذه الآراء وهو الممالئ للفرس، المعادي للعرب، انما يعرضها كما كانت، وكما عرفها او سمعها من افواه المعاصرين للاحداث.

سطوة الديالمة البويهيين

في خلافة الراضي وفي حدود سنة ٣٢٢هـ مات مرداويج مقدم الديلم باصبهان الذي كان يعلن انه يريد ان يرد دولة العجم ويمحق دولة العرب. وكان اولاد الصياد بويه الديلمي، وهم احمد وحسن وعلي، يعملون لدى مرداويج.

(٣) الجهشياري: كتاب الوزراء والكتاب ص٢٥٦

فسيطروا على اصبهان واستقلوا بها عن الخلافة العباسية، ثم تقدموا لبغداد، واخذوا ينافسون الاتراك في السيطرة على السلطة، واستضعفوا الخلفاء العباسيين. فخلع عليهم الخليفة المستكفي بالله الخلع والالقاب، فاذا بحسن بن بويه معز الدولة وعلي بن بويه عضد الدولة واحمد بن بويه ركن الدولة.
واستفحل امر هؤلاء الديالمة البويهيين في خلافة المستكفي والمطيع والطائع الذين استوزروا بعضهم وولوا الآخرين الولايات، مثلما ولوا بعد ذلك أولادهم. وحينما استشرى نفوذهم، وتدخلوا في شؤون الخلافة العباسية، أخذوا يخلعون الخلفاء وينصبون غيرهم، ويصادرونهم ويسملون عيونهم ويحجرونهم. وهؤلاء الديالمة البويهيون هم الذين اشاعوا شعيرة السب واللعن على منابر الجوامع، وفرضوا المكوس على المنسوجات القطنية والحريرية، مما اثار احتجاج اهل بغداد، فهددوا بمنع صلاة الجمعة في الجوامع، مما ادى الى تراجع صمصام الدولة البويهي عن قراره هذا. واضافة الى ذلك فأن البويهيين شجعوا على انتشار البدع وشغلوا الناس بالتافه من الالعاب. واول من تمكن من البويهيين من حجر الخلفاء العباسيين هو معز الدولة الذي القى القبض على المستكفي بالله وخلعه من الخلافة وسمل عينيه، وامر الديالمة بنهب داره سنة ٣٣٤هـ. ولم تكن حال الخليفة المطيع لله احسن من حال ابن عمه الخليفة المستكفي بالله، اذ أن سبكتكين حاجب عز الدولة بختيار ابن معز الدولة البويهي، امره بخلع نفسه من الخلافة وتسليمها لأبنه الطائع الذي خلعه بهاء الدولة ابن شرف الدولة البويهي بعد ان امر خواصه بأن يلقوا الخليفة بكساء وينقلوه الى دار بهاء الدولة، ثم حجره في دار الخليفة القاهر بالله الذي بويع بالخلافة سنة ٣٨١هـ.

ومن افعال البويهيين الخبيثة على اهل بغداد، ان عز الدولة بختيار البويهي غضب لمقتل احد الموالي الديالمة فأمر بحرق سوق النحاسين والسماكين، فاحترقت اموال كثيرة واناس كثيرون في الدور والحمامات، بل ان معز الدولة البويهي الذي كان يشجع البدع، هو الذي اطلق سراح رجل وزوجته من

الفرس يدعيان ان روح علي قد حلت في الزوج وروح فاطمة قد حلت في الزوجة. وهو الذي ابتدع النياحة في يوم عاشوراء، والاحتفال بعيد غديرخم. فكانت هذه البدع والتلفيقات التي وضعها الفرس عامة والديالمة البويهيون خاصة، عاملا فعالا في تأجيج الصراع بين العرب والفرس وخلق التناقضات بين الاسلامية والعربية والغلو فيها وحرفها عن طريقها القويم، بقصد الاخلال بالوحدة الدينية والوطنية حتى يقوى نفوذ الفرس ليتمكنوا من السيطرة على مقاليد الحكم، خاصة بعد ان اخذوا يلفقون الانساب العربية لهم ويتسمون باسماء عربية لمشاركة العرب في المنافع والمكاسب والمراتب. وأولاد بويه الثلاثة وصلوا الى درجة الوزارة والولاية بحيث سيطروا على الخليفة ذاته، واجبروا المؤرخين قهراً أواغراءً على وضع كتب اخبار الدولة الديلمية كما فعلوا مع المؤرخ الصابي الذي يعرف تمام المعرفة انه يلفق الاباطيل وينمق الاكاذيب ارضاء للديالمة البويهيين وخوفاً منهم. والبويهيون انفسهم هم الذين قتلوا الخليفة المسترشد بالله في مراغة سنة ٥٢٩هـ [٣٩]

---

(٣٩) ابن مسكويه ابو علي احمد: تجارب الامم ص١٩٣ وابو الفداء: المختصر في تاريخ البشر ص٧٦ - ١٢٧ والسيوطي: تاريخ الخلفاء ص ٣٩٥ - ٤٣٣

الفصل الرابع

التعصب العنصري والصراع

لم يكن صراعاً على تبادل الكراسي، انما كان صراعاً على السيادة، وبدقة، على القضاء على السيادة العربية . . والصراع، بدأ يوم بدأ مجد الحضارة العربية يتألق وافلت شمس الامبراطورية الفارسية المجوسية. ومهما كانت التدخلات الاجنبية تنخر في كيان الدولة العربية، فأنها لم تكن تدخلات شخصية محضة لارضاء المصالح الذاتية وتحقيق المكاسب الفردية، انما كان يكمن وراءها عداء للعرب، ومحاولة القضاء على السيادة العربية وازالة نفوذهم في بلاد فارس واقامة دولة فارسية تحل محل الدولة العربية التي اذلت غرور الفرس الذين شعروا بضآلة موقعهم كما هي سنة البلدان المفتوحة، ويشعر الفاتحون بالاستعلاء مهما كانوا متواضعين. وهذا ما ادى الى زيادة التحفز ضد الدولة العربية ومحاولة ايجاد منافذ وثغرات لضرب هذه القوة المتسلطة عليهم حتى بعد ان دخل الاسلام في قلوب اكثرهم، وظل اقلهم على اديانهم القديمة الوثنية او الثنوية. واستغل الفرس كل الظروف من اجل الوثوب ضد العرب وحاولوا الوقوف مع كل الثوار والمنتفضين، والثورات والانتفاضات مهما كان شكلها وهدفها، لأن المهم هو اضعاف الدولة العربية والسعي لتحطيم هذه القوة المحتمية في رأيهم بالاسلام، الذي حارب دياناتهم القديمة الوثنية أو الثنوية. لذلك نجد الفرس الذين ينحازون دائماً وابداً الى القوة المعارضة لضرب القوة المتسلطة، حتى اذا تمكنوا من النفوذ الى كيان الدولة العربية، وتسللوا الى اجيالهم العربية بالتزاوج، فأنهم وجدوا فرصتهم السانحة في احتضان العلويين الذين استضعفهم العباسيون،

ولم ينصفوهم بأعطائهم ما يستحقون من سلطة ونفوذ في الدولة العربية العباسية حتى: «عد كل من علي ابن ابي طالب» والحسين (بن علي بن ابي طالب) في عداد الشهداء، واعتد الخلفاء الثلاثة الاوائل (كذا!) وبنو امية في عداد مناهضي الدين، ووجدت هذه الفكرة مسنداً لها عند الفرس، وهم قوم شرعوا يتململون من رقدتهم ويقفون بوجه قاهريهم: العرب، والفرس شعب يأخذ بالتفسير الباطني في كل ما ينجم من الحوادث وانهم بذلك يطمئنون كلفهم القومي بكل ما هو غامض، غريب مستورد. وعظم ناموس العلويين في نفوس الفرس لما شاع من ان ام علي (زين العابدين) بن الحسين الذي نجا من مذبحة كربلاء هي بنت آخر ملوك الساسانيين الفرس. ولذلك فأن (الدم الملكي المقدس) القديم يجري في عروقه. ومن هذا الزمن بدأ عهد (الشيعة) بصورة جماعة قوية متميزة كليا عن اهل السنة، اي الذين يأخذون بتعاليم الدين على حسب تسميتهم»(١)

الارستقراطية العربية وحقوقهم

والحقيقة ان هذا الصراع بين الفرس المتحفزين ضد العرب قد بلغ اوجاً عالياً، واشرك فيه أعلى مراتب السلطة، بل وقمتها الوحيدة المتمثلة بالخليفة، وهو الرئيس الاعلى للسلطة.

«ولو ان العرب عاملوا العجم المسلمين معاملة الاكفاء، لعله كان بالامكان صهر الامتين. اما والامور على ما كانت عليه، فقد انشأ العرب لأنفسهم اعداء بينهم. وبدلا من ان يزيل الاسلام الخلاف، زاد فيه(!!)، فقد بعث العجم ومنحهم قوة الطبع، ووضع بين ايديهم سلاحاً ضد اسيادهم. ذلك ان سقوط القوة العربية لم يحصل من اهل ما وراء النهر الذين ظلوا ايرانيين مناوئين للعرب، بل من الخراسانيين الذين اسلموا. وكان الاسلام هو الميدان

(١) رتشارد كوك: بغداد مدينة السلام: ترجمة فؤاد جميل ومصطفى جواد ص٢٥

الذي شرع الخراسانيون النضال فيه ضد اصحابه الاول. وكان الاسلام هو الذي وحد بينهم، وبين من اتبع من العرب مبادىء الحكم الديني، فناهضوا الحكم الاموي. والعرب هم الذين اثاروا الموالي اولا ونظموهم»(٢) وقد كان لهذا الصراع والتفسير الباطني للقرآن الكريم، مردوداً عكسياً على الوضع السياسي للخلافة والوضع الاجتماعي العام، بحيث جرت فتن مذهبية وطائفية دامية كانت المحرك السياسي لعزل الخلفاء، وتنصيب غيرهم، ودخلوا بغداد، وصار لهم نفوذ واسع في الخلافة، اسقطوا الخليفة العربي العباسي المستكفي سنة ٣٣٤هـ بأن خلعه من الخلافة احمد بن بويه (معز الدولة) وامر بسمل عينيه. ولا شك ان مثل هذا النفوذ الاعجمي في الخلافة العربية هو الذي جر الويلات عليها واوصلها الى حضيض السقوط وهاوية الزوال، بعد ان سعر الخلافات بين العرب انفسهم، فقسمهم الى عباسيين وعلويين، فاذا بمعز الدولة بن بويه يخلق بدعة جديدة، ولأول مرة في تاريخ العرب والمسلمين، وذلك انه «في سنة ٣٥٢هـ يوم عاشوراء الزم معز الدولة بن بويه الناس بغلق الاسواق ومنع الطباخين من الطبخ، ونصبوا القباب في الاسواق وعلقوا عليها المسوح، واخرجوا نساء منتشرات الشعور، يلطمن في الشوارع، ويقمن المآتم على الحسين. وهذا اول يوم نيح عليه فيه ببغداد واستمرت هذه البدعة سنين». . «وفي ثامن عشر من ذي الحجة منها، عمل عيد غديرخم وضربت الدبادب»(٣) وامام هذا المد العارم من التعصب والتزمت والابتداع الديني الطائفي المغرض، مما يقود الى استعار الفتن وتوسيع شقة الخلاف بين ابناء الشعب الواحد والامة الواحدة، فأن المستعصم بالله الخليفة العباسي، اضطر سنة ٦٤٨هـ «. . في المحرم تقدم بمنع اهل الكرخ والمختارة من النياحة والانشاد وقراءة مقتل الحسين

(٢) يوليوس ولهاوزن: الدولة العربية وسقوطها ص٣٩٤
(٣) السيوطي: تاريخ الخلفاء ص٤٠١

(ع) خوفاً من تجاوز ذلك الى ما يؤدي الى وقوع الفتنة»(٤)

ان اظهار مثل هذه البدع وفرضها من قبل هؤلاء الاجانب، انما يدل دلالة واضحة على ضعف الخليفة وعدم قدرته على ضبط شؤون الدولة، ولأن حاشيته من وزراء وولاة سياسته، لم يكونوا مدينين له بالطاعة، لأنهم لم يكونوا عرباً، انما كانوا اعاجم يريدون تحقيق اهدافهم القومية وازالة السلطة والسيادة العربيتين، حتى بلغ الأمر انهم وصلوا الى اعلى مراتب السلطة، بينما العرب كانوا بعيدين عن تلك المراتب، اي ان الفرس ثم الغلمان الاتراك كانوا يقومون بعملية الازاحة وملء الفراغ؛ اي انهم يزيحون العناصر العربية، ويملأون بأماكنهم العناصر الاعجمية حتى يتسلطوا على الخلافة والخليفة ومقادير البلاد، فلقد وصل تلك المراتب من السلطة ابو سلمة الخلال وابو مسلم الخراساني في زمن ابي العباس السفاح وابي جعفر المنصور، ويحيى البرمكي في زمن المهدي، وجعفر والفضل ومحمد اولاد يحيى البرمكي في زمن هرون الرشيد وعبدالله بن طاهر، قاتل الامين، ومحمد بن عمرويه صاحب شرطة المقتدر، ووصيف بن صوراتكين وخرطاش ويمن وفاتك والوزير ابو جعفر محمد بن موسى بن الفرات متولي مقاليد فارس وعبدالرحمن بن جعفر الشيرازي (ابو الفضل) ويوسف بن ابي الساج وعبدالله بن جرجويه والوزير ابو علي بن مقله وابو يعقوب اسحق بن اسماعيل النوبختي، وابو الحسن علي بن بويه واخوه ابو علي بن بويه واحمد بن بويه، وتوزن وموسى الخادم وبغا وكيغلغ وابن سنبر وابن شيرزاد وابن العميد وابو القاسم عبدالله الخاقاني ونازوك وابو جعفر بن شيرزاد، وعلي بن يلبق وما كان بن كاكي ومرداويج(٥).

---

(٤) ابن الفوطي ابو الفضل عبدالرزاق: الحوادث الجامعة والتجارب النافعة ص٢٤٨

(٥) السيوطي: تاريخ الخلفاء ص٣٨٤ وص ٣٩٧ وابن مسكويه: تجارب الامم ص١٩٣

هذا غيض من فيض الاسماء الاعجمية التي حفل بها تاريخنا العربي. وهم الذين كانوا صناع القرار السياسي من ناحية والمتسلطين الذين اهانوا الخلفاء وخلعوهم وسملوا عيونهم وقتلوهم. وهذه صورة من صور ذلك الصراع كما يرويها ابن مسكويه اذ يقول: «ولما كان يوم الاثنين لعشر خلون من المحرم دخل مؤنس المظفر والجيش بغداد وعدلوا عن دار السلطان كراهية لمعرة الجند. وظهر عند الناس ظهوراً بيناً وارجفوا ارجافاً قوياً ان نازوك وابا الهيجاء وافقا مؤنساً المظفر على الاستبدال ونصب غيره في الخلافة. فلما كان يوم الاربعاء لأثنتي عشرة ليلة خلت من المحرم، خرج مؤنس الى باب الشماسية دفعة ثانية، وخرج معه ابو الهيجاء ونازوك وبنيّ بن نفيس وجميع القواد والجيش وزحفوا الى دار السلطان»، «ولما زحف القوم باسرهم الى دار السلطان هرب المظفر بن ياقوت وسائر الحجاب والحشم والخدم والوزير ابو علي بن مقلة منها، ودخل مؤنس من باب الزاوية، وحصل الجيش كله في دار السلطان، فلما كان بعد العتمة بساعة، اخرج المقتدر ووالدته وخالته وخواص جواريه من الدار واصعد بهم الى دار مؤنس المظفر، ودخل هرون بن غريب من قطربل سراً الى بغداد واستتر بها»(٦) وفي سنة عشرين وثلاثمائة ركب مؤنس على المقتدر، فلما التقى الجمعان رمى بربري المقتدر بحربة سقط منها الى الارض ثم ذبحه بالسيف، وشيل رأسه على رمح وسلب ما عليه، وبقي مكشوف العورة حتى ستر بالحشيش»(٧).

ويقول ابن مسكويه: «واخرج مؤنس (علي بن عيسى) من الحبس في دار السلطان واطلقه الى منزله واحضر ابا علي بن مقلة وقلده وزارة القاهر بالله، وقلد نازوك الحجبة مضافة الى ما اليه من الشرطة بمدينة السلام، واضاف الى ماكان مما لأبي الهيجاء من اعمال طريق خراسان وحلوان والدينور وطريق سرمن

---

(٦) ابن مسكويه: تجارب الامم ص١٩٢ وص١٩٣

(٧) السيوطي: تاريخ الخلفاء ص٣٨٤

رأى وبرزج سابور والرذانين ودقوقا وخانيجان والموصل واعمال المعادن بهمذان ونهاوند، والصيمرة، والسيروان وما سبذان ومهرجانقذق وارزن»(٨).

ويضيف السيوطي ايضاً فيقول: «ثم ان معز الدولة (ابن بويه) تخيل من المستكفي، فدخل عليه في جمادى الاخرة سنة ٣٣٤هـ فوقف - والناس وقوف على مراتبهم - فتقدم اثنان من الديلم الى الخليفة فمد يديه اليهما ظناً انهما يريدان تقبيلهما، فجذباه من السرير حتى طرحاه الى الارض وجراه بعمامته، وهجم الديلم دار الخلافة الى الحرم، ونهبوها، فلم يبق فيها شيء ومضى معز الدولة الى منزله، وساقوا المستكفي ماشياً اليها، وخلع وسملت عيناه يومئذ»(٩).

استقراطية الفرس ونفوذهم

ان هذا الصراع حتى وان كان صراعاً طبقياً، فأنه كان المفروض ان يتوجه ضد الطبقة المستغلة من العرب والفرس معاً، لكن الصراع المتمثل بالثورات والانتفاضات السياسية او الاقتصادية كانت ضد السلطة والسيادة العربيتين. ودليلنا على ذلك هذا التوجه ضد السيادة العربية العباسية، هو ان التدخل في شؤون الخلافة العباسية بالذات ما كان يأتي من الطبقات المسحوقة، انما كان يأتي من الوزراء: ابو سلمة الخلال وابو مسلم الخراساني والبرامكة وطاهر بن الحسين واولاده وبنو سهل ومؤنس الخادم وبغاويلبق واولاد بويه الديلمي وآل طغرل والاتابكيون. وهؤلاء كلهم من الفرس او السلاجقة الأتراك الذين تزعموا علية القوم من العرب او الفرس. فلو كان الصراع، صراعاً طبقياً، لما ثار هؤلاء وتدخلوا في شؤون الخلافة ولعبوا بالخلفاء وخلعوهم ونصبوا غيرهم وسملوا عيون آخرين وقتلوا من كانوا يحقدون عليهم. ولم يقتصر هذا التعصب والحقد

---

(٨) ابن مسكويه: تجارب الامم ص١٩٣

(٩) السيوطي: تاريخ الخلفاء ص٣٩٧

على الوزراء والامراء الذين كانوا من الخدم والموالي انما امتد الى المثقفين والادباء والشعراء الاعاجم فاصبحوا الجريدة التي ينطق بها كل الحاقدين والمؤججين للصراع، «لهذا طلب الارستقراطيون الايرانيون، او شجعوا هؤلاء المثقفين والمتأدبين، الحط من كرامة العرب القدامى ومكانتهم السابقة، والبحث عن المثالب لدى القبائل العربية في العصر الجاهلي او قبل الاسلام، ووضع القصص وتأليف الحكايات واختلاق الشعر للمس بكرامة الشعب العربي. وكانت الارستقراطية تحمي المثقفين وتدافع عنهم، وتمدهم بالجاه والمال. فعندما الف (علان بن الحسن الوراق) الشعوبي كتاباً في مثالب العرب اغدق عليه طاهر بن الحسين «بثلاثين الف درهم» و «لقد ساهم الخرميون كأفراد، ولم يكن لهم الدور القيادي، لأن الاستياء كان شاملا غالبية سكان البلدان المحتلة(!). فالارستقراطية المحلية، وان تحالفت ـ مؤقتاً ـ مع السادة العرب، الا انها كانت تتضايق من سيطرة السلطة العربية، وتتحين الفرص للانقضاض على الخلافة، في امل استعادة كامل نفوذها السابق، وتوسيع استغلالها للطبقات المستغلة التي دونها» و «لأن التناقض البارز كان بين الشعب المحتل كمجموع وبين السلطة العربية والارستقراطية القبلية العربية»(١٠). فهذا الصراع اذن لم يكن طبقياً من الحالة الاقتصادي، انما كان صراعا اجتماعيا، اي شعور هؤلاء الموالي من الفرس او السلاجقة الاتراك بأنهم اقل شأنا من العرب واقل ثراء وسؤددا، لذلك صارعوا الخلافة العربية على السيادة ذاتها. واضافة الى ذلك فأن الغرور والفخر والاعجاب بالنفس والاستعلاء والكبر قد جاء بها الفرس معهم، سواء حينما دخلوا الاسلام او حينما اصبحوا تحت سلطة الاسلام، وهم غير مؤمنين بالاسلام. وان هذا الغرور الفارسي قد وضح لنا منذ ان قال رستم قائد القوات الفارسية في معارك العراق ومنذ ان صرح كسرى الفرس يزدجرد بأنه لن يقاتل العرب والمسلمين الا برعاة الدجاج والخنازير، وتأكيد عبارات رعاة الدجاج

(١٠) د. حسين قاسم العزيز: البابكية ص٩٤/٩٥

والخنازير، انما تعني انه يحارب اناسا اقل شأنا في السلم الاجتماعي والعنصري وهذا هو التعصب العنصري ضد العرب ، لكنه ايضاً تعصب اجتماعي وطبقي ضد ابناء شعوب فارس حينما يقول ملكهم انه يحارب برعاة الدجاج والخنازير وهم الطبقة المنحطة في مجتمع بلاد فارس. لذلك فنحن نستنتج ان التعصب العنصري موجود لدى الفرس بشكل حاد جداً، وهو موجود قبل الاسلام، وموجود بعد الاسلام، حينما نجد ان الفضل بن يحيى البرمكي يقول ان الناس هم اربع فئات او طبقات: «الاولى ملوك قدمهم الاستحقاق، والثانية وزراء فضلهم الفطنة والرأي، والثالثة علية القوم، انهضهم اليسار ، والرابعة اوساط الحقهم بهم التأدب، والناس بعدهم زبد جفاء، وسيل غثاء، لكع لكاع وربيطة اقضاع، همّ احدهم طعامه ونومه»[11]. ولا شك انه لا يوجد اكثر من هذا التقسيم واخطر منه واشد احتقارا للطبقة الخامسة المسحوقة. ولا شك ايضا ان هذا جاء به هذا الفارسي من تراث قومه الذي كانوا يلهجون بالفخر به والتمجيد بقيمه واعتباراته. ولم يأت بهذا التقسيم، العرب او المسلمون او الامويون كما يحلو للبعض ان يتهم الامويين بالذات بمثل هذا التعصب العنصري. والامويون لم يفرقوا هذه الفرقة لكنهم لم يقربوا (الاعاجم، الموالي من شؤون السياسة لأنهم اعتبروهم يمثلون الرتل الخامس، فلم يتركوا لهم مجالا في شؤون الخلافة، لأنهم لا تهمهم مصلحة البلاد العربية او الاسلامية، ولم تكن الرسالة المحمدية (الاسلام) الرفيعة الافكار والسامية الاهداف وراء هذا التعصب المقيت، ولم تسمح به اصلا. والذين وصلوا الى الخلافة من الامويين بالذات كانوا قريبين في العهد بالنبي محمد (ﷺ) ولصحابته الخلفاء الراشدين الذين كانوا امثلة رائعة في تطبيق المبادىء الاسلامية، فلا شك انهم لم يسيئوا الى الاسلام بافكار التعالي والاستعلاء والفخر والغرور، واستصغار الشعوب وتحقير الطبقات المسحوقة..

---

(١١) ابن الفقيه الهمذاني: مختصر البلدان .

والمفاضلة الموجودة انما هي مفاضلة بين الاسلام وغيره من الاديان، وبين المسلمين انفسهم باداء الفروض والتقوى، والمسلمون «خير امة اخرجت للناس» باعتبار سيادة الاسلام بينهم. فالتعصب العنصري والاستعلاء والاستصغار جاء مع الموالي الاعاجم من الفرس والغلمان الاتراك لأنهم كانوا يشعرون بعدم مساواتهم بالعرب. وهذا من حق كل شعب في عدم اتاحته الفرصة للاجانب للصعود الى المراتب العليا من السلطة، لأنهم بالتأكيد سيعملون على قلب السلطة لصالحهم، لأنهم الممثلون للرتل الخامس الذي ينشط باعمال التخريب من الداخل. وهذا هو الذي آلت اليه الخلافة العربية العباسية بعد ان نفذ الاعاجم الى مؤسسات الدولة ومناصب السلطة، فاخذوا يتدخلون في شؤونها ما شاء لهم التدخل، وافسدوا فيها ما شاء لهم الفساد والافساد. وهم الذين ساعدوا عن قصد وتعمد في اسقاط الخلافة العباسية وازالة السيادة العربية، بأن نخروا هيكلها من الداخل، وتآمروا عليها مع الاعداء من الخارج، والذين اقتطعوا اجزاء من الدولة العربية او استقلوا بها، لم يكونوا بعيدين عن هذا الصراع، ولم يكونوا بعيدين عن فكرة رفض السيادة العربية واعادة امجاد اممهم وشعوبهم، حتى بعد ان دخلوا الاسلام، والاسلام الذي آمنوا به يدعو الى نبذ الخلافات والمنازعات او الاقتتال او الحروب او وثوب دولة ضد دولة او تسلط شعب على شعب، انما الاسلام يدعو الى السلام «وان طائفتان من المؤمنين اقتتلوا فاصلحوا بينهما، فأن بغت احداهما على الأخرى، فقاتلوا التي تبغي حتى تفيء الى امر الله»[١٢].

ولقد اعترف المستشرقون والمستعربون والكتاب المعاصرون، واستقراء لاحداث التاريخ وكتب التاريخ ايضاً، ان جميع الحركات الثورية والانتفاضات والثورات التي حدثت بشكل خاص في ايام الدولة العربية العباسية، ما كانت الا بدوافع غير اقتصادية، انما بدوافع قومية عنصرية، وبدوافع دينية غير

---

(١٢) القرآن الكريم: سورة الحجرات.

اسلامية. ولم يكن الدافع الاقتصادي الا ستاراً وحجةً يحتج بها الثوار وقادة الثورات والانتفاضات الذين كانوا يكنون التعصب والتعرض بل والحقد ضد العناصر العربية والدولة العربية، لأنها عربية. ومع ان الاسلام جاء بفكرة المساواة، الا ان الاعاجم ظلوا لا يؤمنون بهذه التسوية او المساواة، وصار العامل الاقتصادي سبباً مباشراً ليس الا، اما السبب الخفي الباطني، فهو اعادة المجد الكسروي، واستقلال بلاد فارس عن الدولة العربية، بل واسقاط الدولة العربية العباسية وازالة السيادة العربية كلاً لا جزءً، حتى لو كان ذلك دحضاً ورفضاً للاسلام بمختلف البدع، والترهات التي لا تلتقي بجوهر الدين، انما تعتبر نقضاً للدين الاسلامي. ولقد كانت اكبر الثورات التي جابهت الدولة العباسية هي الثورة البابكية (الخرمية) التي قادها بابك الخرمي. وقد استقرأ التاريخ كما نقول ايضا المؤرخون والمستشرقون، فقال د. حسين قاسم العزيز ان بابك الخرمي ارتد عن الاسلام وتشبع بفكره ومعتقده الديني بالمزدكية، ولا تهمنا الجوانب الاخرى الاخلاقية او الاباحية، ان صحت او ان كذبت لأن المهم لدينا، هو ان الدعوة البابكية والثورة البابكية لم تكن ثورة الفقراء، ولا ثورة كادحين مسحوقين انما ثورة مناهضة للدولة العربية، ومحاولة انفصالية ورفض السيادة العربية، والاستقلال بفارس عن الدولة العربية العباسية، واعادة مجد الاكاسرة الفرس وتقويض الدولة العربية الاسلامية[١٣].

ان بلاد فارس بضمنها خراسان والري وكرمان وقزوين وما وراء النهر، اصطدمت بالاسلام. هذا الدين الجديد الذي جاء به نبي عربي كان قومه الى فترة وجيزة تحت السيطرة الفارسية عامة، واكثر البقاع العربية كانت اما تحت السيطرة الفارسية واما مهددة بالغزو والاقتحام بين فترة واخرى. ولا شك ان الرسالة المحمدية التي رفعت من شأن العرب ووحدتهم في كتلة واحدة او شعب واحد سياسياً وفكرياً وجغرافياً، جعلت الرسالة المحمدية ذاتها العرب يشعرون

---

(١٣) د. حسين قاسم العزيز؛ البابكية ص٢٤٠

بقوتهم وعزتهم وسؤددهم السياسي والقومي ايضاً، فاتاح لهم الفرصة لتأكيد الذات. والرسالة المحمدية جديدة في كل قيمها، وتقدمية مستقبلية في كل اهدافها، لأنه دين الوحدانية، الذي سجل طفرة فكرية بين الاديان لا يمكن قياسها بالعبادات الوثنية او الثنوية (الاثنينية) او المانوية. لأن هذه الاديان، لكونها غير موحدة، انما هي تعددية الآلهة وليست تجريدية محضة كالدين الاسلامي. لأن الله في الاسلام هو كائن غير عادي، مجرد، لا تدركه الابصار والحواس، انما تدركه العقول. فلا شك ان مثل هذه القوة الخارقة لكل قوانين الطبيعة المنظورة قد خلقت من المجتمع العربي قوة سياسية واجتماعية متماسكة، تحدت بها كل قوانين المجتمعات وسارت في فتوحاتها العظيمة ودخلت جميع الاقطار التي تمكنت منها حسب القوانين الاجتماعية لتكوين الدولة ونموها وتطورها وضعفها واضمحلالها. لكن الفرس بالذات امام هذه القوة الاجتماعية الجبارة.. وامام الرسالة المحمدية العظيمة، شعروا انهم غرباء عن هؤلاء القوم الذي يحملون هذه الرسالة؛ وحتى بعد ان دخل اكثر الفرس في الاسلام، فأنهم ظلوا يتذكرون ماضيهم الذي يعتبرونه من المع العصور التي يفخرون ويتفاخرون بها على العرب، واحيانا على المسلمين حملة رسالة الاسلام الرفيعة الافكار والسامية الاهداف. وقد لا نجانف الحقيقة اذا قلنا ان الاسلام لم يدخل قلوبهم صادقين، بل انهم لم يحسوا بتعاطف صميم مع هذه الرسالة الهادية لأن الكثير من ابناء بلاد الفرس سواء كانوا في الري او خراسان او الديلم او ما وراء النهر ظلوا يحتفلون باعيادهم القومية الفارسية ويمجدون ايامهم الكسروية، ونقلوا بعضها الى بعض الاقطار العربية. وقد انحاز الكثير من هؤلاء الفرس الى الحركات المناهضة للدولة العربية الاسلامية سواء كانت اموية او عباسية بل ان هؤلاء الفرس، المسلمون منهم وغير المسلمين، هم الذين ادخلوا الكثير من البدع على الاسلام، وايدوا الحركات الثورية والمعارضة والمناهضة للسيادة العربية. وهم الذين دخلوا اكثر تلك الحركات الثورية وشجعوها على الانتفاض

ضد الدولة العربية، لكن بغطاء ديني اسلامي. فهم الذين خلقوا الاساطير حول ابي مسلم الخراساني الى حد التأليه، وانحرفوابالفرق الاسلامية الى حد الغلو، كالاسماعيلية، والكيسانية[14] وغيرهما، فما حدوا بها عن خطها الاسلامي الصحيح، وغالوا في التشيع الكاذب الى البيت العلوي، وخالفوا الشيعة الحقيقيين المنحدرين من السلالة العلوية، ويختلقون أئمة غير متفق على أمامتهم. فتمكن هؤلاء الفرس بهذه البدع وهذه الاختلاقات من الدس على الاسلام وعلى العربي للوقوف ضد الخلافة العربية. وقد ظل العديد من المقاطعات، او الاقاليم الفارسية بعيداً عن الاسلام، ولم يدخلوا فيه، وان دخلوا فيه، فتقيته او تقرباً او خوفاً او طمعاً او تربصاً او تشبهاً بالعرب. وقد انتمى الكثير منهم بالولاء الى القبائل العربية، وضيعوا أنسابهم الحقيقية وابرزوا النسب العربي. وكمثال على ذلك نرى ان اهل الديلم لم يدخلوا الاسلام الا في القرن الثالث الهجري وبحدود سنة (٢٥٠)هـ، اي بعد ظهور الاسلام بحدود (٢٧٠) سنة، وبعد انتشاره في بلاد فارس بـ (٢٤٠) سنة. فهذا يعني ولا شك ان الاسلام لم يلق لديهم الحفاوة اللائقة به، حتى بعد ان تصاهروا مع العرب والمسلمين.

واضافة الى كل ذلك، فأن هؤلاء الاعاجم وبالاخص الفرس، كانوا يشعرون بالضعة امام العرب الاسياد الذين سيطروا على بلادهم وازالوا دولتهم ودكوا ملكهم، فأخذوا يشعرون بالحنق والحقد ضدهم، ويحاولون التعالي عليهم والفخر والاعتزاز بماضيهم واصلهم وحضارتهم والسؤدد الكسروي الزائل. «لهذا طلب الارستقراطيون الايرانيون، او شجعوا هؤلاء المثقفين والمتأدبين الى الحط من كرامة العرب القدامى، ومكانتهم السابقة والبحث عن

---

(١٤) الاسماعيلية: فرقة باطنية من غلاة الشيعة الاثني عشرية تقول بأمامة اسماعيل بن جعفر الصادق، وهم يؤلهون الأئمة ويعصمونهم عن الخطأ، وقد ظهرت في بلاد الفرس منذ بدايتها، ووقفوا ضد اللغة العربية، ومن الاسماعيلية القرامطة والفاطميون في المغرب ومصر ايام المماليك.

المثالب لدى القبائل العربية في العصر الجاهلي قبل الاسلام، ووضع القصص وتأليف الحكايات واختلاق الشعر للمس بكرامة الشعب العربي. وكانت الارستقراطية تحمي المثقفين وتدافع عنهم وتمدهم بالجاه والمال.. وعندئذ الف (علان بن الحسن الوراق) الشعوبي كتابا في مثالب العرب اغدق عليه طاهر بن الحسين بثلاثين الف درهم» و «لقد ساهم الخرميون كافراد، ولم يكن لهم الدور القيادي لأن الاشياء كان شاملا غالبية سكان البلدان المحتلة. فالارستقراطية المحلية، وان تحالفت ـ مؤقتا ـ مع السادة العرب، الا انها كانت تتضايق من سيطرة السلطة العربية، وتتحين الفرص للانقضاض على الخلافة، في امل استعادة كامل نفوذها السابق وتوسيع استغلالها للطبقات المستغلة التي دونها».

وقد درس بندلي جوزي عددا من الحركات الاسلامية فقال عن البابكية «ان الغاية الكبرى من هذه المؤامرة هي سحق السلطة العربية في تلك البلاد، والقضاء على الاسلام واهله»، وأدى تقريب الارستقراطية الايرانية.. الى تسعير اوار الحقد وكراهية الدولة العربية. وقد وقف الكثير من الساسة الفرس المتجلبين باللباس العربي والمستبطنين الفكر الفارسي وكذلك الادباء والشعراء الذين كانوا يفخرون بأصولهم الفارسية على العرب ويحطون من شأن العرب ويحقرونهم. وقد بلغ ذلك حداً بحيث كانوا يتجاهرون به في المجالس والدواوين ثم دونوه في كتبهم ودوانيهم الشعرية :

يقول بشار بن برد ...

هل من رسول مخبر ... عني جميع العرب
من كان حياً منهم ... ومن ثوى في الترب
بأنني ذو حسب ... عال على ذي الحسب
جدي الذي اسمو به ... كسرى وساسان ابي
وقيصر خالي اذا ... عددت يوماً نسبي

كم لي، وكم لي من اب   بتاجه معتصب
يسعى اليها نيق له   بآنيات الذهب
لم يسق اقطاب سقا   يشربها في العلب
ولا حدا قط ابي   خلف بعير اجرب
انا ملوكاً لم نزل   في سالفات الحقب
نحن جلبنا الخيل من   بلخ بغير الكذب
حتى اذا ما دوخت   بالشام ارض الصلب
سرنا الى مصر بها   في جحفل ذي لجب
نحن ذوو التيجان والـ   ـملك الاشم الاغلب

* * *

ويقول بشار بن برد ايضًا :

خليلي لاانام على اقتسار   ولا آبي على مولى وجار
سأخبر فاخر الاعراب عني   وعنه حين تأذن بالفخار
انا ابن الاكرمين اباً واماً   تنازعني المرازب من طخار
اذا انقلب الزمان علا بعبد   وسفل بالبطاريق الكبار
ملكناكم فغطينا عليكم   ولم ننصبكم عرضاً لزار
احين كسيت بعد العري خزاً   ونادمت الكرام على العقار
تفاخر يابن راعية وراع   بني الاحرار؟ حسبك من خسار
وكنت اذا ظمئت الى قراع   شركت الكلب في ولغ الاطار
تريد بخطبة كسر الموالي   وينسيك المكارم صيد فار
وتغدو للقنافذ تدريها   ولم تعقل بدراج الديار
مقامك بيننا دنس علينا   فليتك غائب في حر نار
وفخرك بين خنزير وكلب   على مثلي من الحدث الكبار

وهذه القصيدة لاشك هجاء لأحد الأشخاص، لكنه كان هجاءً مراً مقذعاً وعاماً شاملاً لقوم المهجو، يعرض بهم ويحقرهم، والشاعر يدرك ما يقول، فهي ليست من فلتات اللسان، انما هي من صادق العقيدة والايمان بما يريد ان يقول .

اما ابو نؤاس فيقول في عصبيته الفارسية واحتقار العربية .

عاج الشقي على رسم يسائله ... وعجت اسأل عن خمارة البلد
يبكي على طلل الماضين من اسد ... لا در درك قل لي من بنو اسد
ومن تميم ومن قيس ولفهمو ... ليس الاعاريب عند الله من احد
لا جف دمع الذي يبكي على هجر ... ولا صفا قلب من يصفو الى وتد
كم بين ناعت خمر في دساكرها ... وبين باك على نؤي ومنتضد
دع ذا عدمتك واشربها معتقة ... صفراء تفرق بين الروح والجسد

. انه يتهكم من بني اسد وتميم وقيس وكل العرب . . ويقول ايضا في قصيد اخرى :

قل لمن يبكي على رسم درس ... زا[illegible] عمر لو كان جلس
تصف الربع ومن كان به ... مثل سلمى ولبينى وخنس
اترك الربع وسلمى جانبا ... واصطحب كرخية مثل القبس

. . ثم يقول من قصيدة اخرى مفتخراً بفارسيته

تراث ابي ساسان كسرى ولم تكن
مواريث ما ابقت تميم ولا بكر

.. وهو الذي يقول ايضاً :

بنينا على كسرى سماء مدامة
مكللة حافاتها بنجوم
فلورد في كسرى بن ساسان روحه
اذاً لاصطفاني قبل كل نديم

ويقول كذلك :

دع الرسم الذي دثرا — يعاني الريح والمطرا
وكن رجلا اضاع العمـ — ـر في اللذات والخطرا
الم تر ما بنى كسرى — وسابور لمن غبرا
منازه بين دجلة والفـ — ـرات تفيأت شجرا
بأرض باعد الرحمـ — ـن عنها الطلح والعشرا
ولم يجعل مصا يدها — يرابيعاً ولا وحرا
ولكن خود غزلان — تراعى بالملا بقرا

.. ويقول ايضاً ساخراً من العرب :

يا ساحر الطرف انت الدهر وسنان — سر القلوب لدى عينيك اعلان
غاد المدام وأن كانت محرمة — فللكبائر عند الله غفران
كانت على عهد نوح في سفينته — ومن حر شحنتها والارض طوفان
فلم تزل تعجم الدنيا وتعجبها — حتى تخيرها بالخبء دهقان
فشأنها في مغار الارض فاختلفت — على الدفينة ازمان وازمان
بيلدة لم تصل كلب بها طنباً — الى خباء ولا عبس وذبيان

ليست لذهل ولا شيبانها وطناً لكنها لبني الاحرار اوطان
ارض بها قد بنى كسرى دساكره فما بها من بني الرعناء انسان
وما بها من هشيم العرب عرفجة ولا بها من غذاء العرب حطبان

.. وبعد ان يحتقر ابو نؤاس حتى الارض العربية، تراه يقول :

دع الاطلال تسقيها الجنوب وتبكي عهد جدتها الخطوب
وخل لراكب الوجناء ارضاً تخث بها النجيبة والنجيب

ولا تأخذ على الاغراب لهواً ولا عيشاً فعيشهم جديب
ذر الالبان يشربها اناس رقيق الحال عندهم غريب
بارض نبتها عشر وطلح واكثر صيدها ضبع وذيب
اذا راب الحليب فبل عليه ولا تحراج فما ذاك ريب
واطيب منه صافية شمول يطوف بكأسها ساق اريب
يمد بها اليك يداً غلام اغن كأنه رشأ ربيب
فهذا العيش لا خيم البوادي وهذا العيش لا اللبن الحليب
فأين البدو من ايوان كسرى واين من الميادين الزروب

.. ان كان ابو نؤاس يتحدث عن مجونه، فهذا شأنه الخاص، لكن ان يتنكر للقوم الذين آووه وربوه وعلموه وثقفوه، ثم يهجوهم فهذا شأننا نحن، فليشرب ما يشاء من صهباء صفراء، لكن لا يشتم ارضنا واخبيتنا وخيامنا وبوادينا ..

.. ونقرأ لنكرة عرف بالخريمي يفتخر بلسان عربي بالفرس؛

وناديت من مرو وبلخ فوارساً لهم حسب في الاكرمين حسيب
فيا حسرتا! لا دار قومي قريبة فيكثر منهم ناصري ويطيب
وان ابي ساسان كسرى بن هرمز وخاقان لي لو تعلمين نسيب
ملكنا رقاب الناس في الشرق كله لنا تابع طوع القياد جنيب
نسوسكمو خسفاً ونقضي عليكم بما شاء منا مخطىء ويصيب
فلما اتى الاسلام وانشرقت له صدور به نحو الانام تنيب
تبعنا رسول الله حتى كأنما سماء علينا بالرجال تصوب

وهذا نكرة اخرى عرف بالمتوكلي، واسمه ابراهيم بن ممشاذ الاصفهاني:

انا ابن الاكارم من نسل جم وحارث ارث ملوك العجم
ومحي الذي باد من عزهم وعفى عليه طوال القدم
وطالب اوثارهم جهرة فمن نام عن حقهم لم انم
معي علم (الكابيان) الذي به ارتجي ان اسود الامم
فقل لبني هاشم اجمعين هلموا الى الخلع قبل الندم
ملكناكم عنوة بالرماح طعناً وضرباً بسيف خذم
واولا كم الملك اباؤنا فما ان وفيتم بشكر النعم
فعودوا الى ارضكم بالحجاز لأكل الضباب ورعي الغنم
فأني ساعلو سرير الملوك بحد الحسام وحرف القلم

.. ومهيار الديلمي احد ابناء الديلم الذين لم يدخلوا الاسلام الا بعد منتصف

القرن الثالث الهجري، اي في ايام نزوح ابناء بويه الديالمة من الديلم الى العراق وتمكنوا من الوصول الى اعلى مراتب السلطة فيقول:

اعجبت بي بين نادي قومها ... ام سعد فمضت تسأل بي
سرها ما علمت من خلقي ... فارادت علمها ما حسبي
لا تخالي نسباً يخفضني ... انا من يرضيك عند النسب
قومي استولوا على الدهر فتى ... ومشوا فوق رؤوس الحقب
عمموا بالشمس هاماتهم ... وبنوا ابياتهم بالشهب
وابي كسرى علا ايوانه ... اين في الناس اب مثل ابي
قد قبست المجد عن خير اب ... وقبست الدين من خير نبي
وضممت الفخر من اطرافه ... سؤدد الفرس ودين العرب

.. الفارس المسلم لا يفخر باجداده الثنويين او المجوس الذي كانوا يعبدون الهين.. وان كان هذا شعر مهيار الديلمي المسلم، فلنقرأ لمهيار الديلمي المجوسي:

اتعلمين يا ابنة الاعاجم ... كم لأخيك في الهوى من لائم
وهو مع المجد على سبيله ... ماض مضاء المشرفي الصارم
متمثلا ما سنه آباؤه ... ان الشبول شبه الضراغم
من ايكة مذ غرستها فارس ... مالان غمزاً فرغها لعاجم
من فرس الباطل بالحق ومن ... ارغم للمظلوم انف الظالم
الا بنو ساسان او جدودهم ... طراً نجوافيهم او بالقوادم
لا غرو والدنيا بهم طابت اذا ... لم تحل فيها بعدهم لطاعم

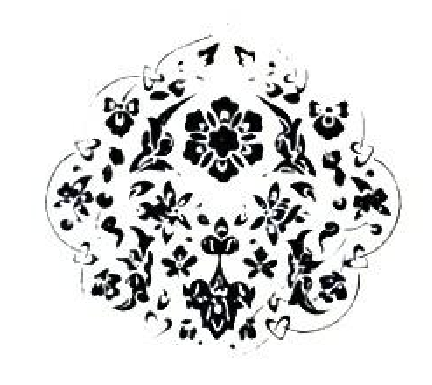
مـا اختـصـمتـني فـيـهـم قـبـيـلة — الا وكـنـت غـصـة المخـاصـم
يـا نـاحـلـي مجـدهـم انفـسـهـم — هبـوا فللأضغـاث عـين حـالم
شتـان رأس يفـخـر التـاج بـه — وارؤوس تـفـخـر بـالـعـمائم

.. ومن شاء ان يطلع على ما فعل الشعوبيون من اعاجم الفرس بالتراث العربي، وتشويه التاريخ العربي وصفات ابناء الامة العربية، فليقرأ ما كتب ابن النديم البغدادي في الفهرست، والجاحظ في البيان والتبين عن (ابان بن عبدالحميد بن لاحق بن عفير الرقاشي) صاحب كتاب (سيرة اردشير) وخلف بن حيان (ابو محرز) راوية الشعر العربي ومنتحله، وسعيد بن حميد بن البختكان (ابو عثمان)، وحماد الراوية (ابو القاسم حماد بن سابور بن المبارك بن عبيد) وعلان بن الحسن الشعوبي الوراق، ومعمر بن المثنى (ابو عبيدة) صاحب كتاب ادعياء العرب ولصوص العرب وفضائل الفرس، والهيثم بن عدي الثعلبي (ابو عبدالرحمن) صاحب كتاب بغايا قريش والمثالب. وسهل بن هرون بن رامنوي الدستميساني.

ارستقراطية التركمان ومصالحهم

لا يختلف التركمان عن الاعاجم الفرس، في وقوفهم ضد الدولة العربية العباسية، اذ ان نفوذهم بدأ يقوى، حينما وصل الخليفة المعتصم الى الخلافة. ولما كانت ام المعتصم من اصل التركمان السلاجقة، فأن المعتصم اخذ يقرب اخواله السلاجقة التركمان، فدخلوا قصر الخلافة بصفة الغلمان رجالا، والجواري نساء، وبدأ نفوذهم يقوى شيئا فشيئا، منافسة للفرس، الذين كانوا يسيطرون على قصور الخلفاء والوزراء والامراء بعد خلافة المعتصم، فصاروا

كتاباً وامراء جند وفقهاء وقضاة. وقد تجلى الصراع بينهم وبين الفرس، وبين الاثنين ضد العرب، بعد ان نال الغلمان الأتراك ما صبوا اليه، فحفلت قصور الخلفاء ودور الامراء بالجواري المغنيات والغلمان والخدم، وحفلت دوائر الدولة بالموظفين وامراء الجند، فتسلطوا وتغلغل نفوذهم مثلما كان دور الاعاجم الفرس. فاشتد الصراع، وصار صراعا ثلاثياً وبدأت الفؤوس الفارسية والتركمانية تنهال على شجرة السيادة العربية، تحاول قطع جذورها وتحطيمها بتلك الفؤوس الحادة والمشحوذة. وقد كان للافشين دور فعال في الخلافة العربية العباسية، حتى وصل الى رتبة امير امراء الجند، كما وصل سميه مؤنس الخادم وبغا ورائق ويلبق وغيرهم. وقاموا بالأفاعيل ضد الخلفاء العباسيين الى درجة انهم كانوا يخلعون الخلفاء ويعزلونهم وينصبون بدلهم خلفاء آخرين بمشيئتهم الخاصة، ودون ادنى اعتبار وتقدير للرعاية التي نالوها من العرب والخلفاء العباسيين.



الفصل الخامس

وضع الدولة العربية السياسي والديني

بدأ الزحف المغولي التتري من الشرق، باتجاه الغرب. وكان ذلك منذ ان ظهر جنكيز خان.. واستمر هذا الزحف بعده، حتى وصل الى حفيدههولاكو. وقد استمر هذا الزحف حتى قضم المغول اطراف الدولة العربية العباسية فاحتلوا ما وراء النهر وجعلوا قاعدتهم في همذان، بينما كان الخلفاء العباسيون لاهين عن هذا الزحف، بل وصل بهم الامر الى حد ان صاروا يصانعونهم ويتملقونهم بتقديم الهدايا والاموال ليكفوا شرهم. وقد انتبه الخليفة العباسي المستنصر بالله الى هذا الامر،فبالرغم من كونه كان يصانعهم ويهاديهم الا انه ايضا قام بتكثير جنده، حتى وصل عددهم الى مائة وعشرين الف جندي، تحسباً لكل طارىء من هذا الزحف المغولي التتري. ومع ذلك فأن الخليفة العباسي يعلم ان هولاكو صار سلطاناً وعاصمته همذان، وهو يهدد القلاع التي كانت تحت سلطة وسيادة الدولة العباسية، سواء قلاعاً عربية او فارسية اسلامية، او فارسية مجوسية او اسماعيلية او ملاحدة، المهم انها اجزاء من الدولة العربية العباسية، وان هولاكو يترصد للزحف اليها. ولكن قبل ان نتحدث عن هذا الزحف، لابد لنا من معرفة هذا الهولاكو الهمجي المتشرد السفاح، الذي اعلن نفسه سلطاناً لبلاد المغول والتتر والصين وما وراء النهر.

ان هولاكو هو الابن الرابع لتولوي (او تولي) الابن الرابع لجنكيز خان، وامه هي (سيورقوقيتي) ابنة (جاكمبو) اخي (اونك) ملك اقوام (كرايت). وكان لهولاكو، نساء وسرار كثيرات، منهن المشهورات اللائي

وصلن اليه عن ابيه بحكم الياسا (القانون) او اللائي تزوجهن بنفسه. وها نحن نفصل اسماءهن: فأن امرأته العظمى (دوقوز خاتون) من الاصل العريق لقبيلة (كرايت) وهي ابنة (ايقو بن اونك). ولما كانت زوجة ابيه، فأنها كانت مفضلة على نسائهم الاخريات (كان من عادة المغول ولا سيما الامراء، انه اذ مات احدهم اصبحت زوجاته ميراثا لابنه الاكبر الذي يصبح له عليهن سلطة مطلقة فيتزوج منهن من يشاء باستثناء امه، ويطرد منهن من يشاء او يزوجهن من الآخرين، ورغم انه تزوج منهن قبلها، ولم يتخذها زوجة له، الا بعد ان عبر نهر جيحون، ولم يكن تولوي (تولي) قد دخل بها. وكانت (دوقوز خاتون) تتمتع بمنزلة كبيرة كما كانت قوية الشخصية وكانت تدين بالمسيحية. وزوجته الاخرى هي (كويك خاتون) من اصل اقوام (الاويرات) وهي ابنة (ثورالجي كوركان) وامها ابنة (جنكيزخان) التي تدعى (جيجكان). وزوجته الاخرى هي (اولجاي خاتون) ابنة (تورالجي)، واخرى هي (قوتوي خاتون) من اصل ملوك اقوام (القنقرات)، واخرى هي (اولجاي) ابنة (تورالجي كوركان) من اصل ملوك اقوام (الاويرات)، وزوجته السادسة هي (سونجين خاتون) من قوم (سلدوس). وعنده زوجات اخريات هن (بورقجين) و (بوقاجين) و(اريقان) و (اجوجه ايكاجي) و (هسيجين) و (ايل ايكاجي).

وكان لهولاكو اربعة عشر ولداً وسبع بنات هم:

١ ـ اباقا خان، ٢ ـ جومقور ٣ ـ يشموت ٤ ـ بيكين ٥ ـ طرغاي ٦ ـ توسين ٧ ـ احمد ٨ ـ اجاي، ٩ ـ قونقرتاي ١٠ ـ ييسودار ١١ ـ منكوتيمور ١٢ ـ هولاجو ١٣ ـ سياوجي (شيباوجي) ١٤ ـ طغاي تيمور.

.. اما بناته فهن:

١ ـ بولوقان آقا ٢ ـ حمي ٣ ـ منكوكان ٤ ـ توداكاج ٥ ـ طرقاي ٦ ـ قوتلقان ٧ ـ بابا[1]

---

(١) رشيد الدين فضل الله الهمذاني: جامع التواريخ ، ج١ ص٢١٩ ـ ٢٣١

اما قوم المغول فقد وصفهم جلال الدين السيوطي فقال: «.. وهـذه الامة لغتهم مشوبة بلغة الهند لأنهم في جوارهم، وبينهم وبين مكة اربعة اشهر، وهم بالنسبة الى الترك عراض الوجوه، واسعو الصدور خفاف الاعجاز، صغار الاطراف، سمر الالون، سريعو الحركة في الجسم والرأي، تصل اليهم الامم ولا تصل اخبارهم الى الامم، وقلما يقدر جاسوس ان يتمكن منهم، لأن الغريب لا يتشبه بهم. واذا ارادوا جهة كتموا امرهم، ونهضوا دفعة واحدة، فلا يعلم بهم اهل البلد، حتى يدخلوه، ولا عسكر حتى يخالطوه فلهذا تفسد على الناس وجوه الحيل، وتضيق طرق الهرب، ونساؤهم يقاتلن كرجالهم، والغالب على سلاحهم النشاب، واكلهم اي لحم وجد، وليس في قتلهم استثناء ولا ابقاء، يقتلون الرجال والنساء، والاطفال، وكان قصدهم افناء النوع وابادة العالم، لا قصد الملك والمال»[٢].

ان هدف المغول وهولاكو في زحفهم، لم يكن حضاريا لأنهم لا يرغبون حتى في الاستعمار بقصد السكن، والاستيطان، لكنهم كانوا قوماً اجلافاً غزاة سفاكي دماء يحبون الهدم والتخريب، ولا يحبون البناء والتعمير، وقد ظهر عليهم ذلك، لما شاهد أو سمع المؤرخون عنهم، فهم قوم يهاجمون؛يخربون ويدمرون ثم ينسحبون، ويتراجعون الى مواطنهم. وهذا ما فعله جنكيزخان قبل حفيده هولاكو، وهذا ما فعله ايضا هولاكو في هجومه على ما وراء النهر ثم خراسان وكرمان وقزوين وقلاع الاسماعيلية الخمسين، وقلعة آلموت والموصل وحلب وميافارقين وداقوق، ثم بغداد، وحلب ثانية وميافارقين، حتى ارتدوا ارتداداً شنيعاً، بقيام الدولة الصفوية في ايران، ثم قيام الدولة العثمانية، في الاناضول، وبدء الصراع بين الصفويين الايرانيين والعثمانيين الاتراك، فتقوقع المغول بعد ان انزووا في مقاطعاتهم المغولية التترية في اواسط آسيا.

---

(٢) السيوطي: تاريخ الخلفاء ص٤٦٧

انقسام الدولة ـ التمزق السياسي

بدأ الضعف يدب في هيكل الخلافة العربية العباسية، بعد وفاة الخليفة المأمون. لكن خلافة المأمون بالذات، تعتبر نقطة تحول في سياسة الدولة (الخلافة) العباسية، وذلك لأن الصراع احتدم احتداماً دموياً بين الاميرين الأخوين، وذلك للخطأ الذي ارتكبه الخليفة هرون الرشيد في تردده في ولاية العهد. ونظراً لشدة الصراع العربي ـ الفارسي الذي تجلى في سيطرة البرامكة ثم نكبتهم حتى جر هذا الصراع الى الافتراء على الخليفة والخلافة واهل الخليفة والعرب اجمعين، والدس اللئيم على ابناء الامة العربية من اجل تهشيم سمعة العرب بصورة عامة وهيبة الخليفة والخلافة العربية الاسلامية بصورة خاصة. وربما زاد في تسعير هذا الصراع هو بقاء النفس الفارسي في عموم مرافق الدولة. بحيث ان العناصر الفارسية كان يسرها ان يقع الخلاف، ويشتد ويدمى بين الاخوين الامين والمأمون. وربما يكون الفرس هم الذين اوحواللخليفة هرون الرشيد بأن يقسم الدولة بين الاخوين الأمين والمأمون. وهذا التقسيم بالتأكيد اثار الحسد وجر الويلات على الدولة وعلى الأميرين الأخوين حتى انتهى الأمر الى مقتل الامين. وبالفعل ما ان تجلت الامور السياسية في الدولة حتى بدأ الصراع بين الأميرين الأخوين الذي سعر اوراه ونفد المآرب الدفينة فيه طاهر بن الحسين بقتل الامين على غير ما اراد الاخ الاصغر المأمون الذي اصبح الخليفة الشرعي. ولا شك ان المعتصم لما كثر الجند من السلاجقة، استاء منه اهل بغداد، واستاءت الحاشية من الوزراء والكتاب والقضاة والفقهاء، لأن الفرس وجدوا ان ظهور السلاجقة يؤدي الى تقليل نفوذهم، كما ان العرب وجدوا ان ظهور السلاجقة زاد من شدة الصراع وكثّر من عدده، فاضطر عند هذا المعتصم الى الخروج من بغداد، قوياً بدولته المعافاة الى سامراء لكنها بعد ان رجعت ثانية الى بغداد كانت مريضة.

وهكذا صار الصراع على الخلافة ثلاثياً بعد ان كان ثنائياً، فبعد ان كان بين العرب ـ والفرس صار بين العرب ـ الفرس ـ السلاجقة، واستطال الاعاجم الفرس والغلمان السلاجقة، بعد ان تولوا قيادات مهمة في مرافق الخلافة، فأخذوا ينازعون الخليفة في سلطة حتى اقتسموا دولته ونازعوه فيها واستقلوا باجزائها، فاستمرت الخلافة على هذه الحال من التقسيم والاستقلال حتى تجزأت تجزئة منقطعة النظير وتمزقت تمزقاً هو الشر المستطير. وصارت اشتاتاً لا تنضوي تحت راية واحدة، انما قد تعددت الرايات مثلما تعددت الولايات، فهذا يوالي الفرس، وذلك يوالي السلاجقة والثالثة العربي يدافع عن دولته (خلافته) العربية الاسلامية، ويدفع عنها الشر، ومرة التجزئة والتمزق والتشرذم الذي آلت اليه اطرافها. فلم يبق للخليفة العربي العباسي من دولته (خلافته) الا بغداد وما يجاورها وان اردنا الدقة، فأن حدود الخلافة، اصبحت لا تمتد اكثر من البصرة جنوباً، ودقوقا (داقوق) شمالا وبضمنها تكريت، ومن حلوان وبضمنها خانقين شرقاً، الى عنه والقادسية غرباً، اما بقية رقعة الخلافة من اقليم ما وراء النهر وخراسان وخوازرم وقهستان ومكران وكرمان ولورستان وقومس وقلعة آلموت واقليم اذربيجان، واقليم الجزيرة وسوريا ومصر وشمال افريقا، فأنها استقلت عن الخلافة، وان ظل بعضها يذكر فقط اسم الخليفة على منابر صلاة الجمعة، لأن البعض الآخر قد استقل حتى بضرب النقود والترفع عن ذكر اسم الخليفة على منابر صلاة الجمعة، وصارت اقطاعات يمكن تحديدها على رقعة الخلافة العربية العباسية وبالامراء المستقلين بها كلياً او جزئياً على الوجه الآتي :

١ ـ بغداد (و مايحطيها من العراق) : الخليفة العباسي

٢ ـ الشام والبلاد الفراتية : الناصر صلاح الدين يوسف

٣ ـ الديار المصرية : المعز عز الدين ايبك التركماني

٤ ـ الكرك والشوبك : الملك المغيث فتح الدين عمر

٥ ـ الموصل وبلادها : الملك الرحيم بدر الدين لؤلؤ الاتابكي

٦ ـ ميافارقين وديالا بكر : الملك الكامل ناصر الدين محمد المظفر

٧ ـ اربل واعمالها (من جهة الخليفة) : تاج الدين محمد صلايا العلوي

٨ ـ حصون الاسماعيلية بالشام : رضي الدين ابو المعالي

٩ ـ صهيون وبُرزيه وبلاطنس : الامير مظفر الدين عثمان منكورس

١٠ ـ حماة : الملك المنصور ناصر الدين بن صلاح الدين

١١ ـ تل باشر والرحبة وتدمر وزنوبيا : الملك الاشرف مظفر الدين شيركوه

١٢ ـ ماردين : الملك السعيد الغازي

١٣ ـ مكة : عز الدين ابو مالك منيف

١٤ ـ اليمن : الملك المظفر شمس الدين

١٥ ـ خراسان وما وراء النهر : هولاكو

هذا في الشرق، اما الدويلات العربية في المغرب، وهي التي عرفت بدول ملوك الطوائف في الاندلس، فأن رقعتها مع كونها كانت مستقلة عن الخلافة العباسية منذ نشأتها، الا انها فيما بعد تجزأت واستقلت عن بعضها على الوجه الآتي :

١ ـ اشبيلية : بنو عباد (القاضي، ثم المعتضد فالمعتمد بن عباد)

٢ ـ قرطبة : بنو جهور (ابو الحزم فابو الوليد ثم عبدالملك)

٣ ـ مالقه : بنو حمود (الادارسة)

٤ ـ الجزيرة : بنو حمود (محمد بن خليفة ثم القاسم) -

٥ ـ غرناطة : بنو زيري (زاوي وباديس)

٦ ـ قرمونه : بنو برزال

٧ ـ رنده ومورور واركش ووليه ونبله: ضمت فيما بعد الى اشبيلية

٨ ـ بطليوس : بنو الافطس

٩ ـ شلب (بنو مرين) وشنتمريه ومرتله : ضمت فيما بعد الى اشبيلية

١٠ ـ طليطلة : بنو ذي النون

١١ ـ السهلة : بنو رزين

١٢ ـ الفنت : بنو قاسم

١٣ ـ بلنسية : الصقالبة ثم ضمت فيما بعد الى طبيطلة

١٤ ـ دانيه : اقبال الدولة (ثم ضمت فيما بعد الى سرقسطة)

١٥ ـ المرية : بنو صمادح

١٦ ـ مرسيه : خيران، ثم زهير

١٧ ـ سرقسطة : بنو هود(٣)

وبهذا يصبح عدد دويلات الدولة (الخلافة) العربية اثنتين وثلاثين دويلة، خمس عشرة منها في المشرق وسبع عشرة في المغرب. فلا شك انه لا يوجد اخطر من هذا التمزق والتشرذم السياسي الذي وصلت اليه الخلافة العربية، وهي المحاطة بالاعداء من جميع الجوانب؛ الفرنج والروم والقوط والهوند والسكسون والاتراك السلاجقة والفرس والمغول والتتر. وان كل هؤلاء يتصارعون فيما بينهم ويصارعون جميعاً الخلافة العربية العباسية. ولا يمكن رد العدوان بمثل هذا التمزق والتشرذم، ولا تمكن الاستماتة بالدفاع بمثل هذه التجزئة والاستقلالية القطرية، وهكذا يسهل، وقد سهل فعلا التهام الخلافة العباسية بعد هذا التجزؤ والتمزق والتشرذم السياسي. فقد تمكن العدو المهاجم من استفراد كل امير او ملك بمملكته وايقاع الضربة القاضية به. وبعد الضربة القاضية بكل هذه الممالك والامارات الهزيلة شاع الخوف والهلع والخور في نفوس الملوك والامراء الأخرين، حيث لم يفدهم استنجاد بعضهم بالبعض الآخر، خاصة وان هذه التجزئة، وهذا التمزق والتشرذم، بفعل ما قام به الرتل الخامس من الاعاجم الفرس والغلمان التركمان وغيرهم، دون ان يدرك هؤلاء الملوك والامراء ان هذا

---

(٣) القلقشندي ؛ مأثر الانافة في معالم الخلافة

ودوزي : ملوك دويلات الطوائف ؛ ترجمة كامل كيلاني ـ صفحات متفرقة

الانقسام لا يحقق اهدافهم، ولا يوحد مصيرهم الحضاري، فلقد تمكن هؤلاء الاعاجم من هذا التقسيم والتمزيق لوحدة الخلافة العباسية، وبذلك اضعفوا الخلافة والعرب بعد ان خرجوا عن السيادة العربية، ليعيدوا سيادة اجدادهم وممالكهم الزائلة.

اذن الخلافة العباسية، او سياسياً الدولة العربية، اصبحت ممزقة، سياسياً وجغرافياً، حتى درجة التشرذم بحيث ان هذه الدولة العربية الواحدة التي كان يديرها خليفة عربي واحد، يذكر اسمه في خطبة صلاة الجمعة الجامعة في كل جوامع المسلمين من ما وراء النهر حتى المغرب الاقصى ومدن الاندلس، وتضرب النقود باسم الخليفة العربي نفسه في جميع اطراف الدولة ومركزها، اصبحت هذه الدولة اجزاء متقاطعة تجاوز الخمس عشرة في المشرق والسبع عشرة في المغرب (الاندلس)، بحيث ان البعض الآخر منها، خرج عن سلطة الخلافة العربية كلياً، واصبح في عداد المستعمرات منذ بدء زحف جنكيزخان، ثم هولاكو في المشرق، واخذ الفرنج والروم يستعيدون مواقعهم على شواطىء البحر الابيض المتوسط ويتحفز الاسبان لاسترجاع اراضيهم من العرب. لاشك ان هذا التمزق والتشرذم السياسيين والجغرافيين، لم يضعف الخلافة العربية العباسية حسب، انما جعلها سهلة الالتهام.

التمردات السياسية

لا يشك ان الزط هم قوم جاء بهم محمد بن القاسم الثقفي من بلاد السند، فسكنوا العراق، وقد عرفوا بتربية الجاموس، لذلك كانت عيشتهم قاسية في الاهوار من جنوب العراق. فلاشك ان انتفاضتهم ضد الخلافة العباسية ـ العربية الاسلامية، لم تكن بحافز طبقي اقتصادي، انما كانت بحافز اجتماعي سياسي، لأنهم كانوا لا يختلفون عن اعاجم الفرس في نظرتهم الى

العرب وفي نظرة العرب اليهم من التعالي المتبادل. ولاشك ان الحيف الذي كان قد لحق بالزط، لم يكن كبيراً لأن عملهم في الاساس هو تربية الجاموس، وهذا عمل فردي شخصي، وليس من الاعمال الجماعية التي تقع تحت سلطة او اشراف الدولة، انما هي املاك فردية، ليس فيها مستغل ومستغل، لذلك فأن تمرداتهم يجب ان تكون على واقعهم لتحسينه، وليس على السلطة. اما اذا كانت انتفاضاتهم قد وقعت ضد السلطة، فأنه امر يدعونا للقول انها ما كانت الا تمردات ضد السيادة العربية كسيادة عربية يشعرون باضطهادها لهم.

يقول بونيبانوف عن الثورة البابكية: «ان بابك اضطر الى ان يدخل في جيوشه الطاعة الصارمة لاخضاعها من اجل هدفه الرئيس - محو السيادة العربية - من اذربيجان، ومن ثم من مناطق اخرى»[٤]. ويقول يامبولسكي: «ماذا عمل بابك اذ ما اصبح رئيساً للخرمية، نظمهم للذبح الجماعي لأنصار الخليفة العائشين في ذلك الوقت في اذربيجان او بلاد الروم من اجل تكثيف قوة الهجوم ضد الخلافة العباسية، حتى انهم قد التجأوا الى الروم، وان الروم كانوا يهاجمون الثغور الاسلامية كمساعدة منهم لبابك ونكاية بالمسلمين الذين آزروا المتنفض توما الصقلبي. والملاحظ ان الصلات بين بابك وبيزنطة لم تتوسع اكثر من ذلك. فأن اتصال بابك بتيوفيل بن ميخائيل، لم يتعد الطلب منه في مهاجمة الحدود الاسلامية المكشوفة له، بعد أن زج العباسيون كل قواهم في اذربيجان، وكان طلب بابك من اجل تخفيض الضغط عليه، وكانت مصالح الطرفين في القضاء على الجيوش العباسية وتحطيم السيادة العربية»[٥].

ونكتفي بهذا المثال والقدر من الحديث عن علاقة التمردات الداخلية او على اطراف الخلافة العباسية، التي حدثت خلال عصور الخلافة العباسية وهي

---

(٤) د. حسين قاسم العزيز: البابكية ص١٩٠

(٥) د. حسين قاسم العزيز: البابكية ص٢٠٤

التي تمثل الارتباط الستراتيجي بالتعصب العنصري اي النضال الاجتماعي والسياسي، لغرض تحقيق السيادة القومية الفارسية او غيرها، بعد اضعاف السيادة العربية بتمزيقها سياسياً. واضافة الى ذلك فأن هذه التمردات التي قامت بقصد ازالة السيادة العربية، لم تتورع عن عقد المحالفات مع الاجانب من الدول المعادية للخلافة العباسية. وهؤلاء المعادين هم من غير المسلمين، المتربصين بحدود الخلافة العربية الاسلامية، وهم يقفون على تخومها. وان مثل هذا التحالف مع الاجنبي لا يعني ابدا نضالا طبقياً او اقتصادياً، انما يعني انه موجه ضد الدولة وضد السيادة العربيتين،وليس لأمر آخر. وان التعاون مع الاجنبي، اي اجنبي، ومهما كان، ولأي غرض، انما هو خيانة للوطن والمواطنة، والكرامة والسيادة الوطنية والشعب، ولا يمكن اغتفارها مهما كانت المبررات. ولا تختلف تمردات القرامطة عن تمردات الزط والبابكية في كونها موجهة ايضا ضد السيادة العربية. وهذه جميعا لا تختلف عن محاولات ابي سلمة الخلال وابي مسلم الخراساني والبرامكة وآل طاهر وآل سهل، لأن هذه المحاولات كانت مقنعة بدعاوى اسلامية وبدع مذهبية، اججت فيها بعد اوار الصراع الطائفي ضمن ابناء الامة العربية، دون انتباه الى الاهداف الحقيقية لتلك البدع وما تخفيه من المرتكزات السياسية.

الفتن المذهبية

بعد دخول عناصر غريبة وغير عربية في الاسم، خاصة بعد ان انتشر الفتح الاسلامي وامتد في بلاد فارس وما وراء النهر وكرمان واذربيجان ومراغة وبلادالصغد، فأن هذه العناصر الاجنبية الغريبة، بمختلف الاغراض نازعوا العرب التفقه في الدين وتفسيره، فمنهم من اصاب ومنهم من اخطأ، ومنهم من احسن، ومنهم من افسد، وبذلك نشأت الفرق الاسلامية، التي كان لها التأثير

الكبير والفاعل في نشوء الاختلافات والصراعات السياسية التي قامت على هذه الاسس الفقهية، فنشأت منها اسس مذهبية بدعاوىٰ دينية افتراضية، فثارت فتن كثيرة، اساسها الاختلافات المذهبية وهي التي اصبحت الجذر والمرتكز، واحياناً النتائج للثورات والانتفاضات السياسية. وقد كانت الفتن المذهبية التي تحدث بين اهالي محلات بغداد مرتكزة على هذه الاختلافات والتفسيرات المذهبية والبدع الاختلاقية التي وصلت الى حد الاقتتال، التي كان آخر تلك الفتن المذهبية مقتل الشاب القطفتي(٦) من قبل اهل الكرخ. وهذا المقتل ادى الى فتنة كبرى سالت فيها الدماء ونهبت الدور، فتدخل جيش الخلافة لقمعها، وتصفية الاجواء وتنقيتها، وهذه الفتنة التي حدثت عام ٦٥٣هـ بالذات، هي التي كانت السبب المباشرة لحنق ابن العلقمي، وغضبه، ففاوض هولاكو والمغول سراً وجرأه على احتلال بغداد، واسقاط الخلافة العباسية، وتدمير الحضارة العربية الاسلامية. ومن الذين اججوا الفتن المذهبية (البويهيون) الديالمة وذلك بتشديدهم والتغالي في البدع المذهبية كأقامة المآتم في يوم عاشوراء بأمر معز الدولة البويهي الديلمي سنة ٣٥٢هـ والاحتفال بعيد غدير خم(٧)، كأنه احد مناسك الحج، وغير ذلك من البدع، مما كانت تثير المسلمين عامة ضد هذه البدع.

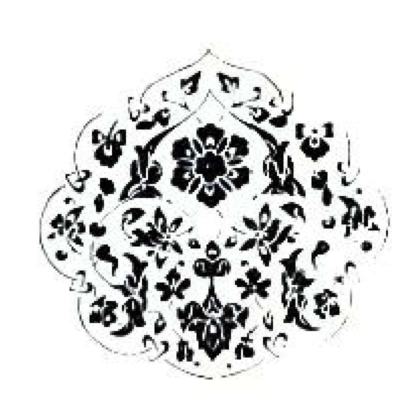
ولاشك ان مثل هذه البدع التي اختلقها الديالمة بصورة خاصة، والفرس بصورة عامة، ادت الى الكثير من تلك الفتن التي منها ما كان يحدث بين محلة ابي حنيفة والخضيريين من ناحية، واهل الرصافة من ناحية ثانية، حتى كادوا يحرقون محلة ابي حنيفة، وقد اشتهرت سنتا ٤٤٤هـ و٤٤٥هـ بسنوات الفتنة كما سماها ابن الاثير، بحيث ان احدى الفتن في تلك الفترة، تمكن فيها الجانب الشرقي من

---

(٦) ابن الفوطي: الحوادث الجامعة ص٣١٤

(٧) السيوطي: تاريخ الخلفاء ص٤٠١

بغداد من احتلال الجانب الغربي، ورموهم بالنفط الطيار وغيره. وقد التهبت عدة فتن مذهبية بين مختلف المحلات في بغداد وغير بغداد، التي رافقها قتل ونهب وتخريب. ولا شك ان حدوث مثل هذه الاعمال والشغب، تشغل الخلافة عن امورها الكبرى والاساس في سياسة البلاد وتنميتها من ناحية، وتعرقل عمليات الدفاع والحماية من ناحية ثانية ضد الخطر الاجنبي المداهم على التخوم .



الفصل السادس

وضع الدولة العربية الاجتماعي والاقتصادي

لانعدام تركز السلطة بيد قيادية حصيفة واحدة وللمخاوف والمطامع التي كانت تساور نفوس الملوك والامراء الذين تولوا امور الدويلات الممزقة من جسم الدولة العربية، او التي استقلوا بها، فأن الاهتمام بكيانات تلك الممالك او الأمارات وصل من الضعف درجة لا يهتم اولئك الملوك او الأمراء الا بجباية الأموال وصرفها على ملاهيهم وحياتهم الخاصة، فاذا بالانهار تنطمر فتعلو مناسيب المياه في اوقات سقوط الامطار وذوبان الثلوج بحيث ان الفيضانات كانت تهدد مناطق العراق عامة بالغرق، وما تبع ذلك من تلف المزروعات وخراب الدور والقصور. وهذا لا شك يؤدي بدوره الى ندرة المحاصيل وقلة الثروة الحيوانية، فتغلو الاسعار.. وتشح الاغذية، فتحل المجاعة، لعدم تمكن الناس من اقتنائها لغلاء اسعارها. وقد اشار اكثر المؤرخين الى حوادث الغرق والفيضانات التي كانت تحل ببغداد وغيرها وما كانت تسببه او تخلفه من آثار الخراب والتخلف، فقال الاشرف الغساني: ان بغداد غرقت عام ٦٤٧هـ وغرقت عام ٦٥٢هـ كما غرق معها مدينة عنه وحديثة وغرقت بغداد وكذلك عام ٦٥٤هـ، كما انه يقول ايضاً: «اغرقت دجلة عدة نواح من الخالص (الراشدية والعباسية) وغرق الجانب الغربي من بغداد»[٨]

ان هذا كان آخر غرق وقع في بغداد قبيل حصارها الذي فرضه المغول والتتر بقيادة السفاح هولاكو. ولاشك ان هذا الغرق ادى الى اضرار اقتصادية

---

(٨) الملك الاشرف اسماعيل الغساني: المجسد المسبوك وزالجوهر المكوك ص٥٢٧ وما بعدها حسب السنوات.

بالغة، ومآسٍ صحية، اضافة الى الخسائر في الزراعة والثروة الحيوانية والوفيات السكانية، فأن بغداد شهدت العديد من حوادث الغرق والحرائق الضخمة التي آذتها ايذاء كبيراً، وسببت ضعفاً عاما في قدراتها الاقتصادية خاصة. وان حوادث الغرق هذه والحرائق ايضاً قد وقعت بعد ان ازداد تدخل العناصر الاجنبية وغير العربية من الاعاجم الفرس والغلمان التركمان، بحيث كانوا هم السبب في مثل هذه الحوادث من الغرق والحرائق، لأنهم اهتموا بمصالحهم ومحاولة القضاء على السيادة العربية، ووقف زخم انتشار الاسلام، وتحقيق منافعهم الفردية، فتركوا امور البلاد واصلاحها، وعمران بغداد وحمايتها فلقد احترق الجانب الغربي من بغداد سنة ٤٤٩هـ وغرق الجانب الشرقي سنة ٤٥٤هـ، واحترق ما يحيط بنهر المعلى بالجانب الشرقي سنة ٤٥٨هـ، وفي سنة ٤٦١هـ حدث فيضان عظيم وغرقت به بغداد بجانبيها الشرقي والغربي. وفي سنة ٤٦٧هـ هبط الماء من سيل متتابع قاسٍ وغرق الجانب الشرقي ايضاً سنة ٤٦٩هـ، واضافة الى الفيضانات والغرق الذي اصاب بغداد، فأن الحرائق كثيراً ما كانت تلتهم اسواق ومساكن بغداد بحيث انه نتيجة فتنة طائفية استعر الحريق مرتين في شهر شعبان سنة ٤٦٥هـ، كما حدث قبله حريق آخر سنة ٤٦١هـ، وفي سنة ٤٦٧ هـ حدث حريق في جانبي بغداد، وحدث ايضاً حريق رهيب سنة ٤٧٨هـ بسبب فتنة بين اهل الكرخ وباب البصرة. وقد احترقت ايضاً باب الحلبة سنة ٤٨٠هـ، وحدثت حرائق أُخرى فيما يحيط نهر المعلى سنة ٤٨٥هـ والجانب الشرقي سنة ٤٩٣هـ، والجانب الشرقي من نهر المعلى سنة ٤٩٥هـ. وكان من اكبر الفيضانات ما حدث سنة ٤٩٩هـ فغرقت بغداد وهلكت الغلات، وحدث حريق كبير ايضاً سنة ٥٠١هـ، وحريق عظيم في الجانب الشرقي من بغداد في محلة الريحانيين وسوق عبدون بالجانب الشرقي سنة ٥١٢هـ(٩).

---

(٩) د. جورج مقدسي: ترجمة د. صالح احمد العلي؛ خطط بغداد في القرن الخامس الهجري ص٤١ - ٦١.

الغـلاء

لاشك ان مثل هذه الكوارث التي تحل بالبلاد، تخل بالميزان الاقتصادي عامة؛ اقتصاد الدولـة، واقتصاد الافـراد، فأن الغـلات الزراعيـة والثروات الحيوانية تصـاب بالتلف. واضـافة الى ذلـك فأن المخـزونات ايضـاً تتعرض للاضرار، سواء بكسح المياه أوانغمارها بهـا، كما تتلف بسـاتين الاشجـار هي واثمارها. وهذه الخسارة بالمحاصيل الخضرية والشجرية والمخزونات، تؤدي الى خسارة الافراد وخسارة الدولة ايضاً، وانخفاض المداخيل الفردية ومداخيل الدولة، لأن مداخيل الدولة تعتمد على جباية الضرائب عن هذه المزروعات ومحاصيلها. فـاذا انعدمت المحـاصيل الـزراعية او قلت، قلت بـذلك المـوارد الضريبية، فتضعف اهتمامات الدولة ورعايتها وادامتها للمرافق الزراعية، مثل كري الانهار وتعلية السدود وتنظيم القناطر، والا فيحل الغلاء بعد شحة المواد الغذائية او قحطها، فتحدث المجاعات وتتدهور الحالة الصحية، فيرافقه او يتبعه تدهور اقتصاديات الدولة، فتتدهور حالة الجند وعددهم ويصاحب كل ذلك تدهور اجتماعي وسياسي، وتصبح هذه الامور جميعا وسيلة للنقمة والتذمر من الدولة، فتحدث الهوة بين ابناء الشعب وبين رئيس الدولة (الخليفة) ورجـال سلطته، فيسهل عندئذ تمرير المؤامرات والدسائس بفعل الاشاعات والدعايات المغرضة والضارة التي تفسد الشعب عامة، كما تزداد الفتن، لاضطراب حبل الأمن، لاضطراب الحياة المعاشية بين الناس.

ان هذه الفيضانات والحرائق التي حدثت طيلة العهود المتأخرة من حياة الخلافة العربية العباسية تدل على الاهمال الشديد للدولة بشؤون البلاد والرعية وذلك لكون المتسلطين على الدولة (الخلافة) ويحيطون بالخليفة، انما هم من الاعاجم الفرس والغلمان التركمان الذين لا تهمهم مصلحة البلاد بقدر الصراع ضد العناصر العربية في محاولة زحزحتهم عن اماكنهم، واشغال الفراغ الذي

يحدث بالعناصر الموالية لهؤلاء الاعاجم. فتحدث الخلخلة والاضطراب والارتباك في المرافق والمواقع التي تحيط بالخليفة وتسيّر امور الخلافة. وبعد احداث هذه الخلخلة والفراغ تعمد العناصر الى ملء هذا الفراغ كما اسلفنا بالعناصر الموالية لهم، او التي تستفيد منهم في الصعود على اكتافهم او القفز على رؤوسهم في تمرير دسائسهم ومؤامراتهم.

واضافة الى كوارث الطبيعة من فيضانات وغرق وكوراث انسانية، تتمثل بالحرائق التي كانت تحدث في البلاد، وبصورة خاصة في بغداد، مما تؤكد الاهمال وضعف الخليفة وتسلط المتنفذين ومحاولات استغلالهم وتحقيق مآربهم واطماعهم الشخصية ودسائسهم الحاقدة اللئيمة للفت من ساعد الدولة من ناحية وبث روح التذمر والنقمة على الدولة حتى تتهم بسوء الادارة مما يسهل تمرير المؤامرات وخلع الخلفاء. فاستقلت الولايات والمقاطعات عن سلطة الخلافة، ورفضت الانصياع للسيادة العربية، اضافة الى حجبها الموارد والخراج عن الخلافة، مما كان يعتبر موارد جيدة تساعد في ادامة ماكنة الدولة، سواء كان ذلك الاستقلال جزئياً او كلياً، جوهرياً، او شكلياً، وبذلك ضعفت موارد الخلافة لاقتصارها على بغداد ومايجاورهااو يحيط بهامن قرى ومدن. وهذا هو الذي ساعد على الانهيار السياسي للدولة، بعد التدهور الاقتصادي، فكان لهذا التدهور الاقتصادي مردودات سلبية على مجمل الحياة والافراد خاصة اذا عرفنا بأن الكثافة السكانية للعراق بصورة عامة وبغداد بصورة خاصة، عالية جداً، قد يقدرها المؤرخون والجغرافيون السكانيون بعشرات الملايين لعموم العراق، وثلاثة ملايين او اكثر لمدينة بغداد خاصة. وهذا كله يعني قلة الموارد وشحة المواد، وارتفاع الاسعار وحدوث الغلاء الذي يساعد على تقويض النظام السياسي للبلاد، ويصبح عاملاً فعالاً في الدس اللئيم وتشجيع الاطماع للهجوم او التوسع على حساب الدولة التي ضعفت، بضعف اقتصادها، وتيسير التطويح بها، وقضم اطرافها، ثم مداهمتها بالزحف عليها واحتلال حتى العاصمة.

الشطار والعيارون

واذ حدثت الاضطرابات وارتبك الميزان الاقتصادي وانفرط الأمن، ظهر الشطار والعيارون، الذين اصبحوا هم ايضاً مصدر خطر على الخلافة العباسية، خاصة وقد تبلورت الطبقة الارستقراطية الزراعية او السلطوية سواء كانت عربية أو اعجمية فارسية او تركمانية. وقد بدأ هذا الظهور منذ خلافة هرون الرشيد وتوليته الوزارة لأبناء برمك، واطلاق ايديهم في املاك الدولة، «وهذا يعني ان الحركة تأتي نتيجة طبيعية لما تنتهي اليه الحضارات من تناقضات تاريخية. . ومن ثم كان ازدهار حركة العيارين والشطار في بغداد من جراء التمايز الطبقي والتباين الاقتصادي الذي كان يزخر في ذلك الحين في المجتمع البغدادي، حيث كان السلاطين والولاة وقواد الجند والامراء والاثرياء يعيشون في اقصى درجات الغنى المترف، على حين كان عامة الشعب من الفقراء والمعدمين والغوغاء واشباههم من العاطلين واصحاب الحرف المحقرة يعيشون اقصى درجات الحرمان المدقع. ومن جراء الصراع المذهبي والتكتل القومي (الشعوبي) والتمزق السياسي والخلل الاقتصادي الذي لم يلتئم منذ الربع الاول من القرن الرابع الهجري، حيث ضعفت الدولة واستأثر الجند السلاجقة بالسلطة دون الخلفاء واصبح في ايديهم تولية الخليفة وعزله او قتله، واضحى لاهم لهم الا جمع المال لأرضاء جشعهم. . فلا يتورعون عن سلوك شتى السبل للحصول عليه عنوة واغتصابا واقتداراً بغض النظر عما اذا كان سلوكهم اخلاقياً، بل هو على النقيض من ذلك. وهؤلاء هم اللصوص الحقيقيون. . لصوص الشعب الرسميون بالمعنى السياسي والقانوني والاخلاقي والاجتماعي عند قراءة التاريخ والادب الشعبي حتى غدت بغداد في ايامهم كما يقول

المؤرخون مرتعاً للفوضى والاضطرابات والقلاقل والفتن»[10]. ولكن الغريب في امر هؤلاء الشطار والعيارين، انهم كانوا من الفئات المسحوقة من العرب، ولم يكن بينهم أحد من الأعاجم الفرس او السلاجقة، والظاهر انه لم يكن هناك فقراء او معدمون من الأعاجم الفرس، خاصة في بغداد لأنهم كانوا يتفننون في التنافس مع العرب ويبزونهم في كل الحرف والمهن، والكتابة ايضاً، حتى صاروا يحتكرونها اولاً، وليصلوا بها الى الثراء والسيطرة على اقتصاد البلاد والمدينة. وكذلك على أعلى الرتب في الدولة، فمن هؤلاء الأعاجم الذين وصلوا الى اعلى مراتب الدولة في الخلافة العباسية، حتى صاروا وزراء او امراء او فقهاء، نذكر خالد بن برمك الذي اتقن اللغة العربية واخذ يروي الشعر العربي ويستشهد به، حتى ليخال المرء انه عربي أصيل، ويعرف أسماء الشعراء العرب فيخلب لب الخليفة فيصيره ابو العباس السفاح وزيره، ونذكر ايضا محمد بن عبدالملك الزيات الفارسي الذي «نشأ وقرأ الادب وقال الشعر البديع، وتوصل بالكتابة الى ان وزر للمعتصم والواثق، وسبب وزارته انه ورد على المعتصم كتاب بعض العمال، وفيه ذكر (الكلأ)، فقرأه الوزير احمد بن عمار بن شاذي وزير المعتصم، عليه، فقال له ما الكلأ ؟ فقال (الوزير): لا اعلم، فقال المعتصم: خليفة امي ووزير عامي. انظروا من في الباب، فوجدوا ابن الزيات، فادخلوه اليه، فقال له؛ ما الكلأ، فقال: العشب على الاطلاق. وشرع في تقسيم انواع النبات، فعلم المعتصم فضله فاستوزره وحكمه وبسط له يده». و «قتله المتوكل في التنور الذي صنعه من حديد وفيه مسامير للمصادرين وارباب الدواوين المطلوبين بالاموال، وكانت وفاته سنة ٢٣٣ هـ»[11]. فهكذا كان حال الاعاجم الفرس والغلمان التركمان، وهم يستولون على مراتب الدولة وينافسون العرب ويستعلون عليهم... كرد فعل لاستعلاء العرب اسياد الدولة.

---

(١٠) د. محمد رجب النجار: حكايات الشطار والعيارين: ص ٨٦ ـ ٨٧

(١١) الصفدي صلاح الدين خليل بن ابيك: الوافي بالوفيات ج٢ ص٣٢

فالشطار والعيارون كانوا يمثلون العناصر العربية المسحوقة فاذا بهم في ثورتهم هذه، يمثلون الرفض الثوري ضد الخلافة كسلطة وليس كسيادة عربية، وضد العناصر الاعجمية التي ارتفعت الى الطبقة الارستقراطية وصاروا يضطهدونهم فأخذوا يؤذون الناس جميعاً استفزازاً للسلطة واستفزازاً للناس بعيداً عن الثورة الكامنة في نفوسهم، فاخذوا يحاولون انتزاع السلطة من هؤلاء الوزراء وامراء الجند الأعاجم، فوصل الحال الى ان «الشطار الذين كانوا ببغداد والكرخ، آذوا الناس اذىً شديداً واظهروا الفسق وقطعوا الطريق واخذوا النساء والغلمان في الطرق.. وكانوا يسألون الرجل ان يقرضهم او يصلهم فلا يقدر ان يمتنع عليهم وكانوا يجتمعون فيأتون القرى فيكاثرون اهلها ويأخذون ما قدروا عليه من متاع وغير ذلك، والسلطان يمنعهم ولا يقدر على ذلك منهم، لأن السلطان كان يعتز بهم، وكانوا بطانته، فلا يقدر ان يمنعهم من فسق يرتكبونه وكانوا يجبون المارة في الطريق وفي السفن، ويأخذون الأجور على خفارة المساكن ويقطعون الطرق علانية، ولا احد يقدر عليهم، وكان الناسُ منهم في بلاء عظيم»[12]. ولكن مع هذه التصرفات المخالفة لكل مقاييس التقدم الحضاري، الا انهم اثبتوا عروبتهم، حينما وقفوا الى جانب الامين[13] في الحرب التي وقعت بينه وبين اخيه المأمون بينما وقف الفرس بارستقراطيتهم وعامتهم الى جانب المأمون. وذلك لأنهم حولوا ثورتهم الاقتصادية ضد السلطة، الى ثورة سياسية ضد محاولي اغتصاب السيادة العربية، وثورة اجتماعية في الوقوف ضد التيار الشعوبي الذي وجد فرصته المناسبة لاستلابها من العرب. فتجسد وقوف الشطار والعيارين الى جانب الأمين، انتفاضة شعبية ضد الأعاجم الذين احاطوا بالمأمون وشجعوه على قتال اخيه الأمين: «فلما هم محمد (الأمين) بالخروج في تلك الليلة - وهي ليلة الخميس، لخمس ليالٍ بقين من المحرم سنة

---

(١٢) د. محمد رجب النجار: حكايات الشطار والعيارين ص٩٢

(١٣) د. محمد رجب النجار: حكايات الشطار والعيارين ص٩٢

ثمان وتسعين ومائة، دخل اليه الصعاليك من اصحابه، وهم فتيان الابناء والجند، فقالوا له: يا امير المؤمنين ليس معك من ينصحك ونحن سبعة آلاف رجل مقاتلة، وفي اصطبلك سبعة آلاف فرس، يحمل كل منا على فرس، ونفتح بعض ابواب المدينة، ونخرج هذه الليلة فما يقدم علينا احد الى ان نصير الى بلد الجزيرة وديار ربيعة، فنجبي الأموال ونجمع الرجال ونتوسط الشام وندخل مصر، ويكثر الجيوش والمال وتعود الدولة مقبلة جديدة»[14]. وقال احمد بن سلام: «. . ما لبثنا حتى سمعنا حركة الخيل ودق باب الدار ففتح الباب فاذا قوم من العجم بأيديهم السيوف مصلتة»، «فدخل عليه رجل منهم مولى طاهر، فضربه بالسيف ضربة وقعت في مقدمة رأسه. . وضرب محمد (الامين) وجهه بالوسادة التي كانت في يده، واتكأ عليه ليأخذ السيف من يده. فصاح بالفارسية: قتلني الرجل فدخل جماعة. فنخسه احدهم بسيفه في خاصرته، وكبوه فذبحوه من قفاه، واخذوا رأسه، ومضوا به الى طاهر»[15]. فوزير المأمون طاهر بن الحسين فارسي ورجال طاهر بن الحسين فرس، ويتكلمون اللغة الفارسية بعد مئتي سنة من قيام الدولة العربية، فهو اذن الصراع العربي - الفارسي. لأن هذا الجندي الذي كان يتكلم الفارسية، وهو من جنود الخلافة العربية رسمياً، اما انه لا يعرف العربية اصلاً، واما انه يستنكف من التحدث بالعربية، ويفضل عليها الفارسية، لغة قومه التي تظل كامنة، تظهر اذا واتت الظروف، لأنه حريص على هذه اللغة. . فهم، اي الاعاجم متسترون يتحينون الفرص للظهور والسيطرة، ويسعرون الخلافات حتى يزداد الاضراب.

واذ نجد ان تمرد الشطار والعيارين يتحول من انتفاضة اقتصادية الى انتفاضة اجتماعية وسياسية، اي انتفاضة قومية ضد الاعجمية الفارسية،

---

(١٤) المسعودي: مروج الذهب ج١ ص٣٢٦

(١٥) المسعودي: مروج الذهب ج١ ص٣٢٦

وانتفاضة سياسية ضد التسلط الطاهري الفارسي واخوال المأمون الفرس الذين يتربصون بالخلافة العربية الاسلامية، ويريدون قلبها بأية وسيلة وطريقة، نجد من ناحية ثانية ان جميع الثورات الاقتصادية والانتفاضات الطبقية لم تكن بسببها الحقيقي الظاهري الاقتصادي او الطبقي، انما كانت بالسبب الاجتماعي والسياسي، اي رد الاعتبار الى الاعاجم الفرس، ورفض السلطة العربية، ومحاولة اعادة السيادة الفارسية المهضومة بالعرب والاسلام في رأيهم، وقد تعددت التمردات التي عرفت بأنها.. تمردات اقتصادية، بدء بثورة المقنع والزط والزنج والقرامطة والبابكية والخرمية وحتى ما قبل هذه، من ثورات الخوارج والتوابين والبكائين وغيرهم ايضاً، حيث لم تكن بدافع اقتصادي او طبقي فقط، انما كانت بدافع اجتماعي (قومي) وبدافع سياسي فارسي، لأبدال السلطة والسيادة، سواءً علم هؤلاء المسحوقون طبقياً(!!) ام لم يعلموا، فأنهم والحق يقال، كانوا يمثلون العناصر الاعجمية ممن دخلوا الأسلام بمختلف المآرب فهم لم يحقدوا طبقياً فقط، انما كانوا يحقدون اجتماعياً وسياسياً، اي قومياً وتاريخياً، لأنهم لم يناهضوا الطبقة الارستقراطية الفارسية، بل نراهم يصبحون جلاوزة لهم في تحقيق مآرب الارستقراطية الفارسية إذ كانت التمردات فارسية. وهذا ما لم نجده عند الشطار والعيارين في انتفاضاتهم ورفضهم للسلطة العباسية وارباكهم للحياة الاجتماعية، لأنهم لما ادركوا ان السلطة والسيادة العربيتين مهددتان من الاعاجم الفرس، مالوا مباشرة الى جانب الامين ممثل السيادة العربية، ووقفوا بشكل حاسم الى جانبه ضد المأمون الذي مثل السلطة الاعجمية ومصالح الاعاجم المهددة من قبل العرب. ولاشك ان علة هذه التمردات هي النظرة التي كان يعانيها الاعاجم الفرس او الغلمان التركمان فيما بعد من ازدراء العرب بهم والتعالي عليهم خاصة ممن هم يمثلون الارستقراطية العربية الذين ينظرون بهذا الاستعلاء حتى الى العرب المسحوقين طبقياً او اقتصادياً.

ومع كل ذلك فأن وجود الشطار والعيارين واستشراء امرهم في الخلافة

العباسية، يدل دلالة واضحة على سوء الاوضاع، وعلى سياسة السلطة، ما كانت مرضية لابناء الشعب، مما ساعد على ظهور هؤلاء الشطار والعيارين ومحاولتهم منافسة الخلافة في سلطتها بل واحيانا مقاسمة سلطة الخلافة، خاصة بعد ان وجد ان ولاة الأمر (اصحاب الشرطة) لا يقدرون على ايقاف نشاطهم من ناحية، ويستفيدون من وجودهم من ناحية اخرى بمشاطرتهم ما يربحون او يكسبون من اموال بالتواطؤ والمساومة. فانفلت الوضع الأمني في البلاد، وساءت الاحوال واصبح وجود الشطار والعيارين شغل الناس والدولة الشاغل، اضافة الى ما كانوا يقومون به من التخريب والسيطرة على عدد من المناطق او المقاطعات، بحيث لا يجرؤ صاحب الشرطة مع شرطته دخول المناطق التي يسيطرعليها الشطار والعيارون، لتمكنهم من فرض سيطرتهم بالسلاح على تلك المناطق، بحيث تعرضت هيبة الخلافة الى منتهى السوء والضعف وبالاخص امام الثوار المتعصبين من العناصر الاعجمية في الداخل الذي اصبح يمثل (الرتل الخامس) التخريبي، وكذلك امام الغزاة الاجانب والطامعين بقضم اطراف الدولة والمتربصين بحدودها.



الفصل السابع

التمهيد للاحتلال المغولي

ان زحف الجيش المغولي التتري بقيادة السفاح هولاكو لم يبدأ سنة ٦٥٣هـ، حينما منعه ابن عمه (بركة بن طوجي)[1]، ولم يبدأ هذا الزحف ايضاً سنة ٦٥٥هـ بعد وفاة ابن عمه (بركة)، انما بدأ الزحف المغولي منذ احتلال ما وراء النهر، واقامة جنكيز خان سنة ٦٠٦هـ في همذان، ومن بعد، وصول هولاكو الى سد السلطنة المغولية التترية بعد وفاة والده جنكيز خان، وقد كانت المناوشات مستمرة بين المغول من ناحية والخلافة العربية العباسية من ناحية ثانية، فلقد تكرر هذا الزحف والهجوم ايضا على بغداد والموصل وداقوقا (داقوق) واطراف الدولة العربية العباسية. فقد زحف المغول سنة ٦٢٩هـ نحو سافيان وحاصروا (حاصبك)؛ ولكن عن طريق ثلاثة انفار وامرأة من المغول عرف العرب ان المغول فارقوا راجعين الى مراغة. وفي سنة ٦٣٣هـ وصلت الاخبار من اربل تفيد ان عساكر المغول اجتازوا قاصدين الموصل فحاربهم عسكر اربل.. ثم انفصلوا قاصدين الموصل، فعاثوا بها اشد عيث، وقتلوا ونهبوا وأسروا، فأمر الخليفة بتجهيز العسكر.. وتوجهوا.. فبلغهم ان المغول قد عادوا راجعين الى بلادهم»[2]. وفي سنة ٦٣٤هـ نزل عساكر المغول على اربل واحاطوا بها، وتحصن اهل البلد بغلق الابواب وصعود القلعة. وفي سنة ٦٤٢هـ شارف طائفة من عساكر المغول الى ميافارقين. وفي سنة ٦٤٣هـ قصد المغول بجيش قوامه ستة عشر الف، الجبل (اي جبل حمرين) ونهبوا (باعقوبا)[3].

---

(١) القلقشندي: مآثر الانافة في معالم الخلافة ج٢ ص٧٨

(٢ ـ ٣) ابن الفوطي: الحوادث الجامعة ص٨٥

شخصية الخليفة المستعصم بالله

لقد كان المستعصم بالله، ابن الخليفة المستنصر بالله «متديناً، متمسكاً بمذهب اهل السنة والجماعة على ما كان عليه والده وجده (ر). ولم يكن على ما كانوا عليه من «التيقظ والهمة، بل كان قليل المعرفة، والتدبير والتيقظ، نازل الهمة، محباً للمال، مهملا للامور، يتكل فيها على غيره، ولو لم يكن فيه الا ما فعله مع الملك الناصر داود في الوديعة لكفاه ذلك عاراً وشناراً، والله لو كان الناصر من الشعراء وقد قصده، وتردد عليه على بعد المسافة، ومدحه بعدة قصائد، كان يتعين عليه ان ينعم عليه بقريب من قيمة وديعته من ماله، فقد كان اجداد المستعصم بالله من استفاد منه آحاد الشعراء اكثر من ذلك الى غير ذلك من الامور التي كانت تصدر عنه مما لا يناسب منصب الخلافة، ولم يتخلق بها الخلفاء قبله، فكانت هذه الاسباب كلها مقدمات لما اراد الله تعالى بالخليفة والعراق واهله، واذا اراد الله تعالى امراً هيأ اسبابه»[٤]. وقد كان المستعصم بالله ضعيف الرأي والبصر بتدبير الامور واضاف السيوطي بأنه ذو طمع وزاد ابن العماد بأنه يتصف باللين[٥] والانقياد. وهو قليل المعرفة والتيقظ، نازل الهمة محباً لجمع المال، مهملا للامور، يتكل فيها على غيره، وقد كان حليماً كريماً سليم الباطن حسن الديانة، مبغضاً للبدعة.

ان هذه الصفات الضعيفة لا تليق بأي قائد من قادة البلاد، وتحمله المسؤوليات الجسيمة لادارتها وسوسها، وهي بذلك لا تليق باكبر شخصية في السلطة، وهي الخليفة بالذات حيث يتصف بمثل هذه الصفات. ومع ان المستعصم بالله كان يتابع امور البلاد بما لديه من قدرة محدودة ومتابعات ساذجة

---

(٤) البونيني: ذيل مرآة الزمان ص ٢٥٤

(٥) السيوطي: تاريخ الخلفاء ص٤٦٤

وابن العماد؛ شذرات الذهب ص٢٧٠

حنكة خائرة، فهو ضعيف ببذل الجهد والتفكير والتدبير لامور الخلافة، فهو يتناول السهل الميسور، ويترك الصعب المستور. ولقد حدث الشيخ صدر الدين بن النيار شيخ الخليفة قال: «دخلت مرة الى خزانة الكتب على عادتي، وفي كمي منديل فيه رقاع كثيرة لجماعة من ارباب الحوائج فطرحت المنديل وفيه الرقاع في موضعي، ثم قمت لبعض شأني. فلما عدت الى الخزانة بعد ساعة، حللت الرقاع من المنديل حتى اتأملها، واقدم منها المهم فرأيتها جميعا وعليها توقيع الخليفة بالاجابة على جميع ما فيها. فعلمت ان الخليفة قد جاء الى الخزانة عند قيامي، فرأى المنديل وفيه الرقاع ففتحها ووقع على جميعها»[٦]. لكن هذه الامور الصغيرة التي اهتم بها الخليفة من حوائج الناس، جعلته ينسى الاهتمام بحوائج الخلافة، اذ انه اولاها الى وزيره واستاذ داره وكتاب ديوانه وأمير جنده، دون حساب او تشاور، فاذا به يستغل استغلالا كبيراً، ويصبح رجلا منقاداً لا يعلم شيئا من امور الخلافة، اضافة الى تواضعه ووداعته اللتين جعلتاه لا يقوى على ابداء الرأي القاطع ومتابعة المقصر او المسيء بسيئته او بتقصيره فينحيهم عن مناصبهم. فكان سلوكه هذا سبباً لجرأة بعضهم عليه واستغفاله وتحديه. فازدادت الفتن في زمانه وازداد التذمر وازداد تدهور الحياة الاقتصادية وانتشر الغلاء وسيطر اللصوص والشطار العيارون ينهبون ويسلبون امام الشرطة وصاحبها او بالتواطؤ معه. والخليفة لا يحاسب صاحب الشرطة ولا يحاسب الوزير الذي هيمن على جميع الامور في البلاد وولاياتها التي انفصلت او استقلت، والوزير ابن العلقمي يمهد للانقلاب، بهذا التدهور والتذمر، والافتتان، حتى يسهل تمرير المؤامرة لازالة السيادة العربية واسقاط الخلافة العباسية.

---

(٦) ابن الطقطقي: الفخري في الاداب السلطانية ص٨٠

التقديرات الخاطئة

واذ بدأ الزحف الاخير نحو بغداد لاحتلالها واسقاط الخلافة العربية العباسية في المحرم من ٦٥٦هـ/١٢٥٨م حيث شرع هولاكو بهذا الزحف منذ عام ٦٥٥هـ. كان هذا الزحف متوافقاً، هذه المرة مع دعوة وزير الدولة العربية العباسية الفارسي[٧] مؤيد الدين بن العلقمي، وبعيد بعثه لاخيه وغلامه، وبعد ذهاب واياب التجار الجواسيس الذين كانوا ينقلون الاسرار، وينالون (فرمانات) الامان من هولاكو واصحابه تأميناً لهم بعد احتلال بغداد. ولقد جرى هذا كله والخليفة المستعصم بالله مودعاً امره، وامر الخلافة وامر العاصمة بغداد العظيمة المعظمة الى وزرائه وحجابه واساتذة داره، وخدمه وحشمه، معتقداً بأنهم قادرون وبمستوى القضية ومستوى المسؤولية ومستوى الامانة التي يتحملونها والثقة التي يستحقونها. لكن الصراع الشخصي بين هؤلاء انفسهم، والحقد والغضب والحنق كانت قد اعمت عيونهم عن الحقيقة المرة، التي تمثلت بمجزرة الاحتلال الدامية، مثلما سمعوا بمثيلاتها التي حدثت تحت اسماعهم في قلاع الاسماعيلية (الملاحدة) وقلعة آلموت وغيرها. وهم ايضا والخليفة معهم قد عرفوا ان اصدقاءه المغول، صاحب بلاد الشمال لم يسمح لهولاكو بالهجوم على بلاد الخليفة، وصاحب بلاد الشمال هو ابن عم هولاكو (بركة بن طوجي خان) الذي قاعدته الآن (السراي) قد اسلم على يد (الباخرزي) احد مشايخ الصوفية، واوصاه بالخليفة المستعصم بالله ،وكتب بركة الى الخليفة يعرفه ذلك، وانه يعاضده ويناصره، وانتظمت الصحبة بينه وبين الخليفة، فمر على (بركة) قاصدا بغداد، فاعترضه (بركة) ومنعه من ذلك وقال؛ ان الخليفة صاحبي، فلا سبيل الى وصولك اليه. وان لم ترجع عنه حاربتك، فتوقف هولاكو حينئذ عن قصد بغداد سنتين حتى مات بركة، فقصد بغداد حينئذ»[٨].

---

(٧) ابن العلقمي هو مؤيد بن محمد (وقيل احمد) ابو طالب بن العلقمي ادعى من اسد نيل الفرات ولاء.

(٨) القلقشندي: مآثر الانافة في معالم الخلافة ج٢ ص٨٩

ان الزحف المغولي، ليس وحده هو الذي كان يجب ان يثير الخليفة ووزراءه وقادته وامراء جنده، فمنعه احد قادة المغول الذي اسلم، انما هناك زحف سبق هذا الزحف، وهو اقرب الزحوف الى الزحف الاخير، كان قد قام به هولاكو وجيشه المغولي عام ٦٥٠هـ، كما يقول ابن الفوطي عن حوادث ٦٥٠هـ: «.. وفيها وصلت عساكر المغول الى اهل الجبال، واوقعوا بالاكراد وغيرهم، وقتلوا واسروا ونهبوا وسلبوا، وسارت طائفة منهم الى ان بلغوا حران، فاغاروا على ما هناك ثم عادوا، فصادفوا قفلا واصلا من الروم نحو بغداد فقتلوا من فيه ونهبوا الاموال، فكتب ابن الصلايا والي اربل الى بغداد بذلك، فخاف اهلها خوفا شديدا واما المغول فعادوا الى منازلهم باذربيجان وغيرها»[9] ولا يشك ان هذا الزحف قد علم به الخليفة المستعصم لأنه حدث قبل ست سنوات من الزحف الاكبر نحو العراق، وحصار بغداد. فقد بلغ الزحف الى (درتنك) المتاخمة لجبال العراق من ناحية الشمال، وهدد هولاكو حاكم (درتنك) حسام الدين عكه، وطلب منه تقديم فروض الطاعة له، فكاتب حسام الدين عكه، حاكم (درتنك) الخليفة المستعصم بالله بوساطة من الشريف العلوي حسام الدين بن صلايا. لكن هولاكو عرف بهذه المحاولة «.. ولما بلغ هولاكو هذا الكلام ثارت سورة غضبه واوفد (كيتوباق) مع ثلاثين الف من الفرسان لدفعهم. فاحتال هولاكو على احضار حسام الدين (بن عكه)، وطلب منه تخريب جميع القلاع ليتحقق له معنى الطاعة، فخرب القلاع بعد ان انزل نساءه وابناءه واتباعه وجنوده. ولم يقنع هولاكو بهذا، بل امر بقتله مع كافة اتباعه واشياعه ما عدا اهل القلعة التي كان فيها ابنه الامير (مسعد) الذي هرب حتى قتل في حرب بغداد»[10] ان مثل هذه المذبحة لا يمكن الا ان عرف بها الخليفة، اما عن طريق الوزير الفارسي ابن العلقمي الذي كان لم يزل غير غاضب ولا

(٩) ابن الفوطي: الحوادث الجامعة ص٢٦٢

(١٠) رشيد الدين الهمذاني: جامع التواريخ ج٢ قسم ١ ص٢٧٨

حانق على الخليفة وابنه والخلافة، لأن فتنة بغداد التي اغضبت واحنقت ابن العلقمي لم تكن قد وقعت بعد، اذ انها قد وقعت سنة ٦٥٤هـ، بينما مهاجمة اهل الجبال (شمال العراق) من شرق الموصل وما جاورها قد وقعت سنة ٦٥٠هـ. واذا لم يكن الخليفة المستعصم قد علم خبر هذا الزحف والهجوم والذبح والتشريد والتدمير بأهالي الجبل من الاكراد، فأنه لاشك قد عرفه من (مسعد) ابن حسام الدين عكه الذي هرب الى بغداد. وان لا، فمن الناس عامة، لأنه خبر هذه المذبحة والدمار ذاع بينهم، حتى لو كتمه الوزير الفارسي ابن العلقمي، ولم يطلع الخليفة على تفاصيله، ومجالس الخليفة عامرة بالشعراء والادباء والعلماء والندمان والفضلاء والمؤرخين؛ ولا يمكن ان لا يدور الحديث حول هذا الموضوع في يوم من الايام، حتى يبقى سراً من الاسرار، ونحن لا نستبعد علم الخليفة خبر هذا الهجوم على اهالي الجبل الاكراد من سفراء الخليفة او سفراء اصحاب الولايات او الاقطاعات بمختلف الصور، مهما حاول الوزير الفارسي ابن العلقمي ان يتستر على هذا الحدث وخبره، حتى لا يهم الخليفة همته العالية او الواطئة، وحتى لا يعزم على التحفظ والاحتياط، والاحداث كانت تترى سراعا والزحف المغولي لم يكن صامتاً، وان كان سريعاً، فهو كالنار التي تستعر في الهشيم، واطراف الدولة العربية العباسية، وان كانت تمزق بايدي الولاة المستقلين او المنفصلين، الا ان اخبارها ليست بعيدة عن مركز الخلافة العباسية، باعتبارها من شؤونها وادارتها لأنها في اقل تقدير متاخمة لحدود الدولة العباسية الجديدة التي قضمت اطرافها بحيث اصبحت هذه الدولة العباسية العظيمة، دولة لا تشمل سوى العاصمة بغداد، وما يجاورها من المدن والقرى والبساتين.

ويعترف رشيد الدين الهمذاني وزير هولاكو ومؤرخ تاريخ المغول بأن اصحاب الولايات العربية كانوا على اهبة الاستعداد لنجدة الخليفة ان اراد منهم النجدة لقتال هولاكو؛ «واستدعى هولاكو حاكم (درتنك) حسام الدين عكة لتقديم فروض الطاعة، فارسل حسام الدين عكه، ابن صلايا العلوي الى

حاكم اربل ليصلحه مع ديوان الخليفة قائلا: لقد قدرت هولاكو خان، وما هو عليه من كفاءة وكياسة، ومهما يكن له من العنف والتهديد، فليس له عندي قدر ولا وزن، فلو طيب الخليفة خاطري وطمأن قلبي، وبعث الى بجيش من الفرسان لجمعت انا ايضاً ما يقرب من مائة الف من فرق المشاة من كرد وتركمان، وسددت الطرق في وجه هولاكو خان ولا ادع اي مخلوق من جنده يدخل بغداد»[11].

الوزير ابن العلقمي ورجال الخليفة جميعا يجتمعون ويتشاورون في امور الخلافة وشؤون الدولة وزحف هولاكو وجيش المغول، بالرغم من كل الصراع الذي كان يدور في السر او في العلن، والاجتماع يكون اما عند الوزير الفارسي ابن العلقمي او عند الدوادار مجاهد الدين التركماني او عند الخليفة، وان لم يجتمعوا برغبتهم للمدارسة والمشاورة فالخليفة نفسه، يدعوهم لمشاورتهم.. يقول الهمذاني: «فاضطرب الوزير لهذا الكلام وايقن ان دولة العباسيين سوف تزول، واذا كان ادبار هذه الدولة سيكون في عهده، فأنه طفق يتلوى كالثعبان ويفكر في كل تبرير. وقد اجتمع عند الوزير امراء بغداد وعظماؤها مثل سليمان شاه بن برجم وفتح الدين بن كره، ومجاهد الدين الدوادار الصغير واطلقوا السنتهم بقدح الخليفة وطعنه قائلين انه صديق المطربين والمساخرة، وعدو الجيوش والجنود. واننا امراء الجيش بعناكل ما ادخرناه في عهد والده»[12].

الوزير والدوادار وامراء الجيش، كلهم من غير العرب، الاعاجم الفرس، والغلمان التركمان الذين لا تربطهم رابطة تاريخية او لغوية او مواطنة بالدولة العربية، اضافة الى شعورهم بالاضطهاد بالرغم من كونهم من ارستقراطية الفرس والتركمان الذين يقابلون ارستقراطية العرب، لكنهم بالتأكيد يشعرون بالضعة والصغار امام العرب، الذين يستعلون عليهم باعتبارهم

(۱۱) رشيد الدين الهمذاني: جامع التواريخ مج۲ قسم۱ ص۲۷۳
(۱۲) رشيد الدين الهمذاني: جامع التواريخ مج۲ قسم ۱ ص۲۷۳

اصحاب الدولة. لكن مع ذلك لم يستنفروا ولم يهبوا هبة بطولية للدفاع عن الوطن الذي يعيشون في ظلاله، فقد «قال سليمان شاه: اذا لم يقدم الخليفة على دفع هذا الخصم القوي، ولم يبادر الى طلب العون والمساعدة، فسيتغلب جيش المغول - عن قريب - على بغداد، وحينئذ لا يرحمون اي مخلوق، كما فعلوا ذلك بسائر البلاد والعباد، فلا يبقون على اي شخص من الحضر كان او من البدو، قوياً كان ام ضعيفاً، وسيخرجون ربات الخدود من ستر العصمة، ولو ان لم يحدقوا بجميع الجهات لكان من السهل حشد الجنود من الاطراف، ولحملت عليهم بجيش في غارة ليلية، وشتتت شملهم، ولو جرت الامور على خلاف ذلك، فاولى بالفتى ان يقتل في حومة الوغى في عزة وشرف»[١٣].

اننا ندرك من هذا الحديث الذي عرفه او سمع به وسجله الهمذاني مؤلف كتاب جامع التواريخ، ان امراء الجيش العربي العباسي كانوا يعرفون بزحوف هولاكو والمغول واحتلالهم البقاع الفارسية والعربية، وتدميرهم للقلاع وقتلهم للعباد؛ اي ان المجازر الوحشية التي ارتكبها هولاكو والمغول لم تكن خافية على رجال الدولة العباسية وامراء الجيش العباسي، بل كانوا يعرفونها حق المعرفة لكنهم لم يفعلوا ما يقدرون عليه واكثر مما يقدرون عليه باعتبارهم المسؤولين عن كيان الدولة وحياة الناس. لأن الخطر داهم على البلاد، ولا مفر من وقوعه - ولا يمكن ان يكون التسليم بسهولة، خاصة اذا كان هناك اعتداد بالنفس، وايمان بالقوة والقدرة على القتال.. فأن مثل هذا الاعتقاد لا يبيح التفكير بالتسليم والتفكير بالتسليم لا يبيح الاعتداد بالنفس. وهذا هو ما يمكن تحديده، بل حتمية تحديده في نطاق معرفة الخليفة، لكن الخليفة كما يبدو لنا خلال الاستقراء للاحداث، انه لا حول له ولا قوة مادية او معنوية، فهو مضروب على يديه ولا رأي له امام قوة رأي الوزير الفارسي ابن العلقمي ورجال دولته الآخرين من الفرس والغلمان السلاجقة، وانه ايضا لم يقو على انهاء الصراع بين ارستقراطية

(١٣) رشيد الدين الهمذاني: جامع التواريخ مج٢ قسم١ ص٢٧٤

العرب وارستقراطية الفرس وارستقراطية الغلمان السلاجقة، وهو كذلك لم يكن ذا قدرة على صد الخطر المحدق بالسيادة العربية، بعد ان قلص عدد جند الخلافة، اذ ان الضرورة كانت تقتضي العودة الى سابق عدد الجند وقوتهم وميرتهم ورواتبهم، وهو الذي يعلم ان اباه الخليفة المستنصر بالله كان قد كثر عدد جند جيشه، وقواه، وبذل لهم الرواتب والميرة لتوقعه هجوم المغول واصطدامه بهم، واضافة الى ذلك كان المستنصر بالله يقدم الهدايا والتحف والجواري والغلمان والخيول الى هولاكو وابنائه وقادة جيشه مصانعة له وارضاء لقادة جيشه ودفع شرهم والوقاية من خطرهم، ولا شك ان عم الخليفة المستعصم بالله،(الخفاجي)، الذي كان يتمنى ان يكون خليفة، ليقاتل المغول ويردهم عن حدود دولته، كان ايضاً احد الذين يدلون برأيهم، فلم يسمع له رأي بل اجريت محاولات لاسكات هذا الصوت الثوري الذي تمكنوا من كبته منذ ان نجحوا في ابعاد صاحب هذا الصوت عن الخلافة، بعد ان توفي المستنصر بالله، فوقع اختيار هؤلاء المتصارعين المتآمرين على المستعصم بالله، لأنه ضعيف الهمة، يسهل قياده وانقيادع لتحقيق مآربهم الخسيسة عن طريق المؤامرة والدسيسة، وقد تمكنوا فعلا من الدس على الخلافة،واثاروا والفتن وسببوا المحن، حتى اشاعوا روح البغضاء بين الشعب الواحد، وفرقوه الى ملل ومذاهب، وموالي واسياد، حتى يتمكنوا من ضرب بعضهم بالبعض الآخر، وحتى يضطرب حبل الامن، وتتلبد الاجواء وتغيم السماء الخلافة، فيدلهم الظلام، وتتعكر المياه، فيسهل فيها الاصطياد. ولقد نجحوا فعلاً واماطوا اللثام عن نواياهم، ورفعوا القناع عن وجوههم، واسفروا عنها فبان الغضب عليها والحنق، وظهر الحقد واللؤم في تصرفاتهم التي قادت البلاد الى الخراب. ولم تضع البلاد انما هم هؤلاء المتصارعون الغرباء قد ضيعوها، ولم تستسلم السيادة، ولكنهم هم الذين سلموها، ولم يصب احد هؤلاء الندم، لأنهم كانوا يعرفون المآل.وحتى وان ندموا، فماذا يقدم هذا الندم وما يؤخر. . وذلك كله لنيل

المكاسب، وتحقيق المآرب وكسب المغانم الذي تحقق فعلا بعد سقوط الخلافة العربية العباسية واحتلال بغداد وسبي العباد واستباحة النساء وقتل الاعيان والمقاتلين المدافعين عن بغداد وجميع الرجال القادرين على حمل السلاح. . او التصدي للمغول، او حاول الهروب، الا الوزير الفارسي ابن العلقمي الذي صال وجال مع سميه الفارسي الآخر العالم الفلكي الذي سلم قلاع الاسماعيليين، واشرف على مجزرتهم وذبحهم. . انه نصير الدين الطوسي، مع بضع عشرات من الانفار من الجواسيس التجار الذين نالوا فرمانات الامان جزاء خدماتهم التجسسية لهولاكو وجيش المغول في احتلال بغداد واطفاء شمعة الحضارة العربية الاسلامية الانسانية العطاء.

ابعاد الخفاجي اخي المستنصر بالله

لقد كان الخليفة العباسي المستنصر بالله قد اعاد الى الدولة العربية العباسية بعض هيبتها وقوتها، فرفع عدد افراد الجند الى مائة الف جندي، وقد تمكن من ان يبسط سيطرته على دار الخلافة في الداخل، فيحجم قدرات تدخل الاعاجم من موالي الفرس وغلمان التركمان واغواتهم، ويجهز على محاولاتهم التآمرية، ويلتفت الى خارج حدود العراق، فيرى رقعة الدولة العربية قد انحسرت وتمزقت الى اجزاء واقطاعات ودويلات يعترفون بالخليفة اميراً للمؤمنين او لا يعترفون، فأخذ يمد يديه ليسحب لجام امراء وملوك وسلاطن تلك الدويلات او الاقطاعات. وقد بلغ من اهتمام الخليفة المستنصر بالله بأمور الخلافة والاصلاحات الداخلية، انه قرب اهل العلم والدين، وبذل الانصاف في القضايا ونشر العدل في الرعايا وبنى المساجد والربط والمدارس والمارستانات. وهو الذي انشأ المدرسة المستنصرية التي ما تزال بنايتها قائمة في بغداد لحد هذا اليوم، اما الامور السياسية فأنه قام بقمع حركات المتمردين وحارب الفتن، وقام

بـأمر الجهـاد وجمع الجيـوش لنصرة الاسلام، وحـافظ على الثغـور، وافتتـح الحصون[١٤] التي كان يسيطر عليها الروم خلال الحروب الصليبية وغيرها، وهم يتربصون برقعة الدولة العربية العباسية، ويهاجمون ثغورها ومدنها، ويحاولون بسط نفوذهم عليها، الا ان المستنصر بالله كان قد تمكن من ايقاف هذا الزحف الـرومي ضد الاراضي العربية، واوقف امتدادهم. وقد اصطدم المستنصر بالله بالمغول فهزمهم هزيمة عظيمة.

واذ صار المستعصم بالله (ابن) الخليفة المستنصر بالله خليفة للمسلمين واميراً للمؤمنين، فأنه ترك مقاليد البلاد الى وزيره الفارسي وكتابه وامراء دواوينه وامـراء جنده من الفـرس او السلاجقـة وفقهائـه، وهؤلاء هم الذين كـانت تتنازعهم المصالح الذاتية، والمطامع الفردية، ولا يهمهم من الخلافة الا ما ينالون من مكاسب. فاستشاراتهم متناقضة. . وآراؤهم متباينة. وهكذا آل الامر امام الخليفة حينما بدأ الزحف المغولي نحو بغداد واخذت المـراسلات والمكـاتبات والمفاوضات تجري بين الفريقين: هولاكو من جهة و الخليفة المستعصم بالله من جهة ثانية، ولو كان موقف الخليفة المستعصم بالله صلبا وحجته قوية، لتمكن من اقناع وزيره وكتابه وامراء جنده وفقهائه وقضاته في الوقوف معه موقفاً مشرفاً في الدفاع عن الخلافة وحماية بغداد، ولأبوا احتلال بغداد، وسقوط الخلافـة العربية العباسية. لكنهم لم يكونوا كذلك، لأنهم ما كانوا يتعاطفون مع هذه السيادة التي لا تمثلهم. ومن جملة هذه المواقف انه «عندما وصل الرسـل الى حضرة هولاكو خان، وعرضوا عليه كل ما شاهدوه غضب الملك، وقال: ان الخليفة ليست لديه الكفاءة قط، اذ انه معنا كالقوس الاعوج، فلو امدني الله الازلي بعونه فسوف اجعله مستقياً كالسهم»[١٥]. ثم «عاتب هولاكو خان الخليفة

---

(١٤) السيوطي: تاريخ الخلفاء ص٤٦١

(١٥) رشيد الدين الهمذاني: جامع التواريخ مج٢ قسم١ ص٢٧٠

قائلا: لقد فتنك حب الجاه والمال والعجب والغرور بالدولة الفانية، بحيث انه لم يعد يؤثر فيك نصح الناصحين بالخير، وان في اذنيك وقراً، فلا تسمع نصح المشفقين، ولقد انحرفت عن طريق آبائك واجدادك، واذن فعليك ان تكون مستعداً للحرب والقتال، فأني متوجه الى بغداد، بجيش كالنمل فتلك هي مشيئة الله العظيم.

وبعد ان وصل رسل بغداد، بلغوا رسالة الملك الفاتح الى الوزير، فعرضها برمتها على الخليفة، فقال: ماذا ترى لدفع هذا الخصم القاهر القادر، فأجاب الوزير: ينبغي ان ندفعه ببذل المال، لأن الخزائن والدفائن تجمع لوقاية عزة العرض وسلامة النفس، فيجب اعداد الف حمل من نفائس الاموال والفاً من نجائب الابل والفاً من الجياد العربية المجهزة بالآلات والمعدات وينبغي ارسال التحف والهدايا في صحبة الرسل الكفاة والدهاة مع تقديم الاعتذار الى هولاكو، وجعل الخطبة والسكة باسمه»[16]. لكن هذا الرأي لم يعجب الخليفة، كما لم يعجب كتابه وامراء جنده وفقهائه وقضاته، لذلك، قرر ان لا يرسل مثل هذه الهدايا والاموال، «وارسل الى الوزير يقول: لا تخش القضاء المقبل، ولا تقل خرافة، فأن بيني وبين هولاكو خان واخيه منكوقآان صداقة والفة، لا عداوة وقطيعة، وحيث انني صديق لهما، فلا بدأنهما ايضا يكونان صديقين وموالين لي، وان رسالة الرسل غير صحيحة، اما اذا اضمر الاخوان لي خلافاً وغدراً، فلا ضير على الاسرة العباسية، اذ ان ملوك الارض هم بمثابة الجنود لي، وهم منقادون ويطيعون لامري ونهيي، فادعوهم من كل قطر، واسير لدفعهما، واثيرأيران وتوران عليهما، فقو قبلك ولا تخافن تهديد المغول ووعيدهم، فأنهم رغم كونهم ارباب دولة واصحاب شوكة الا انهم لا يملكون سوى الهوس في رؤوسهم والريح في اكفهم»[17]

---

(١٦) رشيد الدين الهمذاني: جامع التواريخ مج٢ قسم١ ص٢٧٠ ـ ٢٧٢

(١٧) كذلك: ص٢٧٣

الخلافة العباسية محط انظار اركان السلطة ورجالها المتصارعين، وهم جميعا يتحينون الفرص للأيقاع بالخليفة وافساد امر الخلافة، حتى وصل الامر الى ان الجواري والغلمان كانوا يوقعون بالخلفاء، بعد ان تمكنوا من تولي المناصب العالية والتنفيذية، او مؤثرين في هؤلاء. وقد تكون امهات الخلفاء عونا لهؤلاء الجواري والغلمان في افساد شؤون الخلافة وتنحية بعض الخلفاء وخلع خلفاء آخرين او قتلهم وتنصيب خليفة آخر، ترضى عنه ام الخليفة والموالي الاعاجم من الفرس او السلاجقة. ولما كان المستنصر بالله يعتبر من الخلفاء العباسيين الذين حاولوابعث الدماء الحارة في جسم الخلافة، واعادة بعض الهيبة والقوة لها، وقد تمكن هو بالذات من كف يد الشر وتحجيم القوى المقدسة من الرتل الخامس المتمثل بالوزراء والكتاب وامراء الجند، بل اخذ يكثر من عدد جند الجيش العباسي، لأنه كان يعلم بتقدم هولاكو وجيشه المغولي، وهم يقضمون اطراف الدولة العربية، ويسيئون الى المدن ويخربون الحصون، وينهبون ويقتلون، ويسبون ويستبيحون. وقد بلغ عدد جند الجيش العباسي في عهده، حسب ما يقرره المؤرخون، مائة الف جندي(١٨). وهذا معناه ان الخليفة المستنصر بالله كان يتوقع زحف وهجوم هولاكو والجيش المغولي. لذلك قرر هذا العدد ومونه وقواه من اجل حماية المدن المحيطة بالعاصمة بغداد.

ولاشك ان مثل هذا الامر لا يفيد، ولا يعني المتصارعين خاصة الاعاجم الذين يشعرون بأنهم من ادنى المستويات في السلم الاجتماعي. وهم ان اجتمعوا للتشاور فأنهم يجتمعون لأبعاد ليس خطر الحرب عن البلاد، انما خطر هذا الخليفة القوي الحازم ذي الهمة العالية. ولأنه لم تسنح لهؤلاء الفرصة لأبعاده او تحجيم قواه او تحديد تحركاته او خلعه او وضع الحجر عليه او قتله، فأنهم كانوا ينتظرون موته، ولو تمكنوا لدسوا له السم، لكنهم لم يقدروا واخذوا يستعرضون

---

(١٨) القلقشندي: مآثر الانافة في معالم الخلافة ص٨٩ واليونيني: مرآة الزمان: ص٨٧ وابن كثير: البداية والنهاية ج١٣ ص١٩٦ وابن الوردي: تاريخ ابن الوردي ج٢ ص١٩٥



اشخاص بيت الخلافة، ويفكرون في ولاية الخلافة بعد وفاة الخليفة المستنصر بالله. فالخليفة المستنصر بالله «كان ذا همة عالية وشجاعة وافـرة، ونفس ابية وعنده اقدام عظيم واستخدام من العساكر ما يزيد على المائة الف، وقصدت التتر بلاد العراق في ايامه فلقيهم عسكره، وانتصف منهم وهزمهم»[١٩]. ولا شك ان مثيل هذه الشخصية ان يكون خليفة واستمراراً لمثل هذا الخليفة يكون وبالاً على رجال الخلافة واركان السلطة فيها، وتحل الطامة الكبرى عـلى مصالحهم الستراتيجية (البعيدة الاهداف) والتاكتيكية (القريبة الاهداف) ايضاً. فلا بد والحالة هذه ان يدفعوا مثل هذه الشخصية عن سدة الخلافة. وقد كان للخليفة المستنصر بالله اخ بمثل شخصيته، وتحسباً من احتمال اتباع سيرة المستنصر بالله وقراراته، فيما اذا جاء الى الخلافة، قرر رجال الدولة من وزير الى دوادار الى امراء الجند ان يختاروا شخصا لا يتمتع بهذه المزايا التي يتمتع بها اخو الخليفة المعروف (الخفاجي)، لأن الخفاجي شاب فتي في عنفوان الشباب وفتوته، وحدة الذكاء وقوته وعمق الشعور بالمسؤولية وعنف الثورية، والخفاجي ايضاً «يزيد عليه - اي على اخيه الخليفة المستنصر بـالله - في الشهامـة والشجاعـة، وكان يقول: ان ملكني الله تعالى امر الأمة، لاعبرن بالعساكر نهر جيحـون وانتزع البلاد من يد التتر وافنيهم قتلاً واسرًا وسبياً.. فلم ير الدوادار والشرابي وكانا غالبين على الامر، ولا بقية ارباب الدولة تقليد الخلافة، خوفاً منه، ولما يعلمون من استقلاله بالامر، واستبداده بالتدبير دونهم، وآثروا ان يليها المستعصم بالله، لما يعلمون من لينه وانقياده ليكون الامر اليهم، فأتفق رأي ارباب الدولة على تقليد المستعصم بالله الخلافة بعد ابيه فتقلدها واستبدوا بالتدبير»[٢٠].

---

(١٩) اليونيني قطب الدين ابو الفتح موسى البعلبكي: ذيل مرآة الزمان ص٢٥٤

(٢٠) اليونيني: ذيل مرآة الزمان ص٢٥٤

انها اذن المؤامرة التي جعلت الوزير والدوادار وامراء الجيش يتشاورون ويتدبرون الامور من اجل ابعاد القوي وتقريب الضعيف لاخضاع الخلافة والخليفة الى نفوذهم بالرغم من الاختلافات التي كانت بينهم، والتناقضات التي تتحكم في تحركاتهم وتصرفاتهم. لكنهم ان اختلفوا فيما بينهم على اهداف الصراع، فأنهم متفقون على القضاء على السيادة العربية، لأن السيادة العربية طعنة في خاصرة الفرس الذين لم يملأ الاسلام قلوبهم بحب التآخي ولم يفتحه بحب الأمان والسلام، والسيادة العربية ايضا شوكة في عيون الموالي من الغلمان الاتراك الذين كانوا يشعرون بأن الاسلام والسيادة العربية قد مزقت سيادتهم القومية، ووثنيتهم المجوسية التي طغت عليها الرسالة المحمدية الرفيعة القيم. وان عنجهية الكسروية قضى عليها دين التوحيد، فهم اذن يحقدون على كل العرب وعلى السيادة العربية التي انتزعت سيادتهم القومية، ولم يؤمنوا بالاسلام الذي كان عونا للعرب في بسط السيادة العربية، وقد اثبتت الوقائع التاريخية ان الكثير من افراد الارستقراطية الاعجمية فرساً كانوا ام تركمان وعامتهم ايضا قد انضووا في تجمعات شعوبية مناهضة للعرب، وانتموا الى انتفاضات وثورات دينية او مذهبية طائفية وانهم ايضا قد انحازوا الى تلك الثورات ليس بالدافع الثوري الاصلاحي، او الانقلابي الاجتماعي، انما سعوا الى اسقاط الدولة، والقضاء على السيادة العربية، وتشجيع البدع الدينية وابرازها بمظهر الدين الجديد الذي وصل درجة تأليه بعض الشخصيات حتى الاعجمية مما يتناقض وجوهر الدين الاسلامي الذي يرفض اضفاء القدسية الاسطورية التي تخالف كل مفاهيم الرسالة المحمدية السامية الاهداف، الرفيعة الافكار، القويمة المبادىء. وبهذا السعي الدائم الدؤوب، تمكن هؤلاء الموالي، طيلة قرون، من تحقيق مآربهم في اسقاط الخلافة العباسية وازالة السيادة العربية وتدمير الحضارة العربية الاسلامية الانسانية العطاء، منذ ان تمكنوا من اسقاط الخلافة الاموية، فاثبتوا قدرتهم على ازالة السيادة العربية.

تخفيض عدد جند الخلافة

بعد ان اكتشفت عناصر الرتل الخامس التخريبي ، ان عدداً من الخلفاء العباسيين كانوا يتميزون بالحنكة السياسية والقوة والادارية والحزم العسكري، وان الدولة العباسية المترامية الاطراف، اصبحت فناراً منيراً على العالم اجمعين، فبدد دياجير ظلمات الجهل، حاولت هذه العناصر التخريبية من تحديد سلطة الخليفة، او السيطرة عليه وخدعه واغرائه بالقيام بالاعمال التي تشل من قوة الدولة. وكان امر الجيش العباسي قضية مهمة في هذا الحساب. وفي اواخر عهود الخلافة العباسية، بدأ التفكك يدب في كيان الدولة، وبدأت الولايات تنعزل او يستقل بها ولاتها جزئيا او كلياً، فينتبه خليفة ويهمل خليفة آخر شأن الجيش، او ينتبه الخليفة نفسه في فترة لهذه الجيش ويهمله في فترة اخرى، وكان آخر من سجل نقطة تحول في تجديد الحياة الى الجيش العباسي، وبث الحيوية في تنظيماته، هو الخليفة المستنصر بالله، ابو الخليفة المستعصم بالله. وذلك بعد ان تمزقت الدولة العباسية، وبدأت السيادة العربية تفقد نفوذها، واخذ التشرذم ينتاب هذه الدولة فانحسرت الى ولايات واقطاعات ولم يبق من حدود دولة الخليفة سوى اصغر جزء من العراق، لا يبعد عن تكريت شمالا الا باليسير من الاميال، ولا يمتد غربا الى اكثر من (عنه) ولا ينبسط شرقا الا الى جلولاء، وظهر خطر جديد بدأ يهدد هذه الدولة المنكمشة على نفسها اثناء ما كان الولاة او الامراء يقضمون او يبتلعون الولايات والمدن من اطراف الدولة، وقد كان هذا الخطر هو هولاكو وجيش المغول الذي شرع يزحف من الشرق باتجاه الغرب. وحينما تمكن هولاكو من تحقيق نقلة عسكرية كبيرة جدا في بسط نفوذه السياسي على كل ما وراء النهر، مما كان جزء من الدولة العربية العباسية. وبذلك اصبح هولاكو بجيشه المغولي المتوحش قريبا جدا من تخوم العراق بحدوده الضيقة الجديدة التي

وصل اليها، فأخذ ينهشها نهشاً متفاوتاً. لذلك قرر الخليفة المستنصر بالله رفع عدد الجند الى مائة الف جندي، للتمكن من صد زحف المغول المحتمل، ومحاولة ردهم عن تخوم الدولة ومقاتلتهم واستخلاص الاراضي التي بسطوا هيمنتهم عليها. لكن بطانة الخليفة المستعصم بالله، لن تلتفت الى هذا الأمر وتركت مهمته الى الخليفة - اذا احسن الظن بهم - الذي اقتنع برأي وزيره الفارسي ابن العلقمي بانقاص عدد الجند الى عشرين الف فقط، فلم تحرك بطانة الخليفة ولا امراء الجند، ساكناً في هذا الحدث المهم والكبير، بالرغم من وجود خطر داهم اصبحت عاصمته همذان، وهي قاعدة الانطلاق العسكري، وبالرغم من نهشه المتفاوت لتخوم الدولة العباسية الضيقة الحدود اذ «كان الخليفة قد اهمل حال الجند ومنعهم ارزاقهم واسقط اكثر من دساتير ديوان العرض فآلت احوالهم الى سؤال الناس وبذل وجوههم في الطلب في الاسواق والجوامع، ونظم الشعراء في ذلك الاشعار»[٢١] ويقول ابن كثير: «وكان الوزير ابن العلقمي قبل هذه الحادثة يجتهد في صرف الجيوش واسقاط اسمهم من الديوان، فكانت العساكر في آخر ايام المستنصر بالله قريباً من مائة الف مقاتل منهم الامراء من هو كالملوك الاكابر الاكاسر، فلم يزل يجتهد في تقليلهم الى ان لم يبق سوى عشرة آلاف، ثم كاتب التتر واطمعهم في اخذ البلاد.. وان يبيد العلماء والمفتين»[٢٢].

ويقول الكتبي: «وكان الخليفة قد اهمل حال الجند ومنعهم ارزاقهم فآلت احوالهم الى سؤال الناس وبذل وجوههم في الطلب في الاسواق والجوامع». ويقول القريزي: «.. فقام من بعده في الخلافة ابنه المستعصم بالله ابو احمد عبدالله، وقام بأمره اهل الدولة، وحسنوا له جمع الاموال واسقاط اكثر الاجناد،

---

(٢١) ابن الفوطي: الحوادث الجامعة ص ٣١٩

(٢٢) ابن كثير عماد الدين ابو الفداء: البداية والنهاية ج١٣ ص١٩٦

فقطع كثيرا من العساكر[٢٣]. ويقول ابن خلدون: «وضاقت الاحوال على المستعصم فاسقط اهل الجند وفرض ارزاق الباقين على البياعات والاسواق وفي المعايش فاضطرب الناس وضاقت الاحوال وعظم الهرج ببغداد»

. . ثم يقول عن الوزير ابن العلقمي «. . فآسفه ذلك وتربص بالدولة واسقط معظم الجند، يموه بأنه يدافع التتر، بما يتوفر من ارزاقهم في الدولة»[٢٤].

ويقول القلقشندي: «ولما ولي الخلافة استبد كبراء دولته بالأمر، وحسنوا له قطع الاجناد. . وابطل العسكر. . وكان عسكر بغداد قبل ولاية المستعصم بالله مائة الف فارس، فقطعهم المستعصم ليحمل الى التترمتحصل اقطاعاتهم، فصار عسكره دون عشرين الف فارس»[٢٥]. ويقول ابن الوردي: «وكان عسكر بغداد مائة الف فارس فحسن ابن العلقمي وامثاله للمستعصم قطعهم. . فصار عسكر بغداد دون عشرين الف فارس»[٢٦]

ويقول اليونيني: «. . وكان المستنصر بالله ـ رحمه الله ـ قد استكثر من الجند حتى قيل انه بلغ عد عسكره نحو مائة الف، وكان منهم امراء اكابر يطلق على كل منهم لفظ الملك، وكان مع ذلك يصانع التتر ويهاديهم، فلما ولي المستعصم، اشير عليه بقطع اكثر الجند، وان مصانعة التتر وحمل المال اليهم

---

(٢٣) المقريزي تقي الدين احمد بن علي: كتاب السلوك لمعرفة دول الملوك ج١ قسم٢ ص٣١٢
(٢٤) ابن خلدون: كتاب العبر وديوان المتبدا والخبر مج٣ ص١١٠٥
(٢٥) القلقشندي: مآثر الانافة في معالم الخلافة ص٨٩
(٢٦) ابن الوردي: تاريخ ابن الوردي ج٢ ص١٩٥ وابو الفداء: المختصر في تاريخ البشر ج٣ ص١٩٣

يحصل به المقصود ففعل ذلك وقلل من الجند»[٢٧].

ان تقليص عدد جند الخلافة، معناه ان الدولة، تصبح في كفة القدر، اذ لا قدرة لها بهذا الجيش الصغير في مقاومة اي خطر داهم، يتربص على التخوم كما هو الحال في الزحف المغولي، وترصده على التخوم بعد ان استقلت او اقتطعت الكثير من الولايات والاقطاعات، فضعفت الدولة من ناحية، وتقلصت حدودها وتراجعت الى الوراء حتى باتت متاخمة لحدود دول صغيرة متنافرة، يسهل قضمها وابتلاعها، واختراقها ايضا للوصول الى العاصمة بغداد التي وهبت الانسانية حضارة تعتبر احدى اكبر الحضارات المعطاء.

تنازلات سياسية

بعد ان كان كل ملوك الارض وسلاطينها يخافون أو يحترمون الخلفاء العباسيين، ويهابون دولتهم، فيقدمون لهم الجزية والهدايا، او يتهادون على قدم المساواة تعبيرًا عن الود وحسن الجوار ودفعاً للمخاطر، صار الخلفاء العباسيون المتأخرون هم الذين يقدمون الهدايا والاموال المقاربة للجزية لهولاكو، ليس تعبيراً عن الود او حسن الجوار، انما دفعاً لشره، وخوفاً من مداهمته. وقد كان المستنصر بالله يقدم هذه الهدايا والاموال والجواري والغلمان والخيول العربية الاصيلة الى هولاكو، كما كان الخلفاء العباسيون المتأخرون يتوددون الى اصحاب الولايات او الاقطاعات التي انفصلت عن الدولة استقل بها اصحابها ويتجنبون اغضابهم. ومع حزم وحنكة الخليفة المستنصر بالله الا انه «مع ذلك يصانع التتر ويهاديهم، فلما ولي المستعصم بالله، اشير عليه بقطع اكثر الجند، وان مصانعة التتر وحمل المال اليهم يحصل به المقصود ففعل ذلك»[٢٨] . . «وقد حسن ابن

---

(٢٧) اليونيني: ذيل مرآة الزمان ص٨٧.

(٢٨) ابن العبري، غريغوريوس ابو الفرج الملطي: تاريخ مختصر الدول ص٤٧٢

العلقمي وامثاله للمستعصم قطعهم - اي الجند - ليحمل الى التتر متحصل اقطاعاتهم»[29] . . «ولما فتح هولاكو تلك القلاع - اي قلاع الاسماعيليين - ارسل رسولا اخر الى الخليفة وعتبه على اهماله تيسير النجدة، فشاور الوزير فيما يجب ان يفعلوه، فقال: «لا وجه غير ارضاء هذا الملك الجبار، ببذل الاموال والهدايا والتحف له ولخواصه، وعندما اخذوا في تجهيز ما يسيرونه من الجواهر والمرصعات والثياب والذهب والفضة والمماليك والجواري والخيل والبغال والجمال، قال الدوادار الصغير واصحابه، ان الوزير انما يدبر شأن نفسه مع التتر وهو يروم تسليمنا اليهم، فلا نمكنه من ذلك. فبطل الخليفة بهذا السبب تنفيذ الهدايا الكثيرة، واقتصر على شيء نزر لا قدر له»[30]. ويقول الكتبي: «فلما ولي المستعصم بالله اشير عليه بقطع الارزاق وان يصانع التتر ويحمل المال اليهم»[31] ويقول اليونيني: «. . وكان المستنصر بالله . . مع ذلك يصانع التتر ويهاديهم، فلما ولي المستعصم بالله اشير عليه بقطع اكثر الجند، وان مصانعة التتر وحمل المال اليهم يحصل به المقصود ففعل ذلك. .»[32] ويقول المقريزي: «. . وسالم التتر، وحمل اليهم المال. .»[33]. ويقول ابن الوردي: «فحسن ابن العلقمي وامثاله للمستعصم قطعهم - اي الجند - ليحمل الى التتر متحصل اقطاعاتهم»، وحسن له كبراء دولته . . جمع المال ومداراة التتر. .»[34]

ويقول ابن الفوطي: «فلما اتصل ذلك بالخليفة المستعصم شاوره وزيره (ابن العلقمي) فيما ينبغي فعله، فأشار ببذل الاموال وحملها اليه مع التحف الكثيرة والاشياء الغريبة والاعلاق النفيسة»[35]. ويقول القلقشندي: «. . ولما

(٢٩) الكتبي محمد بن شاكر: عيون التواريخ ج٢٠ ص١٣٠
(٣٠) ابن العبري: تاريخ مختصر الدول ص٤٧٢
(٣١) الكتبي: عيون التواريخ ج٢٠ ص١٣٢
(٣٢) اليونيني: ذيل مرآة الزمان ص٨٧
(٣٣) المقريزي: كتاب السلوك لمعرفة دول الملوك ج١ قسم٢ ص٣١٢
(٣٤) ابن الوردي: تاريخ ابن الوردي ص١٩٥
(٣٥) ابن الفوطي: التجارب النافعة ص٣١٩

ولي الخلافة، استبد كبراء دولته بالامر وحسنوا له. . مداراة التتر ففعل ذلك» ليحمل الى التتر متحصل اقطاعاتهم»[٣٦]. ويقول ابو الفداء: «. . فقطعهم - اي الجند - المستعصم ليحمل الى التتر متحصل اقطاعاتهم. . »[٣٧]. ويقول ابن كثير: «. . اشار الوزير مؤيد الدين ابن العلقمي على الخليفة بأن يبعث اليه بهدايا سنية ليكون ذلك مداراة له عما يريده من قصد بلادهم. . »[٣٨]. ويقول الكتبي «. . وكان مع ذلك يصانع التتر ويهاديهم» ثم يضيف: «فلما ولي المستعصم بالله اشير عليه ان يصانع التتر ويحمل المال اليهم، ففعل ذلك. . »[٣٩].

ان هذه الاقوال تثبت قطعاً ان المهاداة والمصانعة من الخليفة المستعصم بالله ومن والده المستنصر بالله قبله - كانت واقعة فعلا، وهذا دليل قاطع على ان الخليفة المستعصم قد اصيب بالخور والضعف، وعلى سوء ادارة الوزير وخبثه، وعماية القضاة وامراء الجند، وعدم فطنتهم، اضافة الى احتمال التواطؤ على اسقاط الدولة بعد ايقاع الخليفة في مأزق الخوف، والخلافة في مأزق الاستهداف وهذه نية فاسدة، للتآمر على الخلافة وسيادتها العربية. ولا يمكن ان يفسر الامر بغير هذا التفسير خاصة وان الصراع الثلاثي العربي - الفارسي - التركماني الموجود، يحمل في ثناياه التربص والايقاع من اجل ازالة السيادة العربية، وكسب المغانم الفردية، واستعادة الاحلام القومية الفئوية المناقضة للقومية العربية التي حطمت جبروت عسكرية الفرس وهمجية التركمان وكسرت شوكة الدول المجاورة جميعا غير ملتفتين الى ان الرسالة المحمدية هي التي كانت المحفز والدفاع لفتوح هذه البلدان وان العقيدة الاسلامية السامية ومبادئها الرفيعة لا

---

(٣٦) القلقشندي: مآثر الانافة في معالم الخلافة ص٨٩

(٣٧) ابو الفداء: المختصر في اخبار البشر ج٣ ص١٩٢ - ١٩٣

(٣٨) ابن كثير: البداية والنهاية ج١٣ ص١٩٧

(٣٩) الكتبي:عيون التواريخ ج٢٠ ص١٣٠

تبيح التآمر على من كان يحمل راية الاسلام، سواء كانوا عرباً او اعاجم. لذلك فأن موقف هؤلاء الاعاجم والموالي، المعادي للعرب حملة راية الرسالة المحمدية السمحاء، لا يوصف الا بأنه محاولة لوقف التيار الاسلامي الرافض لكل القيم البالية والوثنية السيئة او الثنوية او الزرادشتية او المجوسية وحتى الكونفوشية والبوذية، التي كانت منتشرة في ما وراء النهر وبلاد السند والصين حين وصل اليها المسلمون، فنشروا الاسلام فيها. ولا يمكن ان تكون مبدىء الاسلام الرفيعة وعقيدته السامية حافزاً لأثارة الفرقة والاختلاف والحرب والاقتتال. ولا يمكن ان توصف مثل هذه المواقف التي يقفها الموالي او الاعاجم المسلمون، بأنها مواقف سليمة وبريئة، وذات اهداف اصلاحية نبيلة. . بل ان مثل هذه المواقف لا يمكن الا وصفها بأنها منافية لأبسط المبادىء الاخلاقية والقيم الانسانية. وان دعم مثل هذه المواقف ايضاً وتشجيعها وتأجيجها يدل دلالة واضحة على غلو العداء الذي لا مبرر له ابداً.

الانتهازية السياسية

تتمثل في علاقات الولايات العربية المستقلة او المنفصلة عن الخلافة العباسية مواقف انتهازية لأن تلك المواقف متذبذبة قصداً وعمداً، بين فكرتين او مصانعة طرف لطرفين آخرين مختلفين او متناقضين. ويتمظهر الموقف الانتهازي سياسيا باللين والتأييد للطرف الثاني اذا تعامل معه. وبذلك يكون قد استبطن خلاف ما اظهر. فيكون سنداً ودعماً للاقوى او الطرف الذي يحقق عن طريقه فائدة اكبر ومكاسب اعظم خاصة اذا كان الصراع بين الطرفين المختلفين المتناقضين قد اوشك على الاندلاع، او انه اندلع فعلا فأن انتهاء الطرف الثالث الانتهازي هو الذي يكون حاسماً في تقرير نهاية الصراع، وتحديد مسيرته النهائية، وكثيراً ما يكون السكوت او الوقوف على التل كما يقال والتمرج على

احتدام الصراع، سبيلاً من سبل الانتهازية لأن هذا الطرف، او الاطراف الساكتة والواقفة على التل انما تريد ان تسلم بنفسها، فلا ينوشها اذى او ضرر من ناحية، وتريد القرار بعد حسم المعركة ايضاً وانتهاء الصراع وجني الثمار، بل حتى جمع اسلاب المعركة ومغانمها ثم الانتماء الى الطرف المنتصر. وهذا ما دفع فعلا ايام كان الزحف المغولي بقيادة هولاكو يتقدم بعد احتلاله لما وراء النهر، ويبدأ قضم اطراف الدولة العربية العباسية (الاسلامية) والدويلات والاقطاعات المستقلة او شبه المستقلة وسواء كانت ساكتة او تتفرج على نتائج القتال، وتنتظر حسم المعركة، واحيانا كانت تتفاوض مع الطرفين. لكن قد لا يكون الانتهازي مستفيداً في كل الظروف. فقد يجد الطرف المنتصر، ان ابتلاع هذا الانتهازي ضروري لأنه يمهد له الطريق للوصول الى غايات اخرى، وتحقيق انتصارات ونجاحات جديدة، فأن الطرف المنتصر لا يبالي بالمواثيق فيعمد الى ابتلاع هذا الانتهازي بالاجهاز عليه، مثلما حدث تماما لكل الدويلات والاقطاعات التي كانت تتاخم حدود دولة المغول الجديدة التي قامت في ما وراء النهر. والدولة العربية العباسية ذات الاصالة والتراث العريق في السيادة والحضارة تعرضت الى هذا الامتحان الصعب، وجود الطرف المعادي المقاتل ووجود الانتهازيين المتاخمين على الحدود. ومن اشهر تلك المواقف الانتهازية واهمها، هو ما حدث اثناء زحف هولاكو بجيشه المغولي من قاعدة ملكه همذان نحو قلاع الاسماعيليين الخمسين وقلعة آلموت وقلعة الدز.

ان مقدم الاسماعيلية، ارسل الى التتر يعرفهم ضعف جلال الدين بالهزيمة الكائنة عليه، ويحثهم على قصده عقيب هذا الضعف، ويضمن لهم الظفر به، للوهن الذي صار عليه[40].. فلما وصلت كتب مقدم الاسماعيلية تستدعيهم قصد جلال الدين، بادر طائفة منهم فدخلوا بلادهم واستولوا على الري وهمذان

---

(٤٠) ابن الاثير، عز الدين علي الشيباني: الكامل في التاريخ ج٢ ص٤٩٥

وما بينهما من البلاد، ثم قصدوا اذربيجان فخربوا ونهبوا وقتلوا من ظفروا به من اهلها، وجلال الدين لا يقدر على ان يلقاهم، ولا يقدر ان يمنعهم عن البلاد، وقد ملىء رعباً وخوفاً . . وخرج وزيره عن طاعته في طائفة كثيرة من العسكر[41].

ان خروج الوزير عن طاعة جلال الدين صاحب طائفة الاسماعيلية في اذربيجان يمثل موقفاً انتهازياً، لأنه وجد ان القوة ليست مع جلال الدين، وان النصر ليس حليفه فالأسلم له ان يفاوض هذا الزاحف المنتصر، والابتعاد عن المدافع المنكسر. وهكذا اختلت موازين ونتائج المعركة، ومالت الكفة الى جانب هولاكو والمغول. ولاشك ان الاجتماع والاتحاد والثبات يصعد العزم والقوة ضد اي مهاجم، لكن تفتت الاجتماع وانفصام عرى الاتحاد، وتفكك الوحدة، وتزحزح الثبات تؤدي لا محالة الى الهزيمة والانكسار. فيقول اليونيني: «وقد تملك التتر اكثر الممالك الاسلامية، وما فعلوه من خراب البلاد، وسفك الدماء وسبي الحريم والاولاد ونهب الاموال. وكانوا قبل هذه السنة قد قصدوا آلموت، بلد الباطنية، ومعقلهم المشهور، وكان صاحب الآلموت، وبلادها علاء الدين محمد بن جلال الدين حسن،المنتسب الى نزار بن المستنصر بالله العلوي صاحب مصر، وتوفي وقام مقامه ولده الملقب شمس الشموس. وكان الذي قصد الآلموت، هولاكو، وهو من ذرية جنكيز خان الذي قصد بلاد الاسلام سنة ست عشرة وستمائة . . ولما نازل هولاكو الآلموت نزل اليه صاحبها علاء الدين، بأشارة من نصير الدين الطوسي، عليه بذلك، وكان الطوسي عنده وعند ابيه قبله، فقتل هولاكو علاء الدين وفتح الآلموت، وما معها من البلاد التي في تلك الناحية، وكان لهم بالشام معاقل، وصاحب الآلموت فيها ابداً نائب من قبله»[42]. فنصير الدين الطوسي عالم وسياسي اغوى هولاكو بعد ان كاتبه

---

(٤١) ابن الاثير، عز الدين علي الشيباني: الكامل في التاريخ ج٢ ص٤٩٥

(٤٢) اليونيني: ذيل مرآة الزمان ج١ ص٨٥

بالزحف على قلعة الآلموت، لاكتساحها وهدمها، وهو الذي اشار على صاحب القلعة علاء الدين ابن جلال الدين بالنزول الى هولاكو لتقديم فروض الطاعة، فاستقبله هولاكو بالسيف فقتله. والطوسي العالم الجليل(!!) هو الذي جرأ هولاكو على صاحب قلعة الآلموت، لأن صاحبها واصحابها اسماعيليون! فحاربهم بالوثنيين المغول وقائدهم الوثني ايضاً، هولاكو، فألف مرحى لهذا العالم الجليل ولعدوانه بالوثنيين.

والآن لنر موقف بدر الدين لؤلؤ صاحب الموصل، وهو ليس باسماعيلي، والخليفة العباسي ورعيته ايضاً ليسوا باسماعيليين، حين اخذ هولاكو يكاتبه ويهدده: «وكاتبوا (اي المغول) بدر الدين لؤلؤ صاحب الموصل في ان يسير اليهم ما يطلبونه من آلات الحرب، فسير اليهم ذلك، ولما تحقق قصدهم، علم انهم أن ملكوا العراق، لا يبقون عليه، فكاتب الخليفة سراً في التحذير منهم، وأنه يستعد لحربهم. .وكان الشريف تاج الدين بن صلايا نائب الخليفة بأربل، فسير الى الخليفة من يحذره من التتر»[٤٣].

ندرك من هذه المكاتبات ان بدر الدين لؤلؤ صاحب الموصل يخاف على نفسه. فسير الى هولاكو ما اراد، وما احتاج من آلات الحرب، وكذلك عدداً من الجند، ثم ابلغ الخليفة بنية هولاكو. فبدر الدين لؤلؤ يصانع المغول وهولاكو بالرغم من معارضة اهل الموصل وحذرهم من هذه الخطة،ويحذر الخليفة. . فأية انتهازية ابلغ من هذه الانتهازية؟! انه يريد ان يسلم بجلده ولا يريد ان يدافع عن عقيدته وايمانه ودينه وسيادة ولايته او سيادة الخلافة العربية، حتى لو ارتبطت هذه كلها بالكرامة والمبدئية. فلا شك ان بدر الدين كان قد وقف موقفاً مغايراً لهذا الموقف ولأنحاز الى الخليفة ولوحد جيشه بجيش الخليفة، وحاربوا سوية ضد هذا الخطر الداهم في حالة شعوره بضعف هولاكو وقوة الخليفة. . فحينما

(٤٣) اليونيني: ذيل مرآة الزمان ج١ ص٨٧

«استهلت هذه السنة ـ ٦٥٦هـ ـ وجنود التتر قد نزلت بغداد بصحبة الاميرين اللذين على مقدمة عساكر سلطان التتر هولاكو خان، وجاءت اليهم امداد صاحب الموصل يساعدونهم على البغاددة وميرته وهداياه وتحفه، وكل ذلك خوفاً على نفسه من التتر ومصانعة لهم قبحهم الله تعالى»[٤٤].

ان هذا اعتراف صريح بأن بدر الدين لؤلؤ كان يصانع التتر خوفاً على نفسه، وانه ايضاً انجدهم بمدد من الجند لقتل اهل بغداد دون ان يدرك ان تخلص العدو من خصمه يجعله يلتفت الى الخصوم الاخرين ـ وبدر الدين لؤلؤ والموصل من خصومه ايضاً ـ لا يمكن الا ان يكون هدفاً لهولاكو. وقد حدث هذا بالفعل، فقد « . . ساروا فأخذ لؤلؤ صاحب الموصل يهيء للتتر الأقامات ويكاتب الخليفة سراً»[٤٥]، «فركب هولاكو في مائتي ألف من التتر ومدد من صاحب الموصل مع ولده الصالح اسماعيل»[٤٦].

احتلال ما وراء النهر وقلاع الجبال

كانت ما وراء النهر اول اهداف جنكيز خان، ومن بعده ابنه هولاكو، لتكون قاعدة للوثوب على مجمل الاراضي العربية او غير العربية التي تمثل نفوذ الخلافة العباسية ففي «العاشر من شعبان سنة ٦٥٤هـ. . كان مولانا السعيد الخواجة نصير الدين الذي كان اكمل واعقل عالم، وجماعة آخرون من الاطباء منهم رئيس الدولة وابناؤه ـ يقيمون لدى ملك الاسماعيلية مكرهين، وكانوا قد رأوا افعاله السيئة، ووجدوا الظلم والتعدي متأصلين فيه، وشاهدوا مخايل الجور بادية على احواله، وكانوا قد ملوا ملازمة الملاحدة ـ اي الاسماعيليين ـ

(٤٤) ابن كثير: البداية والنهاية ج١٣ ص١٩٦
(٤٥) ابو الفلاح عبدالحي: شذرات الذهب في اخبار من ذهب ج٥ ص٢٧٠
(٤٦) كذلـــــك

ونفروا منهم، ومالوا الى هولاكو خان الى اقصى حد. ومن قبل، كانوا يرغبون في ذلك، فصاروا يتشاورون سراً، لكي يحملوا هذا الملك يخضع لهولاكو على الوجه الاحسن والطريق الاسهل وانضم اليهم كثير من الغرباء والمسلمين، واتفقوا جميعا على تحقيق هذا الهدف. ولهذا السبب لم يدخروا وسعاً في حث (خور شاه) على الخضوع والطاعة، وصاروا يخوفونه مغبة المقاومة وعدم التسليم فاستجاب لنصحهم، واكرم وفادة الرسل، واوفد أخاه الاصغر (شاهنشاه) والخواجة (اصيل الدين الزوزني) مع طائفة اخرى من اعيان مملكته الى هولاكو اظهاراً للخضوع والطاعة، فأمر هولاكو بأعزازهم واكرامهم، وعين الرسل مرة اخرى لكي يذهبوا مع (صدر الدين) و (ظهير الدين) وتوكل (بهادر بخشي ومازوق) برسالة الى (خور شاه) ليخبروه انه اذا كان قد قبل الخضوع والتسليم حقاً، فأن عليه ان يخرب القلاع ويمثل بنفسه أمام هولاكو. فأجاب (خور شاه): «اذا كان ابي قد اظهر التمرد والعصيان فأني اظهر الخضوع والطاعة. وقد بر بوعده، فخرب اجزاء قلاع (هامون دز) و (آلموت) و (لمبسر)، وحطم ابراجها ورمى ابوابها، واشتغل بتخريب أسوارها وحصونها. ولكنه طلب مهلة سنة يغادر بعدها القلعة، . فعرف هولاكو خان ان وقت النكبة لهذا الامير قد حل، وانه لا داعي لتردد الرسل عليه، لأنه سوف لا يؤثر فيه»[٤٧].

ان نصير الدين الطوسي العالم الجليل! خدع خور شاه صاحب قلاع الاسماعيلية نكاية بهم باعتبارهم ملاحدة فتمكن من انزاله الى هولاكو بعد تخريب القلاع الاسماعيلية،ونصير الدين الطوسي ينفر من خورشاه، ويريد التخلص منه، ويميل الى هولاكو ويريد منه تدمير القلاع، فلما وجد هولاكو ان القلاع اصبحت ضعيفة بعد تخريبها من قبل خورشاه، اكتسحها، وقتل كل من فيها.. فكافأ هولاكو، نصير الدين الطوسي على فعلته الانتهازية هذه.

---

(٤٧) رشيد الدين الهمذاني: جامع التواريخ مج٢ قسم١ ص٢٤٧ ـ ص٢٥٠

ولقد وقع وبال انتهازية بدر الدين لؤلؤ عليه بالذات، اذ ان العدو هولاكو والمغول بعد ان تخلصوا من اكثر معاديهم ودمروا مدنهم وقلاعهم وحصونهم، فأن هولاكو لم يكف عن الموصل، فعاد اليها ثانية بعد احتلال بغداد وتخريبها وقتل الخليفة وجميع الذين قاوموا المحتلين من المغول، اتجه هولاكو نحو الموصل واكتسحها ودمرها ايضا وقتل الملك الصالح وهو ابن بدر الدين لؤلؤ صاحب الموصل، وذلك بأن ادخل جسم الملك الصالح وهو حي في الدهن، ثم ربطوه باللبد والحبال، والقوه تحت شمس الصيف القائظ مدة اسبوع فأكلته الديدان بعد شهر. وكان ذلك عام ٦٦٢هـ بعد ان «فتح المغول مدينة الموصل بعد صراع دام وقتلوا بقية سكان المدينة بحد السيوف، وأسروا بعضاً من ارباب الحرف والصنائع بحيث لم يبق أحد في الموصل»[٤٨].

وبالتأكيد، لن يكون مآل الانتهازية الا وبالاً على الانتهازي نفسه ان عاجلاً او آجلاً، وعلى كل من يدور في فلكه او يحاول جني ثمار نتيجة انتصار احد الطرفين المتصارعين الى درجة الاقتتال. ولا شك ايضا ان كل عمل يقوم به الانتهازي لا يمكن ان يقدم اية خدمة عامة جليلة، ولا يساعد في عمليات البناء او الأسراع في تحريك عجلة التطور انما العكس هو الذي يحصل في كل الأحيان، اذ ان نتيجة وقوف الانتهازي بين طرفين متصارعين او متقاتلين، يؤدي الى الدمار والخراب، ووقف عجلة التطور والتقدم التي تربك المسيرة الحضارية، اقليمياً وعالمياً.

واذ كان الزحف المغولي بقيادة هولاكو قائماً، فأن المكاتبات كانت مستمرة ايضاً بين الفريقين؛هولاكو البربري والمغول من جهة، والخليفة المستعصم بالله العباسي من جهة ثانية، وقد اضطر الخليفة المستعصم ان يرسل هدية صغيرة الى هولاكو على يد بدر الدين دريكي قاضي بندينجان، وبعث يقول: «لو غاب عن

الملك فله ان يسأل المطلعين على الاحوال، اذ ان كل ملك - حتى هذا العهد - قصد اسرة بني العباس ودار السلام بغداد، كانت عاقبته وخيمة. ومهما قصدهم ذوو السطوة من الملوك واصحاب الشوكة من السلاطين، فأن بناء هذا البيت محكم للغاية، وسيبقى الى يوم القيامة. وفي الايام السابقة قصد يعقوب بن الليث الصفار، الخليفة، وتوجه بجيش لجب الى بغداد، فلم يبلغ مأربه، اذ مات بعلة الزحار والامر كذلك مع اخيه عمرو، اذ قبض عليه اسماعيل بن احمد الساماني، وكبله وارسله الى بغداد، لكي يجري عليه الخليفة ما حكم به القضاء. وكذلك جاء البساسيري بجيش عظيم من مصر الى بغداد، وقبض على الخليفة، وسجنه في الحديقة. وفي بغداد جعل الخطبة والسكة مدة عامين باسم المستنصر الذي كان خليفة الاسماعيليين في مصر. وفي النهاية علم طغرلبك بذلك، فاسرع من خراسان وقصد البساسيري في جيش جرار، وقبض عليه وقتله واخرج الخليفة من السجن، واعاده الى بغداد، واجلسه على عرش الخلافة. وكذلك قصد السلطة محمد السلجوقي بغداد، فعاد منهزما وهلك في الطريق. وجاء محمد خوارزمشاه بجيش عظيم قاصدا استئصال هذه الاسرة، فابتلي في روابي (اسد آباد) بالثلج والعواصف بسبب غضب الله عليه، وهلك اكثر جنده، وعاد خائباً خاسراً. ثم لاقى من جدك جنكيز خان في جزيرة (آيكسون). فليس من المصلحة ان يفكر الملك في قصد اسرة العباسيين. فاحذر عين السوء من الزمان الغادر». «فاشتد غضب هولاكو خان بسبب هذا الكلام، واعاد الرسل قائلا:

اذهب واصنع من الحديد المدن والاسوار
وارفع من الفولاذ الابراج والهياكل،
واجمع جيشاً من المردة والشياطين،
ثم تقدم نحوي للخصام والنزال..

فسأنزلك ولو كنت في السماء
وسأدفع بك غضباً الى افواه السباع»[49]

وطلب هولاكو حسام الدين المنجم ليختار وقت النزول والركوب، فقال له حسام الدين: انه ليس ميموناً قصد أسرة الخلافة، والزحف بالجيش الى بغداد. واذا لم يصغ الى كلامه فستظهر ستة انواع من الفساد:

١ - ان تنفق الخيول ويمرض الجنود
٢ - ان الشمس لا تطلع
٣ - ان المطر لا ينزل
٤ - تهب ريح صرصر وينهار العالم بالزلزال
٥ - لا ينبت النبات في الارض
٦ - ان الملك الاعظم يموت في تلك السنة . وكتب ذلك»[50]

لا يشك ان حسام الدين المنجم اراد وقف زحف هولاكو والمغول نحو بغداد، لأنه يعلم ما يحل بعد هذا الزحف بالخلافة والخليفة وبغداد واهل بغداد من خراب ودمار مثلما عرف وسمع عن المدن والقلاع التي احتلها هولاكو وما حصل لها من التخريب والتدمير، وقتل اهلها حتى الابادة، لكن العالم الجليل(!!) نصير الدين الطوسي الفارسي ضحك من كلام حسام الدين المنجم، واشار على هولاكو بالتقدم نحو بغداد وازالة الخلافة العربية العباسية، وقال لهولاكو: «لن تقع اية واقعة من هذه الاحداث. واضاف انه سيحل محل الخليفة. وشجعه على احتلال بغداد، لأنه ليس للخلفاء العباسيين اية مكرمة، خاصة بهم، والا لما قتل الامين والمتوكل والمنتصر والمعتز.»[51]

---

(٤٩) رشيد الدين الهمذاني: جامع التواريخ مج٢ قسم١ ص٢٧٥ - ٢٧٦
(٥٠) رشيد الدين الهمذاني: جامع التواريخ مج٢ قسم١ ص٢٧٩
(٥١) رشيد الدين الهمذاني: جامع التواريخ مج٢ قسم١ ص٢٨٠

«وعندما بلغ هولاكو (أسد آباد) اوفد رسولا لدعوة الخليفة مرة اخرى، للحضور، فكان يماطل ويتعلل ووصل بن الجوزي الى دينور للمرة الثانية قادماً من بغداد يحمل رسالة بالوعد والوعيد، ويلتمس ان يعود هولاكو، ويتراجع في مقابل ان يسلم الخليفة للخزانة كل ما يقرره هولاكو. فظن هذا ان الخليفة يريد من وراء عودة الجيوش ان يعد جنده ويهيئوهم لمقاومة المغول، فقال: «كيف نترك زيارة الخليفة بعد كل ما قطعناه من هذا الطريق. سوف نعود بأذنه بعد الحضور للقائه والتحدث معه»[٥٢]

وفي السابع والعشرين من محرم وصلت جيوش هولاكو الى جبال الكرد، ونزلوا بكرمانشاه، وقتلوا وسلبوا وارسلوا رسولاً ليحضر على الفور - الامراء سونجاق، وبايجونوين، وسونتاي، فوصلوا الى الحضرة في طاق كسرى، ثم قبضوا على (ايبك الحلبي) و (سيف الدين قِلج) اللذين كانا من طلائع جيش الخليفة، واحضروهما الى الحضرة، فاعطى هولاكو الأمان لأيبك، في نظير ذلك قبل ان يقول الصدق ثم جعلهما هولاكو مرشدين لطلائع قوات المغول»[٥٣]

ولكن لوجود العداء بين الاعاجم الفرس وكل القادمين من الشرق، وبين الغلمان التركمان، فأن التركمان مع اختلافهم مع الخليفة، ومحاولتهم تنحيته كالفرس عن كرسي الخلافة، الا انهم وجدوا انفسهم في هذا الموقف غير قادرين على الاستيلاء على السلطة، لأن العدو القادم من الشرق المتمثل بالمغول بقيادة هولاكو، ووجود الرتل الخامس من الموالي الفرس داخل العراق عامة وبغداد خاصة، لذلك وقفوا نسبياً الى جانب الخليفة العباسي المستعصم بالله، وا (جوق) كان مع طلائع الجيش المغولي، وهو من نسل الخوارزميين، فأنه حاول استثارة حمية ابن جنسه (قبجان) المعروف بقراسنقر قائد طلائع جيش الخليفة العباسي، وطلب منه ان يوقف القتال ضده، فكتب (جوق) رسالة الى قراسنقر

---

(٥٢) كذلــــك ص٢٨٢

(٥٣) رشيد الدين الهمذاني: جامع التواريخ مج٢ قسم١ ص٢٨٣

يقـول فيها: «انني وانت من جنس واحـد، وبعد البحث والتـدقيق التحقت بخدمة هولاكو، بسبب الفقر والاضطرار، ودخلت في طاعته، وهو الآن يعاملني معاملة طيبة فأنقذ انت ايضاً حياتك، وترفق بها واشفق على اولادك، وقـدم الطاعة؛ حتى تأمن على دارك واولادك ومالك وروحك من هؤلاء القوم»(٥٤)

فكتب قـراستقر مجيباً: «من يكون هؤلاء المغـول حتى يقصـدوا اسرة العباسيين. لقد شاهدت هذه الأسرة الكثير من امثال دولة جنكيز خان، وان أساسها لأكثر احكاماً ورسوخاً من اساس اسرة جنكيز خان التي تترنح من كل ريح عاصف، ثم ان العباسيين قد استمروا حكاماً اكثر من خمسمائة سنة، وكل مخلوق قصدهم بسوء قضى عليه الزمان. واذن فليس من العقل والكياسة ان تدعوني لانضم الى جانب الغصن الغض لدولة جنكيزخان، وكان الاولى بالود والمسالمة، الا يتجاوز هولاكو خان الري بعد فراغه من فتح قلاع الملاحدة، وان يعود الى خراسان وتركستان. لأن قلب الخليفة متـأثر وسـاخط بسبب زحف هولاكو بجيوشه. فاذا كان هولاكو نادماً حقاً على فعلته، فعليه ان يعيد الجيش الى همذان؛ لكي نجعل الدوادار شفيعاً، فيتضرع بدوره الى الخليفة، عله يزول المه، ويقبل الصلح، فيغلق بذلك باب القتال والجدال»(٥٥)

وكانت الرسالة الاخيرة، وقد وصل هولاكو بغداد وانتشرت جيوشه حول اسوارها، كان هولاكو يضحك حينما قرئت عليه رسالة قراسنقر، فقال: «ان اعتمادي على الله، لا على الدرهم والدينار. فاذا كان الله الازلي مسـاعداً لي ومعيناً، فماذا اخشاه من الخليفة وجيشه».

---

(٥٤) رشيد الدين الهمذاني: جامع التواريخ مج٢ قسم١ ص٢٨٤

(٥٥) رشيد الدين الهمذاني: جامع التاريخ مج٢ قسم١ ص٢٨٣

تتساوى في نظري النملة والبعوضة والفيل.
كما يتساوى الينبوع والنهير والبحر والنيل
- ولو كان امر الله على خلاف ذلك،
فمن يدري سواه كيف يكون ذلك الكلام.

. . ثم ارسل من جديد رسولا يقول: اذا كان الخليفة قد اطاع فليخرج، والا فليتأهب للقتال، وليحضر الينا قبل كل شيء الوزير وسليمان شاه، والدوادار ليسمعوا ما نقول»[٥٦]. و «لما شاع خبر وصول رايات الغازي في الاطراف اسرع السلاطين والملوك في كل مملكة من ممالك ايران التوجه الى هولاكو لتقديم فروض الطاعة. واقبل من بلاد الروم السلطانان عزالدين وركن الدين، ومن فارس سعد بن الاتابك مظفر الدين، ومن العراق وخراسان واذربيجان وآران وشروان وجورجيا، الملوك والصدور والاعيان وكانوا جميعا يحملون الهدايا اللائقة الى الحضرة الشريفة»[٥٧]. وبهذه الوسيلة تمكن هولاكو ستراتيجياً من عزل الدولة العربية العباسية والخليفة العباسي، عن كل من يجاوره من الملوك والحكام وولاياتهم. وفي سنة ٦٤٢هـ «نزل التتر على ميافارقين ونهبوا ديار بكر اشد النهب، واخذوا حران والرها وملكوا ماردين صلحاً، وهرب شهاب الدين غازي منهم قاصداً مصر»[٥٨]. وهناك زحف وهجوم مغولي اقدم منه وقع في زمن الخليفة المستنصر بالله، حينما كان المستعصم بالله في عز الشباب ويفاعته وعنفوان قوته، وربما كان يعرف ايضاً انه كان مرشحاً للخلافة بعد أبيه، وان اباه كان يحدثه عن هولاكو وجده جنكيزخان والمغول وزحوفهم وغاراتهم الغادرة على اطراف الخلافة العباسية وتدمير لكل المعالم الحضارية. ومن كان يعرف هذه الامور، لا يشك ان يكون محتفظا حذراً. ففي سنة ٦٢٨هـ: «ارسل مقدم الاسماعيلية الملاحدة الى التتر يعرفهم ضعف جلال الدين بالهزيمة الكائنة

---

(٥٦) رشيد الدين الهمذاني: جامع التواريخ مج٢ قسم١ ص٢٨٥
(٥٧) رشيد الدين الهمذاني: جامع التواريخ مج٢ قسم١ ص٢٤٠
(٥٨) الملك الاشرف: المسجد المسبوك ص٥٢٧

عليه ويحثهم على قصده، عقيب الضعف، ويضمن لهم الظفر للوهن الذي صار عليه» «ولما رأى جلال الدين ما يفعله التتر في بلاد اذربيجان وانهم يقيمون بها.. يقتلون وينهبون ويأسرون ويخربون البلاد ويجبون الاموال وهم عازمون على قصده.. فارق اذربيجان الى بلاد خلاط».. «ولما انهزم جلال الدين من التتر على آمد نهب التتر سواد آمد وآرزن وميافارقين وقصدوا مدينة اسعرد.. فاستسلموا، فلما تمكن منهم التتر وضعوا فيهم السيف»[59]

.. وان هولاكو «في اوائل شهر محرم سنة ٦٥١هـ عبر جيحون وشرع في الهجوم على ولاية قهستان واستولى على بعض اجزائها، ثم سار على رأس خمسة آلاف فارس وخمسة آلاف من الرجالة الى اسفل قلعة (كرده كوه) وذلك في شهر ربيع الاول سنة ٦٥١هـ»[60] وقد ارسل هولاكو «القائد هركتاي.. على رأس جيش الى ولايتي طارم ورودبار، واحدث فيهما التخريب والدمار.. ثم قصد المغول اسوار مدينة المنصورية و (آله بشين) حيث اجروا مذبحة دامت ثمانية عشر يوما»[61] حسب ما قاله مرافق هولاكو ووزيره رشيد الدين الهمذاني، اي انه يؤكد اعمال هولاكو التخريبية اضافة الى القتل والنهب والاستباحة، كما يتهم كل من وقف ضد هولاكو بالرعاعية والسفالة فيقول: «فلما بلغوا - اي المغول - حدود قهستان قاومهم الرعاع(!!) ولكن المغول اسروهم جميعا في مدة اسبوع، وضربوا الاسوار واعملوا القتل والغارة في السكان، واخذوا الاسرى. وفي السابع من ربيع الآخر وصلوا الى ابواب مدينة (تون) ونصبوا المناجيق واستأنفوا القتال» و «في اليوم التاسع عشر من شهر ربيع الآخر استولوا على المدينة، وقتلوا جميع السكان ما عدا ارباب الحرف، ثم قصدوا معكسر هولاكو خان مظفرين منصورين. ومن هناك توجه الجميع الى طوس»[62]. وبالرغم من ان الموصل لم

---

(٥٩) ابن الاثير: الكامل في التاريخ ج١٢ ص٤٩٥ - ٤٩٩

(٦٠ - ٦١) رشيد الدين الهمذاني: مج٢ قسم١ ص٢٤٠ - ٢٤٣ - ٢٤٤

(٦٢) رشيد الدين الهمذاني: جامع التواريخ مج٢ قسم١ ص٢٤٧

تكن بعيدة عن حدود العراق، الدولة العربية العباسية المتقلصة بحدودها، حتى اصبحت لا تبعد عن تكريت الا بمسافة قليلة الى الشمال، فأن مداهمتها وحصارها وتدميرها، يعني ان الخطر قد وصل الى اقصى درجاته فلابد من ان يستفيق المسؤولون في الدولة، ويحسبوا كل حساب لهذا الخطر المحدق «ففي سنة ٦٥٥هـ وصلت التتر الى الموصل وخربوا بلادها»[٦٣]. وقد بلغ الاستهتار بهولاكو، انه كان يفصح عن اعماله الوحشية قبل ان يقوم بالمجزرة وبعدها ايضا مما كان يعتبر ذلك درسا لكل من لا يقدم فروض الطاعة والولاء، ويدون كل اعمال التدميرية والذبح والقتل والاستباحة في رسائل التهديد التي يرسلها الى اصحاب الدويلات او الولايات من الملوك والسلاطين. ففي احدى رسائله يقول هولاكو: «.. ونحن قد اهلكنا البلاد، وابدنا العباد، وقتلنا النسوان والاولاد، فأيها الباقون انتم بمن مضى لاحقون. ويا ايها الغافلون انتم اليهم تساقون، ونحن جيوش الهلكة، لا جيوش المملكة، مقصودنا الانتقام وملكنا لا يرام، ونزيلنا لا يضام، وعدلنا في ملكنا قد اشتهر، ومن سيوفنا اين المفر:

اين المفر ولا مفر لهارب	ولنا البسيطان الثرى والماء
ذلت لهيبتنا الاسود فاصبحت	في قبضتي الامراء والخلفاء

ونحن اليكم صائرون، ولكم طالبون، ولكم الهرب وعلينا الطلب:

ستعلم ليلى اي دين تداينت	**وأي غريم بالتقاضي غريمها**

دمرنا البلاد وايتمنا الاولاد واهلكنا العباد، واذقناهم العذاب وجعلنا عظيمهم صغيراً، واميرهم اسيراً، اتحسبون انكم منا ناجون او متخلصون، وعن قليل

---

(٦٣) ابو الفلاح عبد الحي بن عماد: شذرات الذهب ج٥ ص٦٣

سوف تعلمون على ما تقدمون، وقد اعذر من انذر، والسلام»[٦٤]. وهذه الرسالة من انشاء المنجم الفلكي نصير الدين الطوسي وهو يطرزها احسن تطريز بالابيات الشعرية، ويتحفها بالفاظ مسجوعة مفخمة ليدل على قابليته الادبية وروعة الفاظه التهديدية، خدمة للوثني الغازي المتوحش هولاكو، وهو يفخر باعمال القتل والسبي وتيتيم الاولاد ويعتز بوحشيته لأنه . . يقضم اراضي الدولة العربية الاسلامية.

وبعد ان يرجع هولاكو من قلعة آلموت وصله كتاب صاحب الموصل بدر الدين لؤلؤ سنة ٦٥٥هـ قرر هولاكو ان يزحف نحو بغداد، وحينما «بلغ هولاكو خان الدينور في التاسع من ربيع الآخر سنة ٩٥٥هـ قاصداً بغداد . . قفل راجعاً ومضى الى همذان في الثاني عشر من شهر رجب من تلك السنة. وفي العاشر من رمضان ارسل الى الخليفة رسولاً يتهدده ويتوعده قائلاً: لقد ارسلنا اليك رسلنا وقت فتح قلاع الملاحدة، وطلبنا مدداً من الجند، ولكنك اظهرت الطاعة، ولم تبعث الجند. وكانت آية الطاعة والاتحاد ان تمدنا بالجيش عند سيرنا الى الطغاة، فلم ترسل الينا الجند، والتمست الغدر. . مهما تكن اسرتك وعراقتك وبيتك ذا مجد تليد . .

فأن لمعان القمر قد يبلغ درجة
يخفى معها نور الشمس الساطعة

ولابد انه قد بلغ سمعك. . ما حل بالعالم والعالمين على يد الجيش المغولي. . فمنذ عهد جنكيز خان الى اليوم، والذل حاق بأسر الخوارزمية والسلجوقية وملوك الديالمة والاتابكة وغيرهم ممن كانوا ذوي عظمة وشوكة. .

---

(٦٤) ابو الفلاح عبدالحي بن عماد؛ شذرات الذهب ج٥ ص٢٦٣

ولم يكن باب بغداد مغلقاً في وجه اية طائفة من تلك الطوائف، فكيف يغلق في وجهنا رغم ما لنا من قدرة وسلطان؟.. احذر الحقد والخصام ! فاذا اطاع الخليفة فليهدم الحصون ويردم الخنادق،

فسوف انزلك من الفلك الدوار
وسألقيك من عليائك الى اسفل كالأسد
ولن أدع حياً في مملكتك
وسأجعل مدينتك واقليمك وارضك طعمة للنار»[٦٥]

وقد كان المفروض ان ينتبه الخليفة المستعصم بالله ووزراؤه وكتاب ديوانه وحجابه وامراءجنده الى ما يحدث حولهم من محاولات هولاكو وهو يهدد ويتوعد ويسخر، خاصة بعد ان تمكن هولاكو من السيطرة واكتساح الكثير من اقاليم الخلافة العباسية، وتمكن من عزلها عنها، فاذا بالخلافة تعاني من عملية تجريد الخليفة العباسي من كل حلفائه او حماته المتاخمين لحدود العراق التي اصبحت قريبة جداً من الخطر الداهم، كما تعاني من ضعف سيطرة الخليفة على اصحاب الولايات بفعل خوفهم من هولاكو، فتفشتت العلاقات بين الخلافة العباسية والولايات المتاخمة. وانحازوا الى هولاكو يصانعونه لكف شره فكانوا يرسلون اليه الهدايا والاموال حتى انه «في سنة ٦٥٥هـ توجه العزيز بن الملك الناصر الى هولاكو بهدية حسنة جليلة. وكان في خدمته سيف الدين ابراهيم الحاكي الحافظي»[٦٦].

---

(٦٥) رشيد الدين الهمذاني: جامع التواريخ مج٢ قسم١ ص٢٦٨
(٦٦) الكتبي: عيون التواريخ ج٢

ولقد كان تحرك هولاكو بجيشه المغولي عسكرياً سريعاً ومنظماً ومكشوفاً ايضاً، وبعد رسائل التهديد ايضاً. وقد كان الأحرى بحاشية الخليفة المستعصم بالله وبطانته ان يتشاوروا في الأمر لدفع هذا البلاء بأسلم الطرق واقومها واقواها ايضاً، لكن المصالح الشخصية والصراعات الداخلية الدائرة والمؤامرات الخبيثة التي كانت تحاك بأهدافها الستراتيجية، كانت كلها تدور في فلك الجهالة السياسية التي يتمتع بها الخليفة ورجاله حتى «وقد علم تملك التتر اكثر الممالك الاسلامية، وما فعلوه من خراب البلاد وسفك الدماء وسبي الحريم والاولاد ونهب الاموال، وكانوا قبل هذه السنة (اي سنة ٦٥٥هـ) قد قصدوا (آلموت) بلد الباطنية ومعقلهم المشهور، وكان صاحب (الآلموت) وبلادها علاء الدين محمد ابن جلال الدين حسن المنتسب الى نزار بن المستنصر بالله العلوي صاحب مصر، وتوفي وقام مقامه ولده الملقب شمس الشموس، وكان الذي قصد (الآلموت) هولاكو وهو من ذرية جنكيز خان الذي قصد بلاد الاسلام سنة ست عشرة وستمائة.. ولما نازل هولاكو - (الآلموت) انزل اليه صاحبها ابن علاء الدين بأشارة نصير الدين الطوسي عليه بذلك، وكان الطوسي عنده وعند ابيه قبله، فقتل هولاكو ابن علاء الدين وفتح (الآلموت) وما معها من البلاد التي في تلك الناحية، وكان لهم بالشام معاقل وصاحب (الآلموت) فيها نائب من قبله»[٦٧]

ان زحف هولاكو بجيش المغول، ليست جديدة على الخلافة العباسية، فهي امتداد لعدد من السنين وهذا الامتداد الزمني، لاشك لم يخف على الخليفة وساسة البلاد، حتى وان كان الوزير ابن العلقمي لا يبلغ الخليفة بما يدور، وما يأتيه من الرسائل من صاحب الموصل او صاحب اربل او غيرها، بل ان الاحداث التي كانت تشير الى الزحف ترقى الى سنة ٦٢٨هـ حيث «ارسل مقدم

---

(٦٧) اليونيني: ذيل مرآة الزمان مج ١ ص ٨٥

الاسماعيلية الملاحدة الى التتر يعرفهم ضعف جلال الدين بالهزيمة الكائنة عليه ويمنعهم عن قصده عقيب الضعف ويضمن لهم الظفر به، للوهن الذي صار عليه. . . فلما وصلت كتب مقدم الاسماعيلية الى التتر بستدعيهم الى قصد جلال الدين بادر طائفة منهم فدخلوا بلادهم واستولوا على الري وهمذان وما بينهما من البلاد، ثم قصد اذربيجان فخربوا ونهبوا وقتلوا من ظفروا به من اهلها، وجلال الدين لا يقدم على ان يلقاهم ولا يقدر ان يمنعهم عن البلاد وقد ملىء رعباً وخوفاً. . وخرج وزيره عن طاعته في طائفة كثيرة من العسكر. . ولما رأى جلال الدين ما يفعله التتر في بلاده اذربيجان، وانهم مقيمون بها يقتلون وينهبون ويأسرون ويخربون البلاد ويجبون الأموال وهم عازمون على قصده. . فارق اذربيجان الى بلاد خلاط»[٦٨]

وكان المغول ينهبون في طريقهم كل ما تقع عليه ايديهم فنهبوا سواد آمد وارزن وميافارقين الى ان وصلوا مدينة (اسعرد) فقاتلهم اهلها، فتفاوضوا على تأمين السلام بينهما فلما تم ذلك فاجأ المغول اهالي مدينة اسعرد ووضعوا فيهم السيف وقتلوهم حتى كادوا يأتون عليهم جميعاً. وحينما وصل هولاكو خان الدينور من السنة نفسها اي ٦٥٥هـ وهو في طريقه الى بغداد، عاد الى همذان ليقوم بتهديد الخليفة عن طريق الرسائل وقد سيطر عليه الغضب خاصة وان ابن العلقمي ما يزال يرسل له الجواسيس التجار، كان مستمراً على تحفيزه على احتلال بغداد، لكن الخليفة ارسل لهولاكو الرسائل والرسل وكان على رأس هؤلاء ابن الجوزي شرف الدين ومعه بدر الدين محمود وزنكي النخجواني، فقال ابن الجوزي من بين ما قال: «. . ان كنت تريد الحرب والقتال: فلا تتوان لحظة ولا تعتذر اذا استقر رأيك.

(٦٨) ابن الاثير: الكامل في التاريخ مج١٢ ص٤٩٥ ـ ٤٩٩

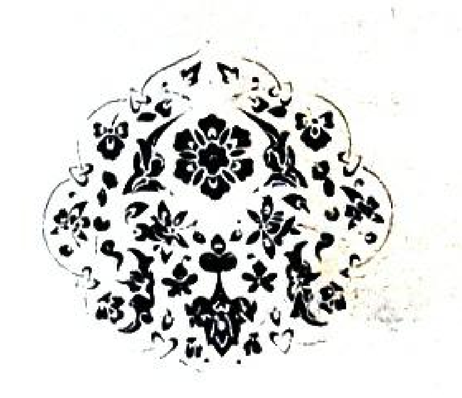
على الحرب ـ ان لي الوفاً مؤلفة من الفرسان والرجالة ـ وهم متأهبون للقتال وانهم يثيرون الغبار من ماء البحر وقت الحرب والطعان»[٦٩]

هذه احداث هائلة ورسائل صريحة . . تجلب أنتباه الغافي، وليس انتباه اليقظان فقط، وانتباه القاصي والداني . . البعيد عن القضية او القريب منها. وان مثل هذه الاحداث عن القضية او القريب منها. وان مثل هذه الاحداث لا يمكن ان تمر دونما اهتمام خاصة وان هذه الاحداث تقع على اراضي الدولة العربية العباسية، فلابد ان تثير حمية الخليفة ونخوته وحمية رجاله وامراء جنده ونخوتهم ايضاً، اضافة الى كون الحدث يؤدي بالتأكيد الى قضم اجزاء الدولة وتقسيمها وتمزيقها شر ممزق، ولن تبقى للدولة أية هيبة، وتضيع وتضمحل سلطة الخليفة. وتتضاءل شخصيته. وان عشرات السنين بين هذه الاحداث اللاأنسانية وبين الزحف نحو العراق، وتهديد الخلافة العباسية، لا يمكن ان يظل سراً لا يعرف به خليفة المسلمين وأمير المؤمنين مهما كانت بطانته وحاشيته وان مثل هذا الخليفة المغفل الى هذه الدرجة من الجهل السياسي والعسكري لا يمكن ان يصل الى الخلافة، مهما كانت درجة قرابته من ولاية العهد. لكن الحقيقة هي ان الوزراء والقضاة وكتاب ديوان الخلافة هم الذين اقنعوه بعد ان موهوا عليه قلة هذا الخطر، واغروه بأهمال الدفاع عن تلك القلاع والحصون وتركها الى اهلها بحجة كون الاسماعيليين هم ملاحدة، خارجون عن الدين الاسلامي، فلا يستحقون النجدة والاغاثة. وحتى لو كانوا لا يستحقون هذه النجدة والاغاثة، فأنهم بالتأكيد اصحاب ولايات واقطاعات عربية عباسية قضمت وضمت الى رقاع هؤلاء الغزاة المعتدين، فلا يمكن السكوت على ذلك، انما يجب الدفاع عن هذه الأجزاء لاستعادتها وجعلها من حياض الخلافة، لأن ضرب الأجزاء واكتساحها معناه الاستهتار بكيان الخلافة (الدولة سياسياً)

---

(٦٩) رشيد الدين الهمذاني: جامع التواريخ مج٢ قسم١ ص٢٦٩ ـ ٢٧٠

وبشخصية الخليفة، والمفروض ان تكون عزيمة الخليفة اكبر من هذا السكوت الذي ينوش سيادته على دولته، وكرامة ارضه. لكنه مع كل ذلك لم يفعل. وحتى لو سلمنا جدلاً بأن الخليفة كان جاهلاً بالامور الأدارية، مغفلاً بالامور السياسية، ضحلاً بالأمور العسكرية، فأن رجال الدولة الذين يساعدونه او هم مسؤولون عن تسيير دفة الحكم، فهم الذين يتحملون اثقال السياسة والأدارة والعسكرية،وسيادة الدولة. لكنهم لم يفعلوا اي شيء من ذلك. وهذا معناه انهم كانوا منشغلين بصراعاتهم الشخصية من ناحية، لتحقيق مصالحهم الذاتية، وانهم من ناحية ثانية لا يهمهم امر البلاد وسيادتها وكرامتها وسؤددها، لأنهم لا يمتون الى هذا الوطن وهذه الأمة بأية صلة، بل هم جادو التفكير في اسقاط الدولة العباسية وتحطيم كيانها وازالة السيادة العربية وانهائها، وهم يصبون الى اعادة سلطان دولتهم الزائلة، او سلطان قوتهم على الخليفة والخلافة كلياً، خاصة وان نتائج هذه الصراعات كانت قد جرت عليهم الويلات والعذاب المرير مما تمثل بقتل وصلب آبائهم او اجدادهم، فيذكي هذا الحقد الدفين ويؤرث شرارة الأخذ بالثأر من طرف الصراع سواء كان الخليفة بالذات او انصاره ومساعديه، من اولئك المتنفذين في شؤون بلاط الخلافة.



الفصل الثامن

الرتل الخامس يعلن النفير

لقد وجدنا ان الكثير من الشخصيات السياسية في الدولة العربية العباسية، كانوا من الاعاجم، سواء موالي الفرس او الغلمان التركمان او غيرهم. وقد وصل العديد من هؤلاء مراتب عليا في السلطة، بالتنافس مع العناصر العربية، والتفوق عليهم، في المعارف والادارة اضافة الى السيطرة على الاسواق التجارية، والكوفة من المدن العراقية الكبرى آنئذ كان قد غلب عليها العنصر الفارسي لكون المدينة سوقاً تجارياً كبرى، وكانت لهؤلاء التجار الفرس علاقات وثيقة ببلاد فارس ومتعلقات عائلية واقتصادية. وقد بز الكثير من هؤلاء الأعاجم، العرب ونافسوهم في مناصبهم، اي انهم كانوا يعملون قصداً، بمبدأ الازاحة واشغال الفراغ، فهم يبعدون العناصر العربية بالتنافس معهم بالقابليات والوشايات والقرابات ويحجبون عنهم الخبرات، فلا تتفتح القابليات. واذا ازيح هؤلاء العرب، فتصبح المناصب خالية او شاغرة فيسارع الأعاجم الى اشغالها بعناصر ممن يمتون اليهم بصلة القربى او بصلة الميل القومي او الطائفي، وبذلك سهل انتشارهم وسيطرتهم على جميع مرافق الدولة. ومع ان اللغة هي اللغة العربية الا ان الفرس كانوا لا يتكلمون الا الفارسية في الكوفة، ويتكلمون الفارسية او يضمنونها مع العربية في بغداد وغيرها. وتغلغلوا في جميع مؤسسات الدولة، بتداعي بعضهم على بعض في الملمات وفي تحصيل المغانم والمكاسب، «ولما نكب الرشيد البرامكة، قال: اريد ان استعمل قوماً لم يعملوا معهم، فقيل له: لا تجد احداً لم

يكن يخدمهم»[1]. وقد وصل ابن العلقمي الفارسي الى منصب الوزارة بفعل جده وكده وتنافسه، وليس بهمته وحبه وصدقه وامانته واخلاصه ووفائه للعرب والخلافة والخليفة. فهو لا شك ان لم يكن عالماً متعمقاً في العلوم، فأنه لابد ان يكون على شيء كبير من اللباقة والدهاء اضافة الى ماتيسر له من المعارف التي يسخرها بلباقته لخدمة اغراضه واثارة الدهشة والاعجاب لدي سامعيه او مشاهديه، وهو لاشك ايضاً متمتع بقدر من الذكاء بحيث صار بأمكانهم توظيفه للوصول الى اهدافه وتحقيق مآربه الشخصية والقومية، العلنية منها والسرية، ولا يشك ان له صفات قد يتفوق بها على اقرانه واترابه وحاسديه من العرب وغير العرب ايضاً، لأن العامل الشخصي وتأكيد الذات الفردية تخلق في كثير من الاحيان نزعة الطموح لدى كل فرد، وقد عرف ابن العلقمي بأنه ابو طالب مؤيد الدين محمد بن محمد بن عبدالله بن العلقمي البغدادي، فأن «ابو طالب الوزير المدبر مؤيد الدين ابن العلقمي البغدادي الرافضي وزير المستعصم ولي الوزارة اربع عشرة سنة، فأظهر الرفض قليلاً، وكان وزيراً كافياً خبيراً بتدبير الملك ولم يزل ناصحاً لأستاذه حتى وقع بينه وبين الدوادار لأنه كان يتغالى في السنة، وعضده ابن الخليفة فحصل عنده الضغن ما اوجب له ان سعى في دمار الاسلام وخراب بغداد، على ما هو مشهور لأنه ضعف جانبه وقويت شوكة الدوادار بحاشية الخليفة. . واخذ يكاتب التتر الى ان جر هولاكو وجرأه على اخذ بغداد، وقرر مع هولاكو اموراً انعكست عليه»[2].

تواطؤ ابن العلقمي

اذن فهو ناقم على الخليفة لأنه قد التزم الدوادار وهو يتذكر السيادة الفارسية

(١) الجهشياري: تاريخ الوزراء والكتاب ص٤٠

(٢) الصفدي، صلاح الدين بن ايبك: الوافي بالوفيات ج١ ص١٣٦

الزائلة، ويرى بأم عينيه السيادة العربية الناشرة اجنحتها على العالم سياسة وفكرًا وعلمًا وفلسفة وحضارة في جميع النواحي «فكان مؤيد الدين محمد بن العلقمي وزير المستعصم، وهو آخر وزراء الدولة العباسية يفاوض كل من يدخل عليه من العلماء مفاوضة عاقل لبيب محصل، ولم يكن له بالعلوم ملكة وكان مرتاضاً بها رياضة طائلة»[٣]. وهو ايضا «كان وزيراً كافياً خبيراً بتدبير الملك، ولم يزل ناصحاً للخليفة حتى وقع بينه وبين الدوادار، لأنه كان يتغالى في السنة، وعضده ابن الخليفة، فحصل عنده من الضغن ما اوجب له ان سعى في دمار الاسلام وخراب بغداد، حتى قال ابن العلقمي في نفسه:

وزير رضى من بأسه وانتقامه ... بطي رقاع حشوها النظم والنثر
كما تسجع الورقاء وهي حمامة ... وليس لها نهي يطاع ولا أمر

واخذ يكاتب هولاكو الى ان جر هولاكو وجرأه على اخذ بغداد، وقرر مع هولاكو اموراً انعكست عليه، وكان كثيراً ما يقول: «جرى القضاء بعكس ما املته». وقال له بعض أهل بغداد: يا مولانا انت فعلت ما فعلت . . . وقد قتل من اهل بغداد ازيد من الف الف وثمانمائة الف، وارتكب الفواحش مع النساء الاشراف وافتضت ابكارهن بما لا يعلمه الا الله تعالى، فقال بعد ان قتل الدوادار ومن كان على رأيه: لا ابالي. ولم تطل مدته حتى مات غماً وغبناً»[٤]،

ان هم الوزير الفارسي ابن العلقمي هو ان يكون خليفة للمسلمين واميرًا للمؤمنين، بعد اسقاط الخلافة العباسية وازالة السيادة العربية، لكن العدو لا يأمن

---

(٣) الطقطقي محمد بن علي بن طباطبا: الفخري في الاداب السلطانية ص ١٨٠
(٤) الكتبي: عيون التواريخ ج ٢٠ ص ١٩٤

جانب الجواسيس والوصوليين والنفعيين والانتهازيين، وعناصر الرتل الخامس، لأن العدو يدرك ان من لا يخلص لبلاده، لا يمكن ان يخلص لغير بلاده، ومن لا يفي بحق وطنه وامته، لا يمكن ان يفي بحق الامة الغازية او الغالبة. فالامنية التي كان يتمناها الوزير الفارسي ابن العلقمي لم تتحقق، لأن هولاكو ادرك ان من خان نعمة مولاه، فأنه لا يأنف من خيانة من تآمر معه وشواهد التاريخ كثيرة، تلك التي تتحدث عن ابناء او بنات الملوك او الوزراء او ابنائهم ممن تآمروا وممن تآمرن ضد آبائهم واوطانهم، فلم يثق بهم الفاتحون او المستعمرون، بعد ان احتلوا بلادهم، بل ان عددا من القادة الفاتحين قتلوا اولئك الذين عاونوهم على احتلال بلدانهم. لأنهم متأكدون بأن امثال هؤلاء لا يمكن ان يخلصوا لهم مثلما لم يخلصوا لابناء جنسهم وقوميتهم وامتهم ودينهم. وهكذا كانت نهاية الوزير الفارسي ابن العلقمي.. النهاية التي لم يتوقعها ابداً ففي: «سنة ٦٥٦هـ توفي الوزير (ابن العلقمي) وزير الامام المستعصم بالله ببغداد. كان فاضلاً عالي الهمة، متغالياً في التشيع. ورأى قبل موته ما تعجل له من الهوان من التتر واللعنة في الناس، وندم حيث لا ينفع الندم. وبقي يركب من خيل التتر واكاديشهم، فبينما هو يوماً راكب اكديش تتري، وواحد من التتر يسوق به، ويستعجله اذ نادته امرأة من طاقة: ابن العلقمي! كذا كان بنو العباس يفعلون معك في ركوبك؟ قال؛ فمنها لزم بيته، وما عاد ركب، وانفطرت مرارته، وتمرض فنعوذ بالله من حظوظ انفسنا»[٥] لكنه مع ذلك جوزي جزاء قليلاً ولم يكن اكثر من مقامه في الدولة العباسية اذ «استبقى هولاكو الوزير ابن العلقمي مدة يسيرة في الوزارة..»[٦]

ان مثل هذه الشخصية جديرة بأن تدرس حسب ما جاء به المؤرخون ممن عاصروه، او سمعوا عن معاصريه، او ادركوا الحوادث بالقرب التاريخي، فيقول

---

(٥) الكتبي: عيوان التواريخ ج٢٠ ص١٩٣

(٦) القلقشندي: مآثر الانافة في معالم الخلافة ج٢ ص٩١

الصفدي : «وابو طالب الوزير المدبر مؤيد الدين ابن العلقمي البغدادي الرافضي وزير المستعصم، ولي الوزارة اربع عشرة سنة، فأظهر الرفض قليلاً، وكان وزيراً كافياً. . حتى وقع بينه وبين الدوادار. . وقرر مع هولاكو اموراً انعكست عليه، وندم حيث لا ينفعه الندم، وكان يقول: وجرى القضاء بعكس ما املته، لأنه عومل بانواع الهوان من أراذل التتر والمرتدة. . وحكي انه كان في الديوان جالساً فدخل بعض التتر ممن لا له وجاهة راكباً فرسه، فساقه الى ان وقف بفرسه على بساط الوزير وخاطبه بما اراد، وبال الفرس على البساط واصاب الرشاش ثياب الوزير، وهو صابر لهذا الهوان. . وقال له بعض اهل بغداد: يا مولانا انت فعلت هذا جميعه وحميت الشيعة حمية لهم، وقد قتل من الاشراف الفاطميين خلق لا يحصون، وارتكب من الفواحش مع نسائهم وافتضت بناتهم الابكار مما لا يعلمه الا الله تعالى»[٧].

ان تهمة التواطؤ التي قام بها ابن العلقمي لا يمكن ان تسحب ولا يمكن تجاوزها، لأنها لم تكن تهمة بسيطة، انما هي تهمة كبرى. . هي تهمة الخيانة العظمى. . وهي تهمة التفاوض مع العدو في وقت السلم، والتواطؤ مع العدو اثناء المفاوضات والتواطؤ معه اثناء الحرب. وقد ثبتت التهمة قولاً وفعلاً. وان اجمع المؤرخون على وجود هذه التهمة فلا يمكن تكذيبها، لمجرد انهم لم يشاهدوا السعي والتحرك، انما سمعوا به سماعاً، ونقلوه نقلاً.ومن هؤلاء المؤرخين من سمعه على بعد مكاني ومنهم من سمعه على بعد زماني. . ولكننا نعلم ان الحقيقة لا يمكن ان تخفى على احد. . وان خفيت ساعة فأنها لا تخفى يوماً، وان خفيت يوماً فلا تخفى شهراً وان خفيت سنة فلا تخفها دهراً. والحقائق كثيرة تلك التي انكشفت في عصرنا الحديث بالرغم من وسائل السرية والكتمان. . وبالرغم من الاسيجة والتحصينات التي تقوم بها وسائل امن السياسة ومخابراتها، او امن الدولة

(٧) الصفدي صلاح الدين: الوافي بالوفيات ج١ ص١٨٤

وحصانتها، الا انها مع كل ذلك تنكشف.واذا لم نصدق جميع المؤرخين العرب الذين ارخوا لسقوط الخلافة العباسية واحتلال بغداد، وتحدثوا عن دور ابن العلقمي، لأن هؤلاء المؤرخين كانوا بعيدين زمانياً او مكانياً، فأنه يجب ان نصدق، مؤرخاً غير عربي، انما هو فارسي الأصل، يهودي النشأة،مسلم التبعية، وهو لم يعش في ظلال الدولة العربية العباسية، انما عاش في ظلال حكومة جنكيز خان وابنه هولاكو، ولم ينشأ هذا المؤرخ في بغداد، انما نشأ في همذان، وهو لا يعرف اللغة العربية الا قليلاً، ولم يدون بها تاريخ هولاكو والمغول، انما دون باللغة الفارسية، لكنه ايضاً يعرف اللغة الصينية واللغة العبرية(!!). وهو ايضاً مرافق هولاكو ووزيره ورئيس حكومته، وكاتبه ايضاً ومؤرخ تاريخ حملته. والكتاب الذي دونه عن حملة هولاكو نحو الشرق واحتلال بغداد، هو كتاب جامع التواريخ. . انه رشيد الدين فضل الله الهمذاني الذي يقول عنه الصقاعي، انه كان يهودي الاصل والدين، ينحدر من عائلة يهودية، ومع ذلك فهو الذي كتب:
«في الاحد غرة ذي القعدة سنة ٦٥٤هـ نزل خورشاه من القلعة - وهي قلعة آلموت الاسماعيلية بناء على شورة اعيان الدولة، وتوجه الى هولاكو في صحبة الخواجة نصير الدين الطوسي والخواجة اصيل الدين الزوزني، والوزير مؤيد الدين (ابن العلقمي) وابناء رئيس الدولة، فودع بذلك هذا الحصن الذي ظلت اسرته تتخذه مقراً لها مدة قرنين، ثم جاء فقبل الارض بين يدي السلطان الاعظم. وقد انشد الخواجة نصير الدين الطوسي في تاريخ هذه الحادثة هذين البيتين:
«عندما صارت السنة الهجرية اربعاً خمسين وستمائة وفي صباح يوم الأحد الموافق غرة ذي القعدة قام خورشاه ملك الاسماعيلية من على عرشه ووقف بين يدي هولاكو»[٨]

---

(٨) رشيد الدين الهمذاني: جامع التواريخ مج٢ ئسم١ ص٢٤١

ان مقابلة الوزير ابن العلقمي والفلكي الفارسي نصير الدين الطوسي بعد ان خرج سراً من بغداد ذاهباً مع خورشاه ونصير الدين الطوسي الى قلعة آلموت لتقديم فروض الطاعة واخذ الامان ثم اطمعه بأحتلال بغداد واسقاط الخلافة العباسية.

اسباب تواطؤ ابن العلقمي

يستدرك رشيد الدين الهمذاني في سبب اطماع ابن العلقمي لهولاكو باحتلال بغداد يقول: «.. كان مجاهد الدين الدوادار يحتضن بنفسه هؤلاء الرعاع والسفلة فصار في مدة وجيزة صاحب شوكة وبأس. ولما لمس في نفسه القوة، ورأى الخليفة المستعصم شخصا عاجزاً، لا رأي له ولا تدبير، وساذجاً اتفق مع طائفة من الاعيان على خلعه وتولية خليفة آخر من العباسيين في مكانه.. وعندما علم مؤيد الدين بن العلقمي نبأ تلك المؤامرة، اخبر الخليفة على انفراد قائلا: يجب تدارك امرهم. فاستدعى الخليفة الدوادار على الفور واطلعه على ما قاله الوزير في شأنه، ثم قال له: لما كنت اعتمد عليك واثق بك، فأني لم اصغ الى كلام الوزير، وهو يغمزك. واني لأبلغك بأنه لا يجوز ان تخدع بأية حال ولا تحيد عن جادة الطاعة. فلما احس الدوادار من الخليفة الشفقة والعطف اجاب: اذا ثبت علي جرم فهذا رأسي، وهذا هو السيف. ومع هذا فأين يذهب عفو الخليفة وصفحه وغفرانه.. اما هذا الوزير المزور المخادع فقد حمله الشيطان بعيداً عن الطريق المستقيم واختمرت في ذهنه المظلم فكرة الولاء والميل الى هولاكو كوخان وجيش المغول. وان سعايته في حقي لمن اجل دفع هذه التهمة عن نفسه، وانه عدو الخليفة، فهو يتبادل مع هولاكو خان الجواسيس. فاستماله الخليفة وقال له: منذ هذه اللحظة كن يقظاً وفاعلاً»[9].

---

(٩) رشيد الدين الهمذاني: جامع التواريخ مج٢ قسم١ ص٢٤٣

ان هذه الحكاية تدعو الى العجب والاستغراب، حيث يكون رشيد الدين الفارسي اليهودي قد عرفها وعرضها في كتابه التاريخي، وان لم تكن هذه الحكاية حقيقية قد عرفها حقاً رشيد الدين الهمذاني، لما رواها، مع كونها تثبت وجود الصراع بين مجاهد الدين ايبك الدوادار (التركماني) وابن العلقمي (الفارسي). فابن العلقمي هو الذي اطمع هولاكو، باحتلال بغداد، قبل الزحف بسنتين اي عام ٦٥٤هـ. ويضيف رشيد الدين الهمذاني: «. . اذن فعليك ان تكون مستعداً للحرب والقتال، فأني متوجه الى بغداد بجيش كالنمل والجراد. ولو جرى سير الفلك على شاكلة اخرى فتلك هي مشيئة الله العظيم.

«وبعد ان وصل رسل بغداد، بلغوا رسالة الملك الفاتح الى الوزير فعرضها برمتها على الخليفة، فقال: ماذا ترى لدفع هذا الخصم القاهر القادر؟ فأجاب الوزير: ينبغي ان ندفعه ببذل المال لأن الخزائن والدفائن تجمع لوقاية عزة العرض وسلامة النفس، فيجب اعداد الف حمل من نفائس الاموال والف من نجائب الابل، والف من الجياد العربية المجهزة بالآلات والمعدات، وينبغي ارسال التحف والهدايا في صحبة الرسل الكفاة الدهاة مع تقديم الاعتذار الى هولاكو وجعل الخطبة والسكة باسمه.

«فاعجب الخليفة برأي الوزير، وأشار بانجاز ذلك. ولكن مجاهد الدين ايبك المعروف بالدوادار الصغير- بسبب الوحشة التي كانت بينه وبين الوزير- ارسل الى الخليفة رسالة بالاتفاق مع الأمراء الآخرين ووفود بغداد، يقولون: ان الوزير يدبر هذه الحيلة لمصلحته الخاصة لكي يتقرب زلفى الى هولاكو، ويلقي بنا نحن الجنود في البلاء والمحنة»[١٠]

وتأكيداً لما ذكرنا نستشهد بما يقول المقريزي عن سنة ٦٥٤هـ: «وفيها وصلت جواسيس هولاكو الى الوزير مؤيد الدين بن العلقمي ببغداد، وتحدثوا

---

(١٠) رشيد الدين الهمذاني: جامع التواريخ مج٢ قسم١ ص٢٧١

معه، ووعدوا جماعة من امراء بغداد بعدة مواعيد، والخليفة في لهوه لا يعبأ بشيء من ذلك»[11]. ويقول اليونيني: «في سنة اربع وخمسين وستمائة تهيأ هولاكو لقصد العراق. وسبب ذلك ان مؤيد الدين بن العلقمي وزير الخليفة كان رافضاً واهل الكرخ روافض، وفيه جماعة من الاشراف، والفتن لا تزال بينهم وبين اهل باب البصرة.. وكاتب الوزير ابن العلقمي التتر واطمعهم في البلاد وارسل اليهم غلامه واخاه وسهل عليهم ملك العراق، وطلب منهم ان يكون نائبهم في البلاد، فوعدوه بذلك، واخذوا في التجهيز لقصد العراق، وكاتبوا بدر الدين لؤلؤ صاحب الموصل في ان يسير اليهم ما يطلبونه من آلات الحرب، فسير اليهم ذلك. ولما تحقق قصدهم، علم انهم اذا ملكوا العراق لا يبقون عليه. فكاتب الخليفة سراً في التحذير منهم، وانه يستعد لحربهم، فكان الوزير لا يوصل رسله الى الخليفة، ومن وصل الى الخليفة منهم بغير علم الوزير اطلع الخليفة وزيره على امره، فكان الشريف تاج الدين بن صلايا نائب الخليفة باربل، فسير الى الخليفة من يحذره من التتر وهو غافل لا يجدي فيه التحذير ولا يوقظه التنبيه، لما يريده الله تعالى»[12]

لقد اضاف اليونيني قضية اخرى الى قضية تواطؤ ابن العلقمي، تلك هي انه كان يخفي الرسائل عن الخليفة المستعصم بالله، حتى لا يدرك التحذيرات التي ترده، وقد اكد المؤرخون هذه الرسائل التي ارسلها بدر الدين لؤلؤ التي فيها يحذر الخليفة العباسي المستعصم بالله، من نوايا هولاكو وجيش المغول. ويقول ابو الفلاح عبد الحي عماد الدين عن مقتل الخليفة المستعصم بالله وابنه: «.. كان سبب قتلهما ان المؤيد العلقمي الوزير. قاتله الله - كاتب التتر وحرضهم على قصد بغداد لأجل ما جرى على اخوانه الرافضة»[13]

---

(11) المقريزي؛ تقي الدين احمد: كتاب السلوك لمعرفة دول الملوك ص٤٠

(12) اليونيني: ذيل مرآة الزمان ص٨٦ - ٨٧

(13) ابو الفلاح عبدالحي عماد الدين الحنبلي: شذرات الذهب في اخبار من ذهب ص٢٧٠

ويضيف عبدالحي بن عماد الدين: «.. فظن المخذول ان الأمر يتم له، وانه يقيم خليفة علوياً، فأرسل اخاه ومملوكه الى هولاكو وسهل عليه اخذ بغداد، وطلب ان يكون نائباً عليها، فوعده بالأماني. وساروا فأخذ لؤلؤ صاحب الموصل يهيء للتتر الاقامات ويكاتب الخليفة سراً، فكان ابن العلقمي - قبحه الله - لا يدع تلك المكاتبات تصل الى الخليفة، مع انها لو وصلت لما اجدت لأن الخليفة كان يرد الامر اليه»[14].

ويأتي مؤرخ هو الملك الاشرف الغساني فيقول: «.. فلما ارسل هولاكو الى اهل العراق، كما ذكرنا، التمس الدخول في طاعته والجواب عما طلب، اشار الوزير على الخليفة بعدم الاجابة الى ما طلب، فلما سمع هولاكو مضمون الكتاب، وفهم المقصود من الجواب، جرد العزم وقدم الحزم، وكتب اليه الوزير مؤيد الدين ابن العلقمي يطمعه في البلاد، ويسهل عليه فتح العراق، وطلب ان يكون نائبه فيها، فوعده بذلك. وتأهب هولاكو يقصد بغداد، وكتب الى صاحب الموصل يأمره بتهيئة الأقامات وجمع السلاحات فكتب صاحب الموصل الى الوزير والى الخليفة برسل.. وكان الوزير لا يطلع الخليفة على كتب صاحب الموصل ولا غيره»[15]

ان المؤرخ الاشرف الغساني هنا اضاف قضية ثالثة الى تواطؤ ابن العلقمي، تلك هي ان لا يوافق هولاكو فيما طلب منه، وان يرفض الاجابة الى ما يرغب فيه وذلك لكي يشتد غيظ وغضب هولاكو ضد الخليفة العباسي المستعصم بالله، وبذلك يتم لابن العلقمي ما يريد من احتلال هولاكو لبغداد واسقاط الخلافة العباسية وازالة السيادة العربية وقتل الخليفة المستعصم بالله.

ويقول الكتبي: «فكاتب ابن العلقمي واطمعهم في البلاد وارسل اليهم غلامه

---

(١٤) عبدالحي بن عماد الحنبلي، شذرات الذهب في اخبار من ذهب ص٢٧٠

(١٥) الملك الاشرف اسماعيل بن العباس الغساني: ص٦٢٤

واخاه، وسهل عليهم ملك العراق وطلب منهم ان يكون واليهم في البلاد، فوعدوه بذلك، واخذ بالتجهيز لقصد العراق. وكان الشريف ابن صلايا (العلوي) نائب الخليفة باربل يسير الى الخليفة ويحذره من التتر، وهو غافل لا يجدي فيه التحذير ولا يوقظه التنبيه لما يريده الله تعالى». . و «كان الوزير ابن العلقمي قد اطمعته نفسه بأن الامور تكون مفوضة اليه، وكان قد عزم على ان يحسن لهولاكو ان يقيم ببغداد خليفة (فاطمياً) فلم يتم له ذلك، واطرحه التتر ورأى الاهانة في نفسه فمات كمداً حيث لم ينفعه الندم ولقاه الله تعالى» ويقول الذهبي: «واخذ يكاتب هولاكو الى ان جر هولاكو وجرأه على أخذ بغداد، وقرر مع هولاكو اموراً انعكست عليه، وكان كثيراً ما يقول (وجرى القضاء بعكس ما املته)»[١٦]. «وحكي انه لما كان يكاتب التتار تحيل الى ان اخذ رجلا وحلق رأسه حلقا بليغاً وكتب ما اراد عليه بالأمر ونفض عليه الكحل وتركه عنده الى ان طلع شعره وغطى ما كتب فجهزه وقال: اذا وصلت مرهم بحلق رأسك ودعهم يقرأون ما فيه. وكان آخر الكلام. اقطعوا الورقة. فضربت عنقه. وهذا غاية في المكر والخزي»[١٧] ويقول ابو الفداء عن سنة ٦٥٦هـ: «في اول هذه السنة قصد هولاكو ملك التتر بغداد وملكها في العشرين من المحرم وقتل الخليفة المستعصم بالله. وسبب ذلك، جرت فتنة بين اهالي بغداد على جاري عادتهم، فأمر ابو بكر بن الخليفة وركن الدين الدوادار، العسكر فنهبوا الكرخ وهتكوا النساء وركبوا منهن الفواحش، فعظم ذلك على الوزير ابن العلقمي وكاتب التتر واطمعهم في ملك بغداد. وكان عسكر بغداد يبلغ مائة الف فارس، فقطعهم المستعصم بالله ليحمل الى التتر متحصل اقطاعاتهم. وصار عسكر بغداد دون عشرين الف فارس، فارسل ابن العلقمي الى التتر اخاه، يستدعيهم، فساروا

---

(١٦) الكتبي: عيون التواريخ ج٢٠ ص١٣٢ - ١٣٦ - ١٩٤

(١٧) الكتبي محمد بن شاكر: فوات الوفيات ج٣ ص٢٥٥

قاصدين بغداد في جحفل عظيم»[18] ويقول ابن الوردي: «ثم دخلت سنة ٦٥٦هـ فيها قصد هولاكو ملك التتر بغداد وملكها في العشرين من المحرم وقتل الخليفة المستعصم بالله، وسببه ان وزير الخليفة مؤيد الدين بن العلقمي عظم عليه ـ امر الفتنة في بغداد ـ فكاتب التتر واطمعهم في بغداد، وطمع الخبيث الغوي في اقامة خليفة علوي. وكتب ابن العلقمي الى وزير اربل يطلعه على ذلك رسالة منها: انه قد نهب الكرخ المكرم، وقد ديس البساط النبوي المعظم، وقد نهبت العترة، واستؤسرت العصابة الهاشمية وقد حسن التمثيل بقول شخص من غزنة:

امور تضحك السفهاء منها	ويبكي من عواقبها اللبيب
ارى تحت الرماد وميض نار	ويوشك ان يكون لها ضرام
فأن لم يطفها عقلاء قوم	يكون وقودها جثث وهام
فقلت من التعجب ليت شعري	أأيقاظ امية أم ينام[19]

ويقول ابن كثير اعتماداً على سبط ابن الجوزي في مرآة الزمان: «.. وذلك كله عن آراء الوزير ابن العلقمي الرافضي وذلك انه لما كان في السنة الماضية ـ اي سنة ٦٥٤هـ ـ وقعت حرب عظيمة نهبت فيها الكرخ.. حتى نهبت دور قرابة الوزير، فاشتد حنقه على ذلك، فكان هذا مما اهاجه على ان دبر على الاسلام واهله ما وقع من الامر الفظيع الذي لم يؤرخ ابشع منه منذ بنيت بغداد، والى هذه الاوقات. ولهذا كان اول من برز الى التتر هو، فخرج بأهله واصحابه وخدمه وحشمه، فاجتمع بالسلطان هولاكو ـ لعنه الله ـ ثم عاد فأشار على الخليفة بالخروج اليه، والمثول بين يديه»[20]

---

(١٨) ابو الفداء: المختصر في اخبار البشر ج٣ ص١٩٣

(١٩) ابن الوردي: مختصر تاريخ البشر ج٢ ص١٩٥

(٢٠) ابن الكثير: البداية والنهاية ج١٣ ص١٩٧

ان الاتهام هنا بأطماع هولاكو باحتلال بغداد، واسقاط الخلافة العباسية وازالة السيادة العربية وقتل الخليفة المستعصم بالله، لم يكن قد أتى من شيعة بغداد العرب المسلمين، ولم يأت من شيعة العراق العرب المسلمين، ولن تتسنى بهم عملية اطماع هولاكو في احتلال بغداد عاصمتهم العظيمة المعظمة ولا اسقاط الخلافة العباسيةولاازالة السيادة العربية انما الاتهام ينصب ضد ابن العلقمي الوزير الفارسي في الدولة العربية، لأنه هو الذي كاتب وفاوض وجرأ واطمع هولاكو وجنده المغول والتتر على احتلال بغداد واسقاط الخلافة العباسية وقتل الخليفة وذبح اهل بغداد وازالة السيادة العربية.

ويقول ابن خلدون: «وزحف هولاكو ملك التتر سنة ٦٥٢هـ الى العراق، وقد فتح الري واصبهان وهمذان، وتتبع قلاع الاسماعيليين ثم قصد قلعة آلموت، سنة ٦٥٥هـ فبلغه في طريقه كتاب ابن الموصلايا (ابن صلايا) صاحب اربل، وفيه وصية ابن العلقمي وزير المستعصم (بالله) الى هولاكو يستحثه لقصد بغداد ويهون عليه امرها، فرجع عن بلاد الاسماعيلية وسار الى بغداد، واستدعى امراء التتر فجاءه(بنمو) مقدم العسكر ببلاد الروم ,وقد كانوا ملكوها»[٢١]. وابن خلدون كان معروفاً بصدقه وصراحته فكتب عن العرب مالهم وما عليهم حسب ما كان يرتأيه كعالم اجتماعي مجدد وعظيم، ولا شك، انه كان يتحرى الوقائع والاحداث، ولا يلقي الكلام جزافاً عن تلك الاحداث واخبارها.

ويقول المقريزي عن سنة ٦٥٤هـ: «وفيها وصلت جواسيس هولاكو الى الوزير مؤيد الدين محمد بن العلقمي ببغداد، وتحدثوا معه ووعدوا جماعة من امراء بغداد بعدة مواعيد والخليفة في لهوه لا يعبأ بشيء من ذلك»[٢٢].

---

(٢١) ابن خلدون: كتاب العبر ج٣ ص١١٠٥

(٢٢) المقريزي: كتاب السلوك لمعرفة دول الملوك ج١ قسم ٢ ص٤٠٩

والمقريزي من المؤرخين الذين يعتد برأيهم، ويحتفي به احتفاء كبيراً، ولا مبرر لأن يقف ضد الوزير ابن العلقمي وقد كتب تاريخه هذا في زمن ليس فيه من هو مع العرب لأفول دولتهم سياسياً، وتشتت ابنائهم بعد مذبحة هولاكو، بحيث ظلت البلاد العربية بدون خليفة لمدة ثلاث سنوات، ثم تعاور على العراق المماليك السلاجقة حتى وصلت جيوش العثمانيين الغازين، فاحتلت العراق. فالمقريزي لا مصلحة له في الكذب على التاريخ وتزويره.

ان ابن الفوطي كان عمره ثلاث عشرة سنة حينما اسره المغول سنة ٦٥٦هـ او اربع عشرة سنة اذا كان قد ولد عام ٦٤٢هـ، وهذا يعني ان ابن الفوطي كان شاهد عيان لأحداث بغداد ومجزرتها الرهيبة، وسقوط الخلافة العباسية وازالة السيادة العربية. وان كان لم يشاهد جميع الاحداث، فأنه سمعها عن قرب زمانياً ومكانياً. زمانياً لأنه عاش تلك الفترة، وسمع ممن بقي من رجال ونساء اللائي قد يكون بعضهن او عدد منهن عالمات فاضلات، ومكانياً كونه قد عاش في بغداد ذاتها، واسر فيها ايضا. وابن الرابعة عشرة او الثالثة عشرة يعي، خاصة ان كان من اولئك الصبيان النابهين ثم الشباب اليقظين، ولا يمكن لأحد ان يقول خلاف هذا عن ابن الفوطي، عالماً جليلاً، مؤرخاً دقيقاً، وصادقاً في تدوين الوقائع والاحداث. وهو اي ابن الفوطي الذي يقول عن سنة ٦٥٥هـ: «في هذه السنة رحل هولاكو خان من همذان نحو العراق، فلما اتصل ذلك بالخليفة المستعصم (بالله) شاور وزيره مؤيد الدين (ابن) العلقمي فيما ينبغي فعله، فأشار ببذل الاموال وحملها اليه مع التحف الكثيرة والاشياء الغريبة والاعلاق النفسية، فلما شرع في ذلك ثناه الدودار وغيره، وقالوا ان غرض الوزير تدبير حاله مع السلطان»[٢٣] وابن الفوطي المؤرخ العربي البغدادي، دقيق الملاحظة صادق الحديث، لأنه لم يلصق تهمة الخيانة وتهمة التواطؤ مع هولاكو

---

(٢٣) ابن الفوطي: الحوادث الجامعة ص٣١٩

بمكاتبته والاتصال به ومفاوضته خاصة وان نصير الدين الطوسي هو الذي تشفع لابن الفوطي عند قادة الجيش المغولي التتري المحتلين لبغداد في اطلاق سراحه من الاسر بعد ثلاث سنوات، ومعروف ان نصير الدين الطوسي الفارسي كان وزير الملك الصالح في قلعة آلموت الاسماعيلية فخدع الملك الصالح واغرى هولاكو باحتلال قلعة آلموت وقلاع الاسماعيلية الاخرى وهو ايضا صديق الوزير الفارسي ابن العلقمي، وهو اي نصير الدين الطوسي خلال الزحف المغول التتري على بغداد والموصل وميارفارقين، صار وزيراً لهولاكو وكاتب ديوانه، ومحرر رسائله المفعمة بالتهديد والوعيد الى الامراء والملوك والخليفة العباسي، والمطرزة بالآيات القرآنية والمزينة بالأبيات الشعرية العربية والفارسية فأمام هذه الشفاعة والمنة لا يمكن لابن الفوطي الا ان يتحرج من ذكره وذكر صديقه الوزير الفارسي بسوء انما يتوخى الحقيقة صادقاً مخلصاً وفياً للتاريخ ولمدينته بغداد العظيمة المعظمة التي رأى خرابها ودمارها واستباحة اهلها بعينه. فاذا به يضيف الى تواطؤ ابن العلقمي قضية التجسس التي كان يقوم بها عناصر الرتل الخامس، حيث ان «منهم بيت مقلد بن احمد الخرداذي التاجر المتوفى سنة ٦٥٢هـ، وكان ببغداد جماعة من التجار الذين يسافرون الى خراسان وغيرها، قد تعلقوا، من قبل، على امراء المغول، وكتب لهم فرامين. فلما فتحت بغداد خرجوا الى الامراء وعادوا ومعهم من يحرس بيوتهم، والتجأ اليهم جماعة من جيرانهم فسلموا»[٢٤]. وهذا يعني كما يشير ابن الفوطي، ان عددا من هؤلاء التجار كانوا قد اصبحوا جواسيس، ويلعبون على الحبلين، وهذا المقلد الخرداذي صار احد الجواسيس على بلده ووطنه وامته، ان كان عربياً، وصار متآمراً ان لم يكن عربياً. لكنه ظهر بأنه فارسي الاصل، فهو لا تربطه رابطة الولاء بالعراق وببغداد العظيمة المعظمة، لأن وطنه بلاد الفرس. . ارض المجوس والزرادشتيين الذين فلت امبراطوريتهم العسكرية وحطم مجدهم الشائه ومرغ تاج كسرويتهم بأيدي

---

(٢٤) ابن الفوطي: الحوادث الجامعة ص٣٢٩

العرب والمسلمين الحقيقيين، فصارت بلاد الفرس وما وراء النهر ضيعة او اقليماً من اقاليم الدولـة العربيـة الاسلاميـة، لذلـك هم اي الفرس ظلوا يحنقـون وينقمون على العرب الفاتحين وعلى الدين الاسلامي الـذي ساعـد في تحطيم عرش دولتهم، ويقول الصفدي: «ابو طـالب الوزيـر المدبـر (ابن العلقمي) البغدادي الرافضي وزير المستعصم بالله ولي الوزارة اربع عشرة سنة. . فحصل عنده من الضغن ما اوجب ان سعى في دمار الاسلام وخراب بغداد على ما هو مشهور»[٢٥]. وقد ندم ابن العلقمي حتى مات كمداً، والندم الذي اعتور نفس ابن العلقمي ليس بسبب اسقاط الخلافة العباسية او قتل الخليفة العربي العباسي او ذبح اهالي بغداد او دمار بغداد او ازالة السيادة العربية، لأنه كان يعرف كل هذا قبل ان يحدث لأنه سبق ان حدث مثله في قلاع الاسماعيلية وبعقوبة وداقوق وميافارقين انما الندم الذي اعتراه. بسبب عدم تحقق حلمه بأن يصبح نائب الملك هولاكو خان(!) في بغداد، او خليفة المسلمين وأمير المؤمنين، او ان يجيء بخليفة فاطمي على ما كان يؤمل. ولو كان ابن العلقمي يحب العلويـين حقاً وصدقاً لدافع عن (ابن صلايا العلوي) حاكم اربل، لأن مجيء ابن صـلايا العلوي العربي، معناه تبديل خليفة عربي بخليفة عربي آخر، فلم يفعل، وقتل ابن صلايا مع من قتل في بغداد خلال المذبحة التي نفذها هولاكو ودبرها ابن العلقمي ونصير الدين الطوسي الفلكي(!!). . المجد الكسروي هو المحرك. . وهو الهدف. . اين في النـاس اب مثل ابي! «. . وكـان سبب قتلهما ـ يعني الخليفة المستعصم بالله، وابنه ـ ان المؤيد (ابن) العلقمي الوزير ـ قاتله الله ـ كاتب التتر وحرضهم على قصد بغداد لأجل ما جرى على اخوانه الرافضة من النهب والخزي، فظن المخذول ان الأمر يتم له، وانه يقيم خليفة علوياً، فأرسل اخاه ومملوكه الى هولاكو، وسهل عليه اخذ بغداد، وطلب ان يكون نائباً عليها، فوعدوه بالأماني، وسـاروا فأخـذ لؤلؤ صاحب المـوصل يهيء للتتر الاقـامات

(٢٥) الصفدي: الوافي بالوفيات ص١٧٩

ويكاتبهم فلم تصل كتبه الى الخليفة مع انها لو وصلت لما اجدت، لأن الخليفة كان يرد الامر اليه»[٢٦]. يريد الامر ان يتم له.. ان يكون خليفة او ملكاً او نائب خليفة، او حاكماً، او يعين خليفة فاطمياً، حتى يستتب الأمر لأعادة مجد كسرى..

وهكذا ندم ابن العلقمي

لقد كاتب ابن العلقمي هولاكو، وارسل له الرسل ومن رسله اخوه وغلامه او مملوكه، وذلك لاطماع هولاكو باحتلال بغداد وقتل الخليفة، حتى يكون ابن العلقمي الفارسي خليفة للعرب المسلمين، او يكون نائباً عن هولاكو في بغداد، وينصب خليفة من البيت العلوي(!!) - وهو يقصد خليفة فاطمياً. ومهما كانت هذه الأمور مختلفة، فأنها تدل على وجود صلة وعلاقة بين ابن العلقمي، وهولاكو. وقد حدثت من وراء ظهر الخليفة العباسي المستعصم بالله، وحتى لو كانت اشاعات فأنها تدل على شعور هؤلاء المشيعين من عامة الناس من اهالي بغداد بأن ابن العلقمي كان معادياً للخليفة ولأهل بغداد، والمؤرخون يكتبون ايضاً هذه الاشاعات. لأنها كانت موجودة، «كان للمستعصم بالله وزير يقال له مؤيد الدين بن العلقمي الرافضي، فشق عليه، فكتب الى هولاكو بن طولي بن جنيكز خان ملك التتر، واطمعه في البلاد، فخرج هولاكو للاستيلاء على بلاد الخليفة»[٢٧]. والقلقشندي يتفق مع ابي الفلاح بن عماد الحنبلي صاحب كتاب شذرات الذهب في اخبار من ذهب، في كتابه مآثر الانافة في معالم الخلافة، ان (ابن العلقمي) كاتب هولاكو وارسل اليه اخاه ومملوكه (غلامه) ليحمل الى هولاكو رسالة شفهية بأخذ الأمان لابن العلقمي واهله وحاشيته والزحف نحو بغداد لاحتلالها، وقتل الخليفة واسقاط

---

(٢٦) عبدالحي بن عماد الحنبلي: شذرات الذهب في اخبار من ذهب ص٢٧٠

(٢٧) القلقشندي: مآثر الانافة في معالم الخلافة ج٢ ص٨٩

الخلافة وازالة السيادة العربية وتدمير بغداد وذبح اهل بغداد، واسناد الخلافة اما اليه، واما الى احد افراد البيت العلوي، على ان يكون فاطميًّا، والا فهو نائب هولاكو الذي يحكم العراق. . ويقول الاستاذ عباس العزاوي المحامي: «وكتاب سياسية الامصار في تجربة الاعصار وتاريخ آل جنكيز. . وقص فيه حادثة بغداد، وشهادة الخليفة المستعصم بتفصيل واتهم الوزير ابن العلقمي» والكتاب في مكتبة ايا صوفيا، باسطنبول وباللغة الفارسية[٢٨]. والجوزجاني فارسي الا انه سجل ما سمع من اخبار ابن العلقمي والخليفة المستعصم بالله واحتلال بغداد وذبح اهالي بغداد واسقاط الخلافة العباسية وازالة السيادة العربية.

ولا يسعنا ايضا الآن نستشهد باقوال ابن العبري غريغوريوس ابو الفرج الملطي، وهو بطريارك مسيحي عاش في ملاطية، وهو معاصر لهولاكو، واكتساحه للعراق واحتلال بغداد، ثم زحفه نحو ميافارقين وملاطية. وابن العبري المسيحي سمع باضطهاد المسلمين للنصارى في بغداد، وفي العراق. والمفروض ان يغضب، وان يغتاظ وان يحنق، وهو يسمع عن هذا الاضطهاد للنصارى في العراق، وكان المفروض ان يفرح ويتشفى باحتلال بغداد وذبح اهالي بغداد واسقاط الخلافة العباسية وازالة السيادة العربية، لأن اضطهاد النصارى وقع قبل هذه الاحداث، وابن العبري ايضاً هو الذي تشفع لدى هولاكو وابنائه وقواده لأيقاف المجزرة الدموية في حلب وميافارقين وديار بكر وملاطية. لكنه مع كل ذلك دوّن الحقيقة في اتهام ابن العلقمي، وقد كان المفروض ان يتجاهل ذلك ويتجاوزه في أقل تقدير، ويسكت عن خيانة ابن العلقمي وتواطئه لأنه اصبح وزير هولاكو، فيجامل هولاكو الذي قبل شفاعته في استباحة ملاطية وديار بكر وميافارقين وحلب. ان ابن العبري دوّن وصدق فيما دوّن، ودوّن ما كان قد صدقه واعتقد به، وهو الذي لم يره، لأنه ما كان في

(٢٨) عباس العزاوي المحامي: التعريف بالمؤرخين في عهد المغول والتركمان ج١ ص٧٧

بغداد، انما كان في ملاطية، انما سمعه عن بعد ونقل اليه عن طريق الروايات، ونقل اليه ربما عن طريق الرسائل والمكاتبات. ولم يكن المسلمون بالتأكيد، هم وحدهم الذين نقلوا اليه هذه الاخبار عن تلك الاحداث والوقائع، انما لا شك هناك من المسيحيين الكثيرين، الذين نقلوا اليه، او كاتبوه به، او رووه له، دونما اي تعاطف مع المسلمين، وهم لاشك لا يتعاطفون مع المسلمين الا اذا كانوا قد شهدوا غير تلك الحقيقة، لأنهم نجوا من القتل والنهب والسلب والسبي، فلم يسكتوا عن هذه الحقيقة التي شاهدوها بأم اعينهم وسمعوها ممن شاهدوها، فكانت حقيقة لا مرية فيها ولا تزييف، ولا كذب ولا تزوير. وابن العبري هو الذي يقول عنه الاب انطوان صالحاني اليسوعي سنة (١٨٩٠): «.. الا انه بينما كان عاكفاً على التحصيل جاداً في الطلب، انثالت المصائب على بلاده انثيالا وافرغت النوائب افراغاً، وتعاقب عليها الخراب من جانب المسلمين والفرنج والروم ثم من التتر والمغول الذين اسرفوا في القتل والنهب والسبي والحريق، حتى لم يسمع في التاريخ عن جهة الارض انها اصيبت بمثل ما نزل بهذه البلاد من المخارق والجوائح والمقاتل»[٢٩]. ويقول ابن العبري: «ولما فتح هولاكو تلك القلاع، ارسل رسولاً آخر الى الخليفة وعاتبه على اهماله، تسيير النجدة، فشاور الوزير فيما يجب ان يفعلوه فقال: لا وجه غير ارضاء هذا الملك الجبار ببذل الاموال والهدايا والتحف له ولخواصه. وعندما اخذوا في تجهيز ما يسيرونه من الجواهر والمرصعات والثياب والذهب والفضة والمماليك والجواري والخيل والبغال والجمال قال الدوادار الصغير واصحابه، ان الوزير انما يدبر شأن نفسه مع التتر، وهو يروم تسليمنا اليهم، فلا نمكنه من ذلك، فبطل الخليفة بهذا السبب تنفيذ الهدايا الكثيرة..»[٣٠]. وهذه هي الشهادة الموضوعية من رجل مسيحي يختلف مع المسلمين دينيا، وان اتفق معهم قوميًا، فأنه عربي، لذلك ما

---

(٢٩) ابن العبري: تاريخ مختصر الدول؛ المقدمة

(٣٠) ابن العبري: تاريخ مختصر الدول، ص٤٧٢

تألم لأهل ملته مثلما تألم لقومه وابناء امته وهذا لا يعني انه خان ديانته، انما يعني انه انتصف للحقيقة وانتصر لها، بالرغم من ان ابناء ملته كانوا قد وقعوا تحت طائلة الاضطهاد الديني في العراق، وبغداد بالذات لكنه صدق واعتقد، فدوّن، ان الوزير العلقمي شخصية مريبة بالنسبة للأمراء والفقهاء الذين كانوا يشكون في نواياه، فصدق حدس هؤلاء جميعاً، يوم نال هو الوحيد وبضعة انفار من الجواسيس وعناصر الرتل الخامس، الأمان من هولاكو ويوم عين ابن العلقمي بالذات وزيراً في الخلافة العباسية اللاخلافة، لأنها بدون خليفة لمدة ثلاث سنوات. وصار ايضاً نائباً لهولاكو في بغداد، لكنه كان محتقراً مهاناً حتى بالت فرس التتري على بساطه؛ وهو وزير التتر، وهذا ما لم يفعله به اهالي بغداد، فأهملوه باعتباره من سقط البشرية وليس الانسانية، لأن الانسانية لا سقط لها.

الصراع الستراتيجي

ننعطف الآن الى الخليفة الذي قام بعملية موازنة بين الأعاجم الفرس والغلمان التركمان، فعين الفارسي وزيراً له، وعين التركماني كاتب ديوان (الدوادار)، كأنما هو بذلك يتجنب الصراع، لكن هذه التعادلية ظاهرية، لأن الترصد والتربص يبقى يفعل فعله في فتح ثغرة للنفوذ منها حتى يتهيأ الجو للانقضاض على الطرف الثاني، وتقويض نظام الحكم.. كله الى صالح الغالب في الصراع. وبدل ان يكون الصراع ثنائياً بين العرب والفرس على السلطة والسيادة كما كان في زمن أبي جعفر المنصور وهرون الرشيد ثم اشتد حتى اوقع الفتنة بين الأمين والمأمون، اذا به الآن يتطور الى صراع ثلاثي، بعد ان عادت الخلافة من سامراء الى بغداد، اذ ذهبت الخلافة... مع المعتصم الى سامراء سليمة معافاة، ثم عادت مريضة عليلة، لأنه قد اصبح الصراع ثلاثياً يضم في حلبته العرب والفرس والسلاجقة. ولكن لأن السلطة عادة تمثل الطرف الأقوى، فأن الصراع يبدأ بين الطرفين الأضعف من أجل تنحية أحدهما وازاحته عن

الحلبة، حتى يحدث الفراغ فيشغله الطرف الغالب بالعناصر الموالية له او التي رباها وهيأها لتسلم المناصب التي شغرت بعد عملية الازاحة، او الشاغرة بفعل توسع الاعمال. فبدأ الصراع اذن وفي خلافة المستعصم بالله بالذات بين الجناح الفارسي والجناح التركماني، ولكل طائر جناحان يطير بهما، فأذا اختل هذان الجناحان، فالجسد يبقى ساكناً، وقد يتعرض لعلة تقضي عليه. ولقد ظهر الصراع متجلياً بين الوزير الفارسي ابن العلقمي والدوادار المملوك مجاهد الدين ابن ايبك وذلك لأن «هولاكو لما كان اول بروزه من همذان متوجها الى العراق، اشار الوزير مؤيد الدين بن العلقمي على الخليفة بأن يبعث اليه بهدايا سنية، ليكون ذلك مداراة له عما يريده من قصد بلادهم فخذل الخليفة عن ذلك دواداره الصغير ايبك وغيره، وقالوا ان الوزير انما يريد بهذا مصانعة ملك التتر بما يبعثه اليه من الأموال واشاروا بأن يبعث بشيء يسير»[٣١].

النوايا مختلفة عند ابن العلقمي وايبك، فكل منهما يحاول تسيير الأمور وفق ما تمليه مصالحه واهدافه فالخطر محدق بالبلاد، وهولاكو وجيشه المغولي التتري يهدد بغداد، وابن العلقمي يريد مصانعة هولاكو وربما يريد التقرب اليه، وهذا ما اعتقده ايبك الدوادار، ولا شك ان هذه المصانعة البسيطة وبعد فوات الأوان، كانت خطة ابن العلقمي للتغطية على هدفه، كأنما يؤكد ان يحاول انقاذ الخلافة وبغداد بهذه الهدايا البسيطة، والدوادار ايبك من ناحية يريد ان يفشل خطة ابن العلقمي، ويفضحه امام الخليفة ورجال دولته، حتى يتيسر له ابعاده عن مركزه هذا، وتغليب قوته ورجاله على الخلافة، خاصة وان كلاً من الوزير ابن العلقمي والدوادار ايبك يعرفان ضعف الخليفة المستعصم بالله وقلة حنكته وحزمه. ولو لم يكن هناك صراع بين ابن العلقمي ومجاهد الدين ايبك، لكان قد قرروا عقد مؤتمر واحدثت مشاورات على مستويات عالية، وتم الاتفاق بين الجميع على تدارك الوضع وحماية الخليفة والخلافة والعاصمة بغداد، لكنهم لم

---

(٣١) ابن كثير: البداية والنهاية ج١٣ ص١٩٦ وما بعدها.

يعقدوا اجتماعاً، ولم يتشاوروا ولم يتفقوا على اسس معينة لتكون لهم مرتكزات في معالجة الموقف. وذلك لوجود هذا الصراع بين هذين الرأسين في أعلى مراتب السلطة العربية بعد الخليفة ـ هدف الصراع ايضاً ـ لكنه صراع قد تكشف عن حقيقة الاختلاف وعدم التفاهم.

هذا هو السبب الاول او السبب الظاهر للصراع بين ابن العلقمي ومجاهد الدين، المصانعة ونيل الأمان، وهناك سبب آخر لهذا الصراع كتمه وكبته ابن العلقمي، الا وهو الفتنة التي وقعت في بغداد، وهذا السبب الثاني لم يكن موجهاً ضد الدوادار مجاهد الدين فقط، انما كان موجهاً ضده، وضد الخليفة والخلافة والسيادة العربية، ونحن لا يمكن ان نبرىء الدوادار مجاهد الدين من نتائج الصراع، لأنه هو ايضاً كان يريد ابعاد ابن العلقمي عن حلبة السلطة والتسلط على الخليفة لتمرير اهدافه وتحقيق مصالحه لكن الاتهام الصريح يقع الآن على ابن العلقمي لأن فاوض هولاكو وكاتبه على احتلال بغداد واسقاط الخلافة. فكان الصراع بين ابن العلقمي ومجاهد الدين الدوادار، يحتدم مرة فيظهر على السطح العلاقات بينهما، ويختفي مرة اخرى تحت اقنعة المجاملات وتحين الفرص. ولكن يجب ان نعلم ايضاً ان الدوادار مجاهد الدين لا تهمه مصلحة الخليفة ولا الخلافة مثلما لاتهمان أيضاً ابن العلقمي. وكل يحاول قيادة دفة سفينة سياسة الخلافة ليكون ربانها نحو شواطىء اهدافه الشخصية والقومية او المذهبية. وذلك لأن كلاً منهما يرى ان طائفته تمثل اقلية اجتماعية مغبونة الحقوق بالسيادة العربية ولم تحقق طموحها، ولم تصل الى مطامعها، ناهيك عن ان كلاً منهما ايضاً يعتقد بأنه مخذول محتقر مهان بالاسلام، بل احيانا يحاول الانتقاص من شأن الخلافة العربية العباسية والخليفة العربي العباسي وابناء الامة العربية، لأنه يشعر ان العرب يتعالون عليه، وهذا ما يؤكده ولهاوزن فيقول: «ولو ان العرب عاملوا العجم المسلمين معاملة الاكفاء، لعله كان بالأمكان صهر الأمتين. اما والأمور على ما كانت عليه، فقد انشأ العرب لأنفسهم اعداء

بينهم. وبدلا من ان يزيل الاسلام الخلاف، زاد فيه، فقد بعث العجم ومنحهم قوة الطبع ووضع بين أيديهم سلاحاً ضد أسيادهم. ذلك ان سقوط القوة العربية، لم يحصل من اهل ما وراء النهر الذين ظلوا ايرانيين مناوئين للعرب، بل من الخراسانيين الذين أسلموا، وكان الأسلام هو الميدان الذي شرع الخراسانيون النضال فيه ضد أصحابه الأول. وكان الأسلام هو الذي وحد بينهم وبين من اتبع من العرب مبادىء الحكم الديني، فناهضوا الحكم الأموي. والعرب هم الذين أثاروا الموالي اولا، ونظموهم»[٣٢]

ان الخلاف اذن موجود، والتناقض مستمر، لكنه مستتر تحت غطاء الدين الأسلامي الذي جمع العالم أجمعين ومنحهم حقوقهم مع لالفة والمحبة والطمأنينة. . فمنهم من كان صادق الدين، ومنهم من كان راغباً في التخلص به من الفوارق بينه وبين العرب، ومنهم من كان باغياً الاستفادة من هذه المساواة، ومنهم الرابع من أراد التخفي به وتحين الفرص للايقاع بالعرب الذين آذوهم بالفتح الاسلامي وجعلوهم خدماً وموالي أو مماليك. لذلك فأن الصراع يحتدم بين الأعجمي والعربي، والصراع يحتدم بين الأعجمي والأعجمي الآخر من امة اخرى، لأن كلا منهم يريد الخير لقومه ولأمته والشر للعرب وغير العرب من غير أمته. فأصبح العربي وحده محصلة الصراع وهدف الصراع. فاذا به قد استعر في عهد الخليفة المستعصم بالله سعاراً منقطع النظير. وان كان الأعاجم المسلمون يحبون العرب المسلمين، فكيف اذن خدم رشيد الدين الفارسي الهمذاني المسلم ظاهراً، ونصير الدين الطوسي العالم الفلكي، هولاكو الوثني، فيمتدح رشيد الدين الهمذاني هولاكو والمغول والتتر، ويذم العرب والخلافة العربية العباسية: فيقول: «. . كان مجاهد الدين الدوادار يحتضن بنفسه هؤلاء الرعاع والسفلة، فصار في مدة وجيزة صاحب شوكة وبأس. ولما لمس في نفسه القوة ورأى الخليفة المستعصم شخصاً عاجزاً لا رأي له ولا تدبير وساذجاً، اتفق

(٣٢) وفاوزن،بوليوس: الدولة العربية وسقوطها ص٣٩٤

مع طائفة من الأعيان على خلعه وتولية خليفة آخر من العباسيين في مكـانه. وعندما علم مؤيد الدين بن العلقمي نبأ تلك المؤامرة، أخبر الخليفة على انفراد قائلاً: يجب تدارك امرهم. فاستدعى الخليفة الدوادار على الفور واطلعه على ما قاله الوزير في شأنه، ثم قال له: كما كنت اعتمد عليك وأثق بك، فأني لم اصغ الى كلام الوزير وهو يغمزك. واني لأ بلغك بأنه لا يجوز ان تنخدع بأية حال، ولا تحيد عن جادة الـطاعة. فلما أحس الـدوادار من الخليفة الشفقـة والعطف، أجاب: اذا ثبت علي الجرم فهذا رأسي وهذا هو السيف. ومع هذا فأين يذهب عفو الخليفة وصفحه وغفرانه. اما هذا الوزير المزور المخادع، فقد حمله الشيطان بعيداً عن الطريق المستقيم، واختمرت في ذهنه المظلم فكرة الولاء والميل لهولاكو خان وجيش المغول. وان سعايته في حقي لمن اجل دفع هذه التهمة عن نفسه وانه عدو الخليفة، فهو يتبادل مع هولاكو خان الجواسيس. فاستماله الخليفة وقال له: منذ هذه اللحظة كن يقظاً وفاعلاً»[٣٣].

نستشف من حديث رشيد الدين الهمذاني اولاً انه يحتقر العرب ويسميهم الرعاع والسفلة، وهو يؤكد ثانياً ميل ابن العلقمي الى هولاكو وثالثاً معرفة هذا المؤرخ الهمذاني اسرار هذا الحوار المهم حول خلع الخليفة ومكاتبة هولاكو اذ أما ان يكون قد عرف ذلك من ابن العلقمي بالذات، وبذلك يكون ابن العلقمي قد خان الخليفة والأمانة على اسرار الدولة، واما يكون قد عرفهـا عن طريق اشتهارها بين الخاص والعـام. ونستشف رابعاً اعـتراف المؤرخ رشيد الـدين الهمذاني بوجود الجواسيس الذين ينقلون أخبار الدولة وربما الأسرار التي تودع اليهم الى هـولاكو، كما أننـا نستشف ايضـاً ان ابن العلقمي متهم بـالـولاء لهولاكو وانه يكاتبه، وان الدوادار متهم ايضاً بالتآمر على الخليفة. لكن الخليفة لم يحاكم هذا المتآمر على خلعه ولم يأت بالشهود ولم يستجوبهم، ولم يقتله علناً او

---

(٣٣) رشيد الدين الهمذاني: جامع التواريخ مج٢ قسم١ ص٢٦٣

يدس له السم. فالخليفة مقتنع ببراءة الدوادار في هذه القضية. وعفو الخليفة جرأه الى كشف خيانة ابن العلقمي بمكاتبة هولاكو سراً. لكنه ايضاً لم يحاكم ابن العلقمي. والسر في عدم محاكمة ابن العلقمي او تنحيته عن الوزارة هو انه ابقاه ذخراً ليوم الملمات، يستشيره ويحتمي به اذا وقعت الواقعة عند تقدم جيوش المغول والتتر بقيادة هولاكو الذي كان يهدد بغداد منذ عدة سنوات. لكن الخليفة المستعصم بالله كان جباناً ضعيف الهمة سهل القياد والانقياد عديم الحنكة والحزم الاداريين والسياسيين، فلم يكتشف نوايا الافعى الفارسية المتلبسة بلبوس وزيره ابن العلقمي الذي رباه، ليكون له شفيعاً، فاذا به كان يخفي الغدر، فسلمه الى حبل المشنقة او مقصلة السيوف المغولية والتترية.

وان لم تصدق هذه القضية بمرويات رشيد الدين الهمذاني مرافق هولاكو ومؤرخ رحلته الغازية، فأننا نسترشد بمدونات غيره من المؤرخين، لنجد ان ابن كثير يقول: «... ان هولاكو لما كان اول بروزه من همذان متوجها الى العراق، اشار الوزير مؤيد الدين بن العلقمي على الخليفة بأن يبعث اليه بهدايا سنية ليكون ذلك مداراة له عما يريده من قصد بلادهم، فخذل الخليفة عن ذلك دواداره الصغير ايبك، وغيره، وقالوا ان الوزير انما يريد بهذا مصانعة ملك التتر بما يبعثه اليه من الأموال»[٣٤].

هذا كلام صريح على وجود خلاف وتنافس وتخوف من شخصية ابن العلقمي، والا لعارض من في معية الخليفة في مجلسه، فكرة الدوادار، ولو قفوا الى جانب ابن العلقمي، لو لم يكن اكثر هؤلاء الأمراء والفقهاء والقضاة متهمين لابن العلقمي، وانهم انحازوا الذلك الى جانب الدوادار، الذي يثبت وجود هذا التكتل بالرغم من احتمال وقوع المصيبة بزحف جحافل المغول والتتر نحو بغداد وتهديد هولاكو الخليفة برسائله المتعددة.

---

(٣٤) ابن كثير: البداية والنهاية ص١٩

ويقول ابن الفوطي المؤرخ البغدادي عن سنة ٦٥٣هـ: «وفي هذه السنة (ايضاً) نسب الى مجاهد الدين ايبك الدوادار الصغير انه يدبر في خلع الخليفة المستعصم والمبايعة لولده الكبير، فانزعج لذلك، واقسم بالايمان المعتبرة، ان ما عنده مما نسب اليه علم، وسأل ان يواقف مع من قال عنه ذلك. وكان قد نسب هذه القول الى فلك الدين محمد بن علاء الدين الطبرسي الدوادار الكبير، والى الوزير مؤيد الدين بن العلقمي، فاستوحش منهما وخاف على نفسه وجمع عساكره اليه. وباتوا تحت السلاح، وفعل الوزير ايضاً مثل ذلك، وكانوا مستعدين فراسله الخليفة بنجم الدين عبدالغني بن الدرنوس وسكنه فلم يسكن، وأصر على الجمع بينه وبين من قال عنه، ووقعت وقعة عظيمة بين عوام المدرسة ومشرعة الصباغين، بسبب الحديث في ذلك، وقتل فيها خلق كثير وجرح عالم عظيم، فاشتد خوف الناس لذلك ثم انكشف الشر، واستمر حال مجاهد الدين على المقاطعة. وآثر الخليفة ازالة ما في نفسه، فكان يكثر من الجواز بالشبارة تحت داره مصعداً ومنحدراً، ثم ان فخر الدين ابن الدامغاني صاحب الديوان راسل الدوادار وضمن له القيام بما يرضى به، وتردد القول بينهما على لسان بهاء الدين داود بن المختار، فسأل الدوادار ان يكتب له أماناً بعلم الخليفة ويقرأ في جميع العالم، فقال له صاحب الديوان: انا أفعل ذلك، واحضر في دارك وتنجد انت الى الخليفة وتسمع كلامه، واكون في دارك الى ان تعود اليها. فأجاب الى ذلك»[٣٥].

نحن الآن امام صراع سياسي وصل الى حد اشهار السلاح بين جماعتي اكبر شخصيتين في الدولة بعد الخليفة، ونتيجة هذا الصراع، لم ينم كلا المتصارعين ليلتهم التي كشف فيها الخليفة المستعصم بالله الوشاية التي وشى بها ابن العلقمي للخليفة ضد الدوادار الصغير، بل ان كلاً منهما جمع انصاره من الجند والعامة وناموا على السلاح متهيئين اذا حاول احدهما الانقضاض على

---

(٣٥) ابن الفوطي: الحوادث الجامعة ص٢٩٥

الاخر. وهذه تشبه حوادث القيام بالانقلابات العسكرية.. لكن ابن العلقمي لا يريد ذلك لأن هولاكو اصبح قاب قوسين او أدنى من العراق، ومن العاصمة بغداد فالمغول والتراحرى بالقيام بهذا الانقلاب الذي لا يمكن ان يفلت.

ويؤيد وجود هذا الصراع الصفدي الذي يقول: «.. ولم يزل ناصحاً لأستاذه حتى وقع بينه وبين الدوادار. فحصل الضغن ما اوجب له ان سعى في دمار الأسلام وخراب بغداد»[٣٦]. وهذا تأكيد من الصفدي على ان هناك خلافاً حاداً بين ابن العلقمي والدوادار، وان هذا الخلاف هو الذي ادى الى الصراع، ومن ثم الى ان يضمر ابن العلقمي الحقد والغل ضد الخلافة العربية العباسية.. بل ان هذا هو المحرك الأصيل والخفي الذي جعل ابن العلقمي يتعلق به لأسقاط الخلافة ولأعادة المجد الفارسي الكسروي.

ويقول ابن العبري: «.. ولما فتح هولاكو تلك القلاع أرسل رسولاً آخر الى الخليفة وعاتبه على اهماله تسيير النجدة، فشاور الوزير (ابن العلقمي) فيما يجب ان يفعلوه فقال: لا وجه غير ارضاء هذا الملك الجبار ببذل الأموال والهدايا والتحف له ولخواصه. وعندما أخذوا في تجهيز ما يسيرونه من الجواهر والمرصعات والثياب والذهب والفضة والمماليك والجواري والخيل والبغال والجمال، قال الدوادار واصحابه: ان الوزير انما يريد شأن نفسه مع التتر، وهو يروم تسليمنا اليهم فلا نمكنه من ذلك»[٣٧] ولا يشك ان هذا الكلام كان صادقاً كل الصدق، وانه يدل على عدم ثقة كل من هذين الطرفين المتصارعين، وان احدهما يحاول الايقاع بالآخر، وكشف طويته ونواياه، وهو يدل ايضاً على وجود الصراع الخفي بينهما، والخليفة غافل جاهل بما يدور في بلاطه وعلى حدود بلاده، وخلف اسوار عاصمته. وبالتأكيد انه لا مصلحة لابن العبري لأن يحقد على الدوادار او يتهمه او يبرئه، ولا ان يحقد على ابن العلقمي او يتهمه او يدينه،

---

(٢٦) الصفدي: الوافي بالوفيات ج ص١٨٤

(٣٧) ابن العبري: تاريخ مختصر الدول ص٤٧٢

لكنه سمع هذا الكلام، وهو في ملاطية ودونه بعد ان سمعه، وهو عربي لكنه مسيحي . . وان كانت لا تجمعه جامعة الدين، لكن تجمعه جامعة القومية والأمة التي تمثل ارومته. وبالرغم من عدم وعيه واستيعابه لهذا الأمر في حينه، لكنه مع ذلك كشف الحقيقة جلية.



الفصل التاسع

فتنة بغداد

فتنة بغداد.. هي الحجة التي كانت بيد ابن العلقمي، التي حقد بمقتضاها ومن اجلها، وحنق وغضب غضباً شديداً على الدوادار وابن الخليفة ابي بكر، وعلى الخليفة المستعصم بالله وعلى بغداد وعلى اهل بغداد وعلى الخلافة العباسية وعلى السيادة العربية. فاضمر الشر من اجل اسقاط كل هذه وتسليمها مهيضة الجناح الى ايدي المغول والتتر بقيادة هولاكو، ولتكن بعدئذ خراباً يباباً، وقيعاناً طامية بالاوحال. وماذا يهم ابن العلقمي من امرها.. انها ليست بلاده، ولا وطنه ولا مأوى بني أمته.. فبلاد فارس.. وامته، الفرس. «ومع ذلك غضب ابن العلقمي وحنق!! والفتن في بغداد دائماً على جاري العادة بين اهالي المحلات البغدادية لأسباب كثيرة.. منها اسباب ملية، ومنها اسباب قبلية، ومنها اسباب شخصية، ومنها ايضاً اسباب مذهبية او طائفية. ولا شك ان مثل هذه الفتن التي تحدث في الكثير من الأحيان لا يمكن ان تكون سبباً. بعيد الغور في النفوس، حتى يأكل الحقد القلوب، فيتحول الغضب الى حقد، والحقد الى مؤامرة، والمؤامرة الى الصراع المذهبي. حرب لا تبقي ولا تذر. والفتنة التي حدثت في بغداد كما تلخصها الكتب التاريخية حيث ان «الفتن لا تزال بينهم - اي اهل الكرخ - وبين اهل باب البصرة قائمة بسبب التعصب في المذاهب، فاتفق ان وقع بين الفريقين محاربة، فشكى اهل باب البصرة الى ركن الدين الدوادار حامل دواة السلطان او رئيس الديوان - والامير ابي بكر بن الخليفة، فتقدما الى

الجند بنهب الكرخ فهجموه[1]، ونهبوا، وقتلوا وارتكبوا العظائم، فشكى اهل الكرخ ذلك الى الوزير فأمرهم بالكف والتغاضي واضمرها في نفسه، وحصل عنده بسبب ذلك «الحقد على الخليفة»[2]. ويقول ابو الفداء عماد الدين بن كثير: «في اول هذه السنة قصد هولاكو ملك التتر بغداد وملكها في العشرين من المحرم، وقتل الخليفة المستعصم بالله. وسبب ذلك ان وزير الخليفة مؤيد الدين بن العلقمي، بعد ان جرت فتنة.. ببغداد على جاري عادتهم فأمر ابو بكر بن الخليفة وركن الدين الدوادار، العسكر، فنهبوا الكرخ وهتكوا النساء وركبوا منهن الفواحش، نعظم ذلك على الوزير ابن العلقمي، وكاتب التتر واطمعهم في ملك بغداد[3]. وكتب قريباً من ذلك ابن الوردي فقال: «فأفتتن اهالي بغداد لعادتهم، فأمر ابو بكر بن الخليفة وركن الدين الدوادار، العسكر، فنهبوا الكرخ وركبوا من النساء الفواحش، فعظم ذلك على الوزير ابن العلقمي، وكاتب التتر واطمعهم في بغداد، وطمع الخبيث الغوي في اقامة خليفة علوي»[4]. ولا يختلف ابن كثير عن هذه الروايات اذ يقول: «.. وفيها كانت فتنة عظيمة ببغداد.. فنهب الكرخ ودور الرافضة حتى دور قرابات الوزير، وكان ذلك من اقوى الاسباب في ممالأته للتتر»[5]. وبتحليل علمي صائب بحيث يعتبر الفتن تحدث بين جميع المذاهب بدافع التعصب يقول العلامة ابن خلدون: «وكانت الفتنة متصلة بين بغداد من سائر اهل المذاهب، وبين العيارين والدعار والمفسدين مبدأ الامر الاول، فلا تتجدد فتنة بين الملوك واهل الدول الا ويحدث

---

(١) هجموه: خربوه
(٢) الكتبي: عيون التواريخ ج٢٠ ص١٢٠
(٣) ابو الفداء: المختصر في اخبار البشر ج٣ ص١٩٣
(٤) ابن الوردي: تالايخ ابن الوردي ج٢ ص١٩٥
(٥) ابن كثير: البداية والنهاية ج١٣ ص١٩٦
(٦) ابن خلدون: كتاب العبر مج٣ ص١١٠٥

فيها بين هؤلاء ما يعني اهل الدولة خاصة زيادة لما يحدث منهم ايام سكون الدول واستقامتها. وضاقت الاحوال على المستعصم، فاسقط الجند وفرض ارزاق الباقين على البياعات والاسواق، وفي المعايش فاضطرب الناس وضاقت الاحوال وعظم الهرج ببغداد ووقعت الفتن. . »[6]. ولكن ابن الفوطي المعاصر للاحداث عامة واسير الجيش المغولي التتري بعد مذبحة بغداد يتحدث مؤرخاً الفتنة مع بيان الاسباب والمسببات ودواعي حدوثها وموقف الدولة (الخلافة) منها، فيقول في حوادث سنة ٦٥٣هـ: «وفي محرم، حدثت فتنة بين اهل الكرخ وباب البصرة قتل فيها عدة كثيرة من الفريقين، ودام الشر بينهم فأرسل الديوان طائفة من الجند نزلوا بين المحتلين لمنع الفتنة، فمالوا على اهل الكرخ، ونهبوا الدور المتطرفة منها، ثم اخذوا خطوط المشايخ من اهل المحلتين بكف الجهال عن الشر، ونصبت اخشاب على ابواب المحتلين لصلب من يثير الفتنة، فكفوا انفسهم، ثم عادوا الى ذلك في ذي القعدة، فخرج العسكر لكفهم عن ذلك، ومنعهم فلم يمتنعوا وقتل بينهم خلق كثير، ثم اصطلحوا ظاهراً فعاد العسكر عنهم، وتجدد بسبب ذلك بين محال اهل بغداد فتن من اجل المذهب، فكفهم الديوان ومنعهم»[7]. ويضيف ابن الفوطي عن الفتنة التي حدثت في بغداد عن حوادث ٦٥٤هـ فيقول: «وفي ذي الحجة، قتل اهل الكرخ رجلاً من اهل قطفتا، فحمله اهله الى باب النوبي، فدخل جماعة من الخدم الى الخليفة وعرفوه وعظموا ذلك ونسبوا الى اهل الكرخ كل فساد، فأمر بردعهم، فركب الجند اليهم، وتبعهم العوام، ونهبوا محلة الكرخ، واحرقوا عدة مواضع، وسبوا كثيرا من النساء والعلويات والخفرات، وسفكوا الدماء وعملوا كل منكر. . فخوطب الخليفة في امرهم فأمر بالكف عنهم، ونودي بالأمان. . ثم حصل الذي كانت الفتنة بسببه وقتل وصلب قاتل القطفتي بباب الكرخ»[8]. وابن

---

(٧) ابن الفوطي: الحوادث الجامعة ج٢ ص٢٧٦

(٨) ابن الفوطي: الحوادث الجامعة، ج٢ ص٣١٤

الفوطي هنا صريح مع وجود شيء من التحامل ضد جند الخليفة والعوام الذين رافقوهم من اهل محلة باب النوبي، ومن محلة قطفتا ايضاً . . ولكن الحقيقة التي قالها ايضاً، هي ان الخليفة لم يرض بالاعتداء الذي اوقعه الجند والعوام باهل محلة الكرخ، وامر بكفهم، وهدد من يستمر بالعدوان. وهذا معناه ان لا داعي لأن يغضب او يحنق ابن العلقمي، ويفعل الأفاعيل التي لا يقرها ضمير او مواطنة شريفة.

اصطدام مسلح

وكدليل على وقوع الشغب والفتن الكثيرة بين اهالي محلات بغداد، او حتى بين اهالي المحلة الواحدة، وذلك للظروف القاسية التي تمر بها البلاد من ضيق اقتصادي وكوارث طبيعية، ومجاعات وضنك في المعيشة، فأن ابن الفوطي يروي لنا فتنة اخرى وقعت في سنة ٦٥٣هـ فيقول؛ «وفيها وقع بين اهل محلة الرصافة ومحلة ابي حنيفة والخضيريين، فتنة افضت الى محاربة شديدة، استظهر فيها اهل محلة ابي حنيفة الخضريين على اهل الرصافة وطردوهم الى باب المحلة، وركبهم السيف، فدهمهم الليل، فازدحموا للدخول، فمات منهم جمع نحو ثلاثين نفرا، وحصروهم، ومنعوا ان يدخل اليهم شيء حتى الماء من دجلة، فاضر بهم فنفذ شحنة بغداد من زجر اهل محلة ابي حنيفة وكفهم عن الشر، ثم انهم اقتتلوا بعد ايام، وجرح بين الفريقين خلق كثير، وقتل جماعة، واستظهر اهل محلة ابي حنيفة والخضيريين على اهل الرصافة. . وعزموا على احراق محلة ابي حنيفة، وعبر من اهل باب البصرة لمساعدة اهل الرصافة، خلق كثير، ومن اهل الكرخ لمساعدة الخضيريين، فحضر اصحاب الشحنة وكفوهم فتفرقوا»[٩].

ولم يكن هؤلاء المؤرخون وحدهم قد تحدثوا عن الفتن المذهبية او الطائفية التي تحدث في بغداد على جاري العادة، انما هذا الشخص هذه المرة معاد للعرب

---

(٩) ابن الفوطي: الحوادث الجامعة ج٢ ص٢٩٨

والامة العربية والدولة (الخلافة العباسية)، انه رشيد الدين الهمذاني مرافق هولاكو ووزيره فيقول: «ولما كان الدوادار في تلك الفترة خصماً للوزير، فان اتباعه من سفلة المدينة واوباشها كانوا يذيعون بين الناس ان الوزير متفق مع هولاكو خان، وانه يريد نصرته، وخذلان الخليفة فقوي الظغن»[10]. ورشيد الدين الهمذاني الفارسي هذا قتل وصلب بعد ذلك بفترة قصيرة بأعتباره كان يهوديا ولم يكن مسلماً(*). لكن يجب ان نعرف بأن هذه النظرة الاستعلائية والاحتقار والاستخفاف بالعرب انما تدل على انه مشبع بافكار ابن العلقمي والجواسيس النجار وعناصر الرتل الخامس. وقد عرف هذا الهمذاني ان هناك مؤامرة خلع الخليفة المستعصم بالله واتهاماً لابن العلقمي بالتجسس لحساب هولاكو، وهذه المعرفة سواء كانت حقيقية او كاذبة تكون قد وصلته من ابن العلقمي نفسه بمقتضى الصلة الحميمية التي جمعتهما والهدف المشترك الذي يربطهما لأسقاط الخلافة العباسية. ولكن كشف اسرار دولة سواء كانت حقيقية او كاذبة حدثه بها اثناء المفاوضات او اثناء المكاتبات، يعتبر ادانه لأبن العلقمي بكونه يفضح اسرار بلاط الخلافة. وما يحدث فيه، وينقل هذه الأسرار وهو وزير للدولة التي ينقل عنها المعلومات الى الاجنبي دون مراعاة لحرمة الأمانة التي عهدت اليه، ووضعت في عنقه، حتى لو كانت تلك الاخبار مختلقة او اشاعات لا سند لها من الصحة، وسواء كانت ثابتة او مدسوسة، المهم انها اسرار ووقائع تحدث في بلاط كل دولة من العالم، ولا يحق لوزير الدولة التي ينتمي اليها مهما كان، ومهما كانت تلك الاخبار، ان ينقل اسرارها وماجريات الامور فيها الى

---

(١٠) رشيد الدين الهمذاني، جامع التواريخ مج٢ قسم١ ص٢٧٤

(*) يقول ابن الفوطي في (معجم الاداب في معجم الاسماء والالقاب) كان رشيد الدين يدمن شرب الخمور ويتفلسف ولا يعترف بالشريعة المحمدية، وبذلك فارق اباه قاضي (ابج) واتهم باعتقاده. والمعروف ان ابن الفوطي كان اسير المغول بعد واقعة بغداد، وان الطوسي تشفع لاطلاق سراحه، فسمع من الطوسي عن وزير هولاكو (رشيد الدين) واستقى منه هذه المعلومات. فهي دقيقة وصحيحة.

خارج دولته. وهذه خيانة، وتآمر قام بهما ابن العلقمي.

وبكل ايجاز يقول ابن الطقطقي: «ولم يجر في ايام المستعصم شيء يؤثر سوى نهب الكرخ وبئس الأثر ذلك»(١١). ومعروف ان ابن الطقطقي فارسي وليس بعربي، وبالرغم من تهجمه على خلافة المستعصم الا انه ذكر ان هناك فتنة قد وقعت في بغداد ان لم يشر اليها بالتفصيل وهو متألم للهجوم على الكرخ ونهبه، مع انهم قتلوا شخصاً يريد ان يذهب دمه هدراً، وكأنهم نصبوا من انفسهم سلطة وقانوناً لمعاقبة هذا الشاب القطفتي، سواء كان على حق ام على باطل، لأنه هناك دولة، وهناك قضاة يتبعون الشريعة الاسلامية في العقوبات كما هي مفصلة في القرآن الكريم.

ويقول اليونيني عن فتنة بغداد هذه التي حدثت سنة ٦٥٤هـ انه «بسبب التعصب في المذاهب فأتفق انه وقع بين الفريقين محاربة فشكى اهل باب البصرة،.. الى ركن الدين الدوادار والامير ابي بكر بن الخليفة فتقدما الى الجند بنهب الكرخ، فهجموا ونهبوا وقتلوا وارتكبوا العظائم، فشكى اهل الكرخ ذلك الى الوزير فأمرهم بالكف والتغاضي، واضمر هذا الأمر في نفسه، وحصل عنده بسبب ذلك الضغن على الخليفة»(١٢).

اليونيني يشير اشارة عرضية، لكنها دقيقة وعميقة البعد. اذ ان ابن العلقمي امر اهل الكرخ بالكف والتغاضي وذلك لكي يضمر الشر هو في نفسه للخليفة ولابن الخليفة والدوادار والخلافة العباسية والسيادة العربية وبغداد العظيمة المعظمة، ام الدنيا وحاضرة العالم التي اشرقت على العالم بانوار المعرفة ومجد الحضارة الانسانية السامية. وهذا الاضمار هو الذي دفعه لمكاتبة هولاكو والتجسس لحسابه.

---

(١١) ابن الطقطقي: الفخري في الاداب السلطانية ص٢٤٢

(١٢) اليونيني: ذيل مرآة الزمان ص٨٦

ويقول ابو الفلاح الحنبلي: «وحرضهم على قصد بغداد لأجل ما جرى على اخوانه الرافضة من النهب والخزي»[١٣] ولاشك ان هذا الكلام الذي دونه ابو الفلاح لا يختلف في الكثير على اختصاره مما تحدث به ودونه المؤرخون الذين ذكرناهم جميعاً، ولم يشفع لابن العلقمي ولم يضع الحجة الى جانبه، لأنه اكد ايضا بسبب هذه الفتنة قد جرأ هولاكو لاحتلال بغداد، ويطلق عليه المخذول لكونه كان يظن ان الأمر يتم له.. فلم يحدث هذا له بعد دخول هولاكو بغداد.

ويقول القلقشندي: «.. فأمر ابو بكر بن الخليفة المستعصم بالله، ركن الدين دوادار العسكر، ونهبوا الكرخ وهتكوا النساء وزادوا فركبوا منهن الفواحش، وكان للمستعصم بالله وزير يقال له مؤيد الدين بن العلقمي، فشق عليه ذلك، فكتب الى هولاكو بن طولي.. ملك التتر واطمعه في البلاد»[١٤] الفتنة تقع.. بل والفتن تقع في كل حين.. واصبحت مألوفة، وآخر فتنة وقعت، وقد اخمدت وارضي الطرفان، وقتل القاتل لكن ابن العلقمي لم يرض بهذا الحل، ولم يرض بالصلح.. ولم يرض بالسلام.. ولم يغفر ايضاً، انما أضمر، وأسر، حتى تقع اكبر الوقائع في تاريخ العالم والانسانية، ويقوم بذلك عنصر مدسوس على الخلافة العربية العباسية، لكن الملك الاشرف الغساني يتحدث بوقار وموضوعية كبيرة جداً عن فتنة بغداد فيقول: «في يوم الجمعة السادس عشر من ذي الحجة قتل اهل الكرخ شاباً من اهل قطفتا، فوقع مضرجاً بدمائه، فاستغاث اهله، وشاهده جماعة من الخدم، واطنبوا في ذم اهل الكرخ، فتقدم الجند بزجرهم وردعهم، فهجم عليهم العامة ونهبوا عدة مواضع من محلتهم وسبوا نساءهم فعظم الأمر»[١٥].

---

(١٣) عبدالحي بن عماد: شذرات الذهب في اخبار من ذهب ص٢٧٠

(١٤) القلقشندي: مآثر الانافة في معالم الخلافة ص ٨٩

(١٥) الغساني: العسجد المسبوك والجوهر المحكوك ص٥٢٧

الملاحظة هنا جديرة، تلك التي اشار اليها المؤرخ الملك الاشرف الغساني، ومؤرخون آخرون ايضاً، وهذه الملاحظة هي ان الخدم جسموا خبر الفتنة وعظموها التي لا تعدو مقتل الشاب القطفتي في أول الامر، والخدم بالتأكيد ما كانوا من العرب، انما كانوا من الفرس والغلمان السلاجقة وغيرهم كما هي عادة الخلفاء العباسيين في استخدامهم للخدم. ولاشك ان هؤلاء الخدم حتى لو كان من أية جنسيات اخرى، فأنه لا تهمهم مصلحة البلاد، وقد يكون لغبائهم ايضاً دور في العبث والأثارة والاستفزاز، وقد يكون الدس والتضليل ونية الشر. وبالتأكيد ان الخدم هم أول من ينقل الأخبار الى المساكن، وقد يتوخون إثارة الاعجاب وقد يسببون مضاعفات، كما حدث لهذه الفتنة التي اضمر من اجلها ابن العلقمي ما اضمر من خبث ولؤم وشر لأهل بغداد، وخلافة العباسيين والسيادة العربية ومجد الحضارة التي انجبها العرب.

الصراع داخل الصراع

نستنتج من هذا ان المؤرخين قد اجمعوا على ان ابن العلقمي، كان قد غضب وحنق على ما حدث في بغداد من الفتنة بين اهل الكرخ واهل قطفتا، حيث انه بسبب هذا الخلاف المذهبي الذي كان يحدث على جاري العادة، قتل شخص من اهل قطفتا، فثار اهل قطفتا والرصافة وابلغوا الخليفة بذلك، وحدث هرج، فنسب الخليفة مجاهد الدين ايبك الدوادار الصغير وابن الخليفة ابا بكر احمد لاخماد هذه الفتنة واصلاح ذات البين بين الفريقين المتخاصمين. ولوجود عداء بين الدوادار مجاهد الدين وابن العلقمي، فأن جماعة الدوادار من جند الخلافة وعدد من عامة الناس، قاموا بعمليات شغب من نهب وسلب وغيرها، ولايشك انه وقع من جراء ذلك قتلى وجرحى. وهذا ايضاً كثيراً ما يحدث في مثل هذه المشاحنات. ولا يشك ان الخليفة المستعصم بالله، لم يرغب

ان تحدث فتنة، لأنه ليس من مصلحة رئيس الدولة اضطراب حبل الأمن وانفلات الاوضاع بين ابناء شعبه الذين يسوسهم، ولم يرغب اخماد الفتنة ايضاً بالقوة، ولم يطلب سبي المتقاتلين ولا استباحة اعراض نسائهم او نهب دورهم. انما العملية كلها لا تعدو ان تكون ترهيباًوتخويفاًلارضاء اهل قطفتا الذين قتل منهم هذا الشاب. فالفتنة قد وقعت والواقعة قد حدثت، وهي صحيحة، وقد حدثت فعلاً. وعملية الترهيب والتخويف قد وقعت كذلك ثم الاصطدام المسلح ووقوع القتلى والجرحى الجدد، لا يثير غضب وحنق وزير الدولة ضد الدولة ذاتها التي يعمل فيها، لو لم تكن هناك دوافع اخرى كامنة ودفينة يحاول ابن العلقمي التستر عليها لتكون هذه الواقعة الشرارة التي تؤجج النار.

اما السبب الثاني الذي اجمع المؤرخون على حدوثه بين ابن العلقمي والدوادار مجاهد الدين، فهو الصراع الذي كان يحتدم بينهما بسبب المنصب وبسبب الازاحة؛ ولسبب ملء الفراغ، والخلاف المذهبي غطاء ايضاً لدوافع اخرى كامنة وهي الدافع (العنصري) او القومي، وكذلك الدافع الشخصي المصلحي، ومنها الدافع الوطني، لأنهم يعملون في وطن ليس هو وطنهم الاصيل. وحتى لو اردنا عدم التحيز لهذا، والتعرض ضد ذاك، وتصويب احدهما وتخطئة الآخر، فأن الصراع حقيقي موجود، وهو صراع ليس جديداً، ولا ينتهي ايضاً، ما دامت هناك سلطة وما دامت هناك مصالح شخصية.

ولكن مع وجود هذين السببين، لا يمكن ان نسمح بالقول بالاتفاق والواطؤ مع الاجنبي على سيادة الوطن وكرامته باسقاط الدولة وقتل الخليفة، ومهما كانت الدولة ضعيفة.. ممزقة.. مجزأة، فلا نسمح بالقول بضرورة الاجهاز عليها وانهائها بايدٍ اجنبية. والاجهاز على السلطة وانهائها يجب ان يكون بالايدي الوطنية التي تحمل منشور الاصلاح وتفتحه امام جماهير الامة.. اي الثورة من الداخل، وليس استيراد الثورة من الخارج.. الاجنبي الذين لا يرتبط بالوطن بأية رابطة. وهولاكو والمغول والتتر ومعهم الفرس وكل اقلية ممن لا

يتكلمون اللغة العربية وغير مسلمين والمسلمون منهم المراؤون. وهؤلاء لا تهمهم مصلحة العرب والمسلمين، والاولى ان يحل العرب المسلمون وغير المسلمين مشكلاتهم بأنفسهم، اما ان يأتي اجنبي بتحفيز من مندسين وعملاء ورتل خامس وحاقدين بادعاء حل مشكلات الوطن، فهذا ما لايمكن تصديقه ولا يمكن حدوثه، انما هو خيانة عظمى، وهو حقد. . وتآمر.

والاختلاف والصراع بين القادة والوزراء والقضاة في الدولة العربية العباسية، لم يكن جديداً، حدث في زمن الخليفة العباسي المستعصم بالله، انما هو قديم ظهرت له امثلة وبرزت منذ دخول الاعاجم الفرس في الدين الاسلامي وانضووا تحت الراية العربية الاسلامية. ومن امثلة ذلك الاختلاف والصراع ما حدث في زمن موسى الهادي واخيه هرون الرشيد، وفي زمن الأمين واخيه المأمون. . الوزراء فرس وعرب. ثم وزراء فرس وسلاجقة وعرب، فينتقل الصراع من ثنائي بين العرب والفرس، الى صراع ثلاثي بين العرب والفرس، والسلاجقة. . وكان اول من تحسب لهذا الصراع الخليفة ابو جعفر المنصور فبنى لابنه المهدي وجنده الفرس معسكراً على الجانب الشرقي من بغداد مدينة السلام لأن الجانب الغربي معقل العرب.

والمؤرخون جميعاً - ومهما كانوا - ليسوا حاطبي ليل وليسوا كالبقالين يبيعون التمر مع الحشف، او الحنطة مع الزوان، ولكن هناك من يخطىء، وهناك من يصيب الا من يدس، فذلك له حساب آخر. ولكن اتفاق المؤرخين على قضية، والتحدث عنها بالتواتر وتدوينها حتى لو كانت مستقاة من مصدر واحد، لا يعني النقل الآلي، ومجرد تسويد صفحات، فأنهم بالتأكيد قد فكروا قبل يؤمنوا وحكموا قبل ان يدوّنوا، ثم آمنوا فدونوا. اما ان نتهم مجموعة المؤرخين المتفقين لمجرد انهم متهمون بالتناقل، فلا نصدقهم في اتفاقهم على قضية في روايتهاوتدوينها، ونصدق مؤرخاً واحداً انفرد برواية الحدث او القضية بشكل يخالف الجميع، فهو امر لا يمكن الركون اليه، ولا يخضع الى منطق علمي

او اي منطق آخر.

هذا من ناحية تدوين المؤرخين للاحداث التاريخية، اما من ناحية الخليفة او الامير او القائد الذي يكون مضطراً لاستعمال اشخاص مختلفين في المفاهيم، والافكار والميول، فهو أمر جائز، اذا كان هؤلاء المختلفون ليس لديهم هدف عام يربطهم ويوحدهم لأن مثل هؤلاء يجرون على السلطة والبلاد الوبال بسبب التصارع الذي يحدث وينكشف ان عاجلاً وان آجلاً لأنه لا يوجد هدف واحد يربطهم ويوحدهم. والاختلاف في القومية او الميول الطائفية تكون مبرراً لاثارة الصراع.. وجود هؤلاء المتصارعين في حلبة واحدة لا يعني ابداً تحقيق توازن وترضية فئوية بالأبعاد السياسية، كما يحلو للبعض ان يفكر بذلك او يعتقده او يدعو اليه. ووقوع الخليفة العباسي المستعصم بالله في هذا المأزق جعله يصبح هدف الصراع لأنه استعمل شخصين مختلفين فأثبت بذلك سذاجة فكرية، وفهاهة ادارية، وفجاجة تبصرية وضبابية الدراية وعماية والحكمة خاصة وان أجزاء من جسم الدولة بدأت تنحسر، والقضم بدأ يستشري، فضعف مجال جذب العاصمة السياسي، وتمزقت رقعة الدولة تمزقاً مريراً بحيث وصل الأمر الى ان تستقل مدن صغيرة لتصبح ولاية قائمة بذاتها، فعم التمزق والتجزؤ والتشرذم ولايات الخلافة العباسية، بحيث وصل عدد هاما يقرب من الاربع عشرة دويلة في المشرق، وسبع عشرة دويلة في الاندلس. فانشغل بعضهم بضرب بعضهم الآخر، وتآمر بعضهم على البعض الآخر، اي ان هذا التمزق السياسي، ادى الى تمزق وتشرذم فكري واجتماعي ايضاً، بحيث احتوت تلك الدويلات افكار التجزيئية الاستقلالية دون النظروالتبصر في العواقب المستقبلية المحتملة في التهام تلك الدويلات من قبل الأعداء والغزاة المهاجمين والمتاخمين على حدود تلك الدويلات الصغيرة الضعيفة المستقلة استقلالاً مضحكاً بحيث تسهل عملية احتلالها وسلخها كلياً عن جسد الدولة الأم.

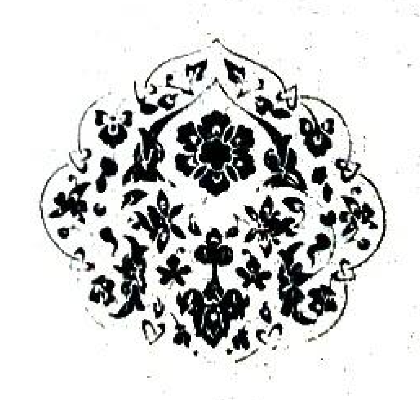
وبعد هذا التجزؤ والتمزق والتشرذم السياسي والاجتماعي لا يمكن

الموافقة على اسقاط هذه الدولة المتمزقة المتشرذمة بدعوى ضعفها ومرضها . .
لأنه لا يوجد مبرر اطلاقاً لقتل الرجل المريض، حتى لو كان لا يرجى شفاؤه من مرضه العضال. لكن ان يقوم آخرون بالاجهاز عليه وقتله تخليصاً له مما يعاني من آلام لا يشعرون بها، فهو أمر مرفوض كل الرفض، والا فهي عملية لأقتسام المواريث باستعمال قتل هذا المريض، وهو عمل يخلو من كل القيم الانسانية وهو قتل عمد مع سبق الاصرار، وسرقة ولصوصية.فالدولة الممزقة المتشرذمة، يتم اصلاحها من الداخل وخلاياه الداخلية هي التي تنعش الحياة فيها، وليس المحاولات الخارجية.

لا يشك اذن ان الصراع الموجود بين ابن العلقمي والدوادار انما هو صراع من اجل الازاحة وملء الفراغ، فكل منهما يحاول ازاحة مناصري الثاني، وملء الفراغ الحادث بعد الازاحة بمناصريه او العكس بالعكس. والقصد من ذلك هو تغليب عناصر احد المتصارعين على عناصر المتصارع الآخر، حتى يتمكن من تمرير قضاياه للوصول الى الهدف بسهولة ويسر، وبدون احداث ضجة، او معارضة عارمة، قد تصل الى حد الصدام المسلح. وان هذا الصراع ظل متخفياً خلف قناع المذهبية او الطائفية، والمذهبية او الطائفية براء من هذا الصراع. لأن الاحتماء بقناع المذهبية او الطائفية انما هو لغرض كسب الجماهير، وهي انتهازية مثل المزايدة بالمبادىء الحزبية او السياسية لخداع الجماهير الساذجة البريئة لمقاصد شخصية او تآمرية. فالتمذهب الانتهازي لا يختلف عن التخزب الانتهازي، لأنه قناع في كلا الحالتين او سقف يستظل به لكسب الجماهير وخدعها، وامتلاك ناصية الشارع السياسي والتأييد الشعبي لتأمين الفوز.

واذا تأملنا موقف صاحب الموصل بدر الدين لؤلؤ لوجدناه قد مثل اقصى درجات الانتهازية الجبانة. وذلك لأنه كان يؤيد كلاً من هولاكو والخليفة ليؤمن السلامة والبقاء لنفسه. لكن انتهازية بدر الدين لؤلؤ لم تكن بمستوى انتهازية ابن العلقمي لأن هدف ابن العلقمي تآمري. فأن بدر الدين لؤلؤ وقف هذا الموقف

الانتهازي كراهية ، لا طواعية . . اما موقف ابن العلقمي فكان طواعية دون اية . . . كراهية لأنه ، كان يعرف مسبقاً ، المآل الذي. سيؤول اليه الخليفة والخلافة ، وبغدادو لسيادة العربية، بل هو الذي قرر ذلك وفاتح هولاكو للزحف بجيشه المغولي التتري. ولقد استغل ابن العلقمي ضحالة الخليفة المستعصم بالله وسذاجته السياسية وفهاهته الادارية، فترك الأمر لابن العلقمي، الذي موه عليه حتى وصلت زحوف الجيش المغولي التتري بقيادة هولاكو الى اسوار بغداد، بعد ان قام بعدة تهديدات لبغداد، وبعد ان اكتسح عدة مرات ولاية اربل ومدينة داقوق وبعقوبة، وغدر بها ونهب وسلب واستباح ثم قفل راجعاً الى قاعدته في همذان. وقد كان المفروض في الأقل ان ينتبه الخليفة عسكرياً الى انه لا يمكن الدفاع عن المدينة أمام اسوارها، وبالقرب من حصونها وقلاعها، لكي لا تكون عملية الحصار ثقيلة ومريرة على الجند ورهيبة مروعة على اهالي المدينة لأنهم يقعون تحت مرمى أسلحة العدو من سهام الغزاة ونفاطاتهم واحجار منجنيقاتهم.



الفصل العاشر

الحصار . . ستراتيجية وتاكتيك

بعد ان ادرك هولاكو صدق دعوة ابن العلقمي ، وعلم ان مدينة بغداد ضعيفة لا تقوى امام هجوم جيش المغول وبعد تلك التهديدات المتوالية ، قرر الزحف والهجوم على بغداد اذ ان هولاكو عقد «النية على فتح بغداد» فأمر بأن تتحرك جيوش (جرماغون) و (بايجونوين) اللذين كانت معاقلهما في بلاد الروم ، وان تسير على الميمنة الى الموصل عن طريق اربل ، ثم تعبر جسر الموصل وتعسكر في الجانب الغربي من بغداد ، وذلك في وقت معين ، حتى اذا قدمت الرايات من المشرق تخرج اليها من تلك الناحية ، ويسير الامراء (بلغا بن شيبان بن چوچي) و (توتار بن سكنقور بن چوچي) و (تولي بن اورده بن چوچي) و (بوقاتيمور) و (سونجاق) من الميمنة ايضا ، ويدخلون من مضيق سونتاي نوين الى ناحية هولاكو خان . اما قوات (كيتو بوقانوين) و (قدسون) و (نرك ايلكا) على الميسرة ، فكانت تزحف من حدود لورستان وبيات وتكريت وخوزستان حتى ساحل عمان . ثم ترك هولاكو عليهم (قيان نوين)[1] .

لقد بدأ الزحف المغولي التتري . . عام ٦٠٦هـ بقيادة السفاح المغولي الاعرج جنكيزخان ، وفي عام ٦١٥هـ بدأ قضم المغول لأطراف الدولة العربية العباسية . فاستولوا على ما وراء النهر (نهر جيحون) وجعلوا عاصمتهم همذان . وكان هذا اول تهديد للدولة العربية العباسية وقد كان هولاكو يتحين الفرص بعد استيلائه على حكم المغول للهجوم على عاصمة الخلافة العباسية . وبالفعل

(١) ابن العبري : تاريخ مختصر الدول ص ط٤٧

بدأ هولاكو يناوش الدولة العربية العباسية، ويقضم الاجزاء التي تتاخم حدود ما وراء النهر، بل كان ايضاً يقوم بغارات وهجمات على بخارى وسمرقند وميافارقين وقلاع الاسماعيلية وقلعة آلموت وميمون دز وقرميسين وخانقين واربل ولا يستبعد الموصل ايضاً، فكان يزحف نحوها بجيوشه، ويكاتب امراءها على تقديم فروض الطاعة والاذعان والاموال والهدايا ومدد من الجيش لمساعدته في حروبه التي يشنها ضد البلدان التي لا تنضوي تحت لوائه، او التي ترفض تقديم فروض الطاعة والولاء. وان تقديم مدد الجيش يدل على صدق النية في الصداقة والطاعة لهولاكو. وقد قدم صاحب الموصل بدر الدين لؤلؤ ما طلب منه هولاكو من مدد الجند والاموال والهدايا. وبالرغم من همة الخليفة العباسي المستنصر بالله العالية، وشجاعته وقوة جيشه وكثرة عدده الذي يبلغ المئة الف جندي، فأنه مع ذلك سكت عن اعمال هولاكو في قضم اطراف دولته والمجازر الدامية التي كان يقوم بها، واستباحته لاعراض النساء العربيات المسلمات في مختلف الاصقاع واطراف الخلافة العباسية، وينهب جند المغول ما يقدرون على حملة ويحرقون ما لا يقدرون على حمله وتدميره اضافة الى سفك الدماء واهراقها بدون ادنى يقظة ضمير. واضافة الى ذلك فأن الخليفة المستعصم بالله قام بعقد اتفاقات ومحالفات تحريرية او شفهية، التزم بها ونفذها، بل وقدم ايضا الاموال والهدايا والتحف والمطرزات والمرصعات والمذهبات والخيول العربية والبغال وما شا ء له وما لم يشأ من خيرات بغداد وما جاورها من صنع اهلها مصانعة لهولاكو والمغول. ولاشك ان قيام الخليفة المستنصر بالله بهذا العمل تجاه هولاكو السفاح يدل على ضعف وخور وتخاذل، لأنه بدلا من تهديده ومهاجمته وطرده عما وراء النهر ومطالبته بتقديم الجزية والضرائب الاخرى، فأنه صار هو الذي يدفع الجزية لهولاكو، اضافة الى الهدايا والجواري والغلمان(!!).
ولا شك ان هذا ايضا دلالة على ان الخليفة العباسي صار شخصية لا حول لها ولا قوة بين حاشيته وامام هولاكو الذي يهدد خلافته، لأن الخلافة ككل وصلت الى

درجة من الضعف بحيث اصبح لا قوام لها على مقاومة الغزاة بعد ان تمزقت رقعتها وتشرذم رجالها وولاتها. وبالفعل فأن آخر ما قام به هولاكو قبيل الزحف على بغداد، هو تهديد خانقين وباعقوبا (بعقوبة)، وفي سنة ٦٣٤هـ في السابع عشر من شوال «وصل الخبر من اربل على جناح طائر بنزول عساكر المغول على اربل والاحاطة بها، وتحصن اهل البلد بغلق الابواب وصعود القلعة، وأمر الامير (شمس الدين اصلان تكين الناصري بالتوجه الى هناك جريدة. ونفذ معه ثلاثة آلاف فارس بغير ثقل، فتوجهوا في العشرين من الشهر، وتوجه بعدهم الامير مجاهد الدين ايبك الدوادار في جماعة من مماليكه جريدة، ونفذ صحبته (ابن كر) الاربلي، ثم خرج شرف الدين الشرابي ومعه جماعة من الامراء والمماليك، وتوجه ايضا نحوهم. واحضر نصير الدين (ابن الناقد) نائب الوزارة، المدرسين والفقهاء واستفتاهم. اذا اتفق الجهاد والحج، ايهما اولى؟ وافتوا بأن الجهاد اولى، فابطل الحج في هذه السنة، وامر المدرسين والفقهاء ومشايخ الربط والصوفية برمي النشابة، والاستعداد للجهاد، وولي الامير (ايدمر الاشقر الناصري) شحنة بغداد، ووقع الاستظهار بنصب المجانيق على سور بغداد، واصلح الخندق. واما المغول فأنهم نزلوا على اربل وحصروها ونصبوا المجانيق عليها، وقصدوا جهة من السور فهدموا منه قطعة كبيرة ودخلوا البلد عنوة وقهرا، فتحصن اهله ومعظم العسكر بالقلعة وقاتلوهم اشد قتال. وامد المغول بدر الدين (لؤلؤ) صاحب الموصل بما يحتاجون اليه من ميرة وآلة وغيرها، واعوز اهل قلعة اربل الماء، فتلف منهم الوف كثيرة بالعطش، ولم يمكن دفنهم لضيقة الموضع، ولا القاؤهم لئلا يسدوا الخندق فأحرقوا بالنار، ثم عاثوا في البلد اشد العيث نهباً وأسراً وأحراقاً وتخريباً، ثم اهتموا بالقلعة، وجدوا في نصب المجانيق عليها، فبلغهم وصول عساكر الخليفة فرحلوا راجعين الى بلادهم في سادس ذي الحجة، فورد الخبر بذلك الى الشرابي، فرجع والعساكر والأمراء في خدمته، الى بغداد، فدخلها في ثالث عشر المحرم سنة خمس

وثلاثين[2].

خمسون عاما من التهديد

الخطر محدق بالخلافة العباسية، والخليفة العباسي مع همته العالية وشخصيته الباسلة، وقدراته العسكرية بعدد الجند وعدتهم يقف منتظراً الاحداث.. ينتظر الزمن، وجيش العدو المغولي التتري. يستعد ويتأهب.. ويزحف ويتقدم ويقضم اجزاءً من اراضي الدولة العربية، واذا بالمغول يتقدمون ثانية في سنة ٦٣٥هـ حيث «وصلت الاخبار الى اهل اربل ان عساكر المغول عادوا الى قصدهم في جمع كثير، فانتزح من كان بها وبالقلعة ايضاً، فلما رأى زعيمها الامير شمس الدين باتكين خلو البلد امر بخروج العسكر المقيم هناك الى ظاهر البلد، ثم الاستعداد للحراسة، فعدلوا حينئذ عن اربل، وقصدوا دقوق، وانبثوا في اعمال بغداد، وعاثوا بها اشد العيث فوصل الخبر الى بغداد، فخرج شرف الدين اقبال الشرابي ميرزا الى ظاهر البلد، وامر خطيب جامع القصر ابا طالب ابن المهدي بأن يحرض في خطبته على الجهاد. ففعل ذلك فبكى الناس لما سمعوا كلامه، واحابوا بالسمع والطاعة وقدم اهل السواد من دقوق وغيرها الى بغداد، معتصمين بها، وتضاعفت اجرة المساكن، وانزعج الناس لذلك وتتابع خروج الامراء والعساكر الى ظاهر البلد، وركب الخليفة المستنصر بالله الى الكشك، فنزل به وظهر للامراء، وامرهم المشورة، فقال كل واحد ما عنده، وسهل الامير جمال الدين قشتمر، الامر في لقائهم، وعين الشرابي، على جماعة من الأمراء وقصدهم، فتوجهوا الى لقليعة، ونزلوا بها، فبلغهم المغول في جمع كثير وهم بالقرب من الجبل، فساروا نحوهم، فلما قاربوهم.. تعبوا يمنة وميسرة وقلباً فلما شاهدت عساكر المغول ذلك . . . .

---

(٢) ابن الفوطي، الحوادث الجامعة ٩٨ - ٩

ولوا راجعين، فتبعهم جماعة من العسكر، فقتلوا جمعا كثيراً، واسروا منهم جماعة وغنموا دوابهم واثقالهم»[٣]. ولكن «عساكر المغول دهمته ونزلت بين الكشك العتيق والملكية في سابع عشر ربيع الآخر، سنة اثنتين واربعين وستمائة، فتلقاهم بعزم شديد، ورأي سديد، واخرج اليهم (اقبالا الشرابي) بعسكر الديوان، وثبت لهم الى الليل، ثم لاحت لهم امارات قوة عسكر بغداد، فانهزموا ليلا ولم يلاقوهم، وعادت عساكر بغداد، منصورة محروسة من العدو ببركته» و «قال عز الدين عبدالحميد بن ابي الحديد المدائني في اقتصاصه حركات المغول: الى ان دخلت سنة ثلاث واربعين وستمائة، فاتفق ان بعض امراء بغداد، وهو سليمان بن برجم وهو مقدم الطائفة المعروفة بالديوان من التركمان؛ قتل شحنة من شحنهم في بعض قلاع الجبل، يعرف بخليل بن بدر، فأثار قتله ان سار من تبريز عشرة آلاف غلام منهم يطوون المنازل ويسبقون خبرهم مقدمهم المعروف (جكتاي) الصغير فلم يشعر الناس ببغداد الا وهم على البلد، وذلك في شهر ربيع الآخر من هذه السنة في فصل الخريف. وقد كان الخليفة المستعصم بالله اخرج عسكره الى ظاهر سور بغداد، على سبيل الاحتياط، وكان التتر قد بلغهم ذلك، الا ان جواسيسهم غرتهم، واوقعت في اذهانهم انه ليس خارج السور الا خيم مضروبة وفساطيط مضروبة، لا رجال تحتها، او انكم متى اشرفتم عليهم ملكتم سوادهم وثقلهم، ويكون قصارى امر قوم قليلين تحتها، ان ينهزموا الى البلد، ويعتصموا بجدرانه، فاقبلت التتر على هذا الظن، وسارت على هذا الوهم، فلما قربوا من بغداد، وشارفوا الوصول الى العسكر، اخرج المستعصم بالله الخليفة، مملوكه وقائد جيوشه شرف الدين اقبالا الشرابي، الى ظاهر السور، وكان خروجه في ذلك اليوم من لطف الله تعالى بالمسلمين، فأن التتر لو دخلوا، وهو بعد لم يخرج لاضطرب العسكر، لأنهم كانوا بغير قائد ولا زعيم، بل كل واحد منهم امير نفسه. واراؤهم مختلفة لا يجمعهم رأي واحد، ولا يحكم عليهم حاكم واحد. . ووصلت التتر الى سور البلد في اليوم

---

(٣) ابن الفوطي: الحوادث الجامعة ص ١١٠

السابع عشر، فوقفوا بازاء عسكر بغداد صفا واحدا، وترتب العسكر البغدادي ترتيبا منتظما، ورأى التتر من كثرتهم وجودة سلاحهم وعددهم وخيولهم ما لم يكونوا يظنونه ولا يحسبونه . . فحملت التتر على عسكر بغداد حملات متتابعة . . فثبت لهم، عسكر بغداد احسن ثبوت، ورشقوهم بالسهام ورشقت التتر ايضا بسهامها . . فلما اظلم الليل أوقد التتر نيرانا عظيمة واوهموا انهم مقيمون عندها وارتحلوا في الليل، راجعين الى بلادهم»[٤]

وكما اسلفنا القول، فأن حاشية الخليفة المستنصر بالله، هم الذين زينوا له ان يصالح التتر ويهاديهم ويجزل لهم العطاء بالمال، ليأمن من شرهم وغدرهم. ولكن هولاكو والمغول المرابطين على تخوم العراق، بعد ان قضموا اراضي الدولة العربية العباسية اجزاء واسعة، فقضموا ما وراء النهر، وقضموا كرمان وقضموا بخارى ومراغة وسمر قند، وهددوا وتوعدوا ميافارقين وحلب والموصل واربل، التي صارت ولايات مستقلة جزئيا عن الخلافة العباسية، ولا تتصل بها الا شكلياً واذعنت هذه الولايات وقدمت فروض الطاعة لهولاكو والمغول، والخليفة المستنصر بالله على قوته وشجاعته لم يحرك ساكنا في كف الاذى والشر والغدر عن تلك الولايات. فانعزلت تلك الولايات انعزالا تاما عن بغداد، مركز الخلافة العربية العباسية، فأصبح من السهل قضمها وابتلاعها. وحاشية الخليفة المستنصر بالله هم الذين اختاروا المستعصم بالله خليفة للمسلمين وأميراً للمؤمنين، ولم يختاروا الخفاجي اخي الخليفة المستنصر بالله، لأنه كان شجاعاً قوياً، صلباً، محنكاً في السياسة والعسكرية. وهو الذي قال لو انها آلت الي، لقاتلت التتر ورددتهم الى بلادهم الاصلية واسترجعت ما وراء النهر التي كانوا قد صيروه جزء من مملكتهم، وهمذان عاصمة وقاعدة لملكهم. ومن جراء هذا الاختيار للخليفة المستعصم بالله زادت الحاشية في تزيين مهادنة هولاكو والمغول

---

(٤) ابن الكازروني الشيخ ظهير الدين علي البغدادي ؛ مختصر التاريخ ص٢٦٨ ـ ٢٦٩

ومصانعتهم بتقديم الاموال والهدايا ليسكت هولاكو ولا يفكر بالزحف ومهاجمة بغداد عاصمة الخلافة العربية العباسية . وهذه الحاشية نفسها هي التي سكتت عن مهاجمة المغول بقيادة هولاكو للولايات التي استقلت عن الخلافة، وهي ولايات عربية واسلامية والمغول وهولاكو ليسوا بالمسلمين، وسكتت هذه الحاشية ايضا عن نهب وهدم القلاع والحصون في تلك الولايات العربية الاسلامية، وبذلك تمزقت الدولة العربية بضربات المغول، واستضعفت بغداد والخلافة. وبذلك تظهر الحقيقة جلية امام كل ذي عينين، الا وهي التطويح بالخلافة العربية في مهاوي الاحتلال. لكن مع ان الخليفة المستعصم بالله لم يكن قويا ولا شجاعا ولا عالي الهمة، الا انه مع ذلك لم يقدم ما طلبه منه هولاكو، وما طلبه منه ابن العلقمي ورتله، من المال والنفائس والتحف لترسل هدايا الى هولاكو والمغول، كما رفض ان يقدم مددا لهولاكو من جيشه، اثباتا لصدق نواياه تجاه المغول واخلاصه لهم، ومساعدته في تأديب الولايات العربية الاسلامية واستباحتها وتخريبها. وبدعوى، سواء كانت صادقة او كاذبة فأن قلعة آلموت وميمون دزهما من القلاع الخمسين التي يحتمي بها الاسماعيليون الذين اعتبرهم نصير الدين الطوسي ملاحدة، فتواطأ مع هولاكو وخدع صاحب آلموت وصاحب ميمون دز وانزلهما من القلعتين وامرهما بهدمهما، فهدماهما ثم امر السلطان الاكبر(!!) هولاكو وبمشورة الملا او الخواجة نصير الدين الطوسي بقتل صاحب قلعة آلموت وقتل اهلها وتخريب مساكنهم واستباحة اعراض نسائهم. وحينما شعر هولاكو بقوته وخلو الجو له، ولنشاط جيشه وتدفقه، اراد الزحف نحو بغداد سنة ٦٥٣هـ، فسير الخليفة عندئذ اشرف الدين بن محيي الدين بن الجوزي) رسولا الى هولاكو يعدهم باموال يبذلها لهم، ثم سير نحو مائة رجل الى الدربند الذي يسلكه التتر ليكونوا فيه، ويطلعوا الخليفة بالاخبار. فقتلهم التتر»[٥]. ثم توجه التتر نحو العراق بقصد الاستيلاء عليه واحتلال بغداد. «وكان (بركة خان طوجي) ابن عم هولاكو، وهو صاحب بلاد

---

(٥) اليونيني: ذيل مرآة الزمان مج ١ ص٨٧

الشمال التي قاعدتها (آلان سراي) وقد اسلم على يد الباخرزي احد مشايخ الصوفية، وأوصاه بالخليفة المستعصم بالله، وكتب بركة الى الخليفة يعرفه ذلك، وانه معاضده وناصره، وانتظمت الصحبة بينه وبين الخليفة، فمر هولاكو على بركة قاصدا بغداد، فاعترضه بركة، ومنعه من ذلك، وقال، ان الخليفة صاحبي فلا سبيل الى وصولك اليه. وان لم ترجع عنه حاربتك فتوقف هولاكو حينئذ عن قصد بغداد سنتين، حتى مات بركة فقصد بغداد حينئذ»[٦] وهكذا دامت مقاومة بغداد الخلافة العباسية مدة خمسين عامًا بالتمام.

هذه هي الظروف المحيطة بالخلافة العباسية والحاشية تدق اسافين التآمر على الخليفة للاطاحة به وازالة كل سلطة عربية، واحلال سلطة اعجمية بدلها، ان تكون فارسية او تكون تركمانية او تكون مغولية. فلقد تواطأ الملا او الخواجة نصير الدين الطوسي مع هولاكو ضد الاسماعيليين فهدمت قلاعهم وقتل اصحابها واهاليها وتواطأ اخيراً ابن العلقمي مع هولاكو للاطاحة بالسيادة العربية واطفأ نور الاسلام. ان الامر لا يصدق ان تعبث جنود المغول بأطراف الدولة العربية العباسية، والخليفة وحاشيته لا يحركون ساكنًا ان كانوا مخلصين، ولكن لكونهم غير مخلصين للخلافة العباسية والسيادة العربية والدين الاسلامي بمبادئه الرفيعة وعقيدته السامية، فأنهم خدعوا الخليفة، وشوهوا الحقيقة، ولم يدعوه يعرف ماجريات الاحداث، لأنهم زينوا له الوقوف موقف الصديق لهولاكو، واعلان الصلح والمهادنة، حتى لو كان هولاكو يناوش بجيشه الجرار اطراف الدولة ويغير عليها الغارات ويقضم منها الولايات. ولا يمكن ان يكون الخليفة المستعصم بالله جاهلاً الى هذه الدرجة بتحركات هولاكو بجيشه الجرار هذا، لكنه قد يكون جهلا بالنوايا البعيدة. وهذا لا يبرر سكوته، الا اذا كان وزيره واستاذ داره وكتاب ديوانه هم الذين يموهون الحقيقة او يخفونها عنه. وهذا هو الذي حدث فعلا، لأن الخليفة

---

(٦) القلقشندي: مآثر الانافة في معالم الخلافة ج٢ ص٨٩

بما كانت لديه من قوة وصداقة مع اصحاب الولايات العربية، او الاسلامية، كان يمكنه ان يجمع جيشا قويا لطرد هولاكو وجيوش المغول عن تخوم الدولة العربية العباسية، ويرد ردا حاسما وموجعا، حتى يتركه، يلعق جراحه. لكن نوايا بطانة الخليفة هي التي كانت تريد الايقاع بالخليفة، واوقعت به فعلا. لأن خمسين سنة من الزحوف والتهديدات المغولية بقيادة جنكيز خان ثم هولاكو والتقدم من الشرق الى الغرب مستهدفين بغداد ـ مدينة السلام، لا يمكن ان تكون علامة باهتة على طريق اسقاط الخلافة العباسية واحتلال بغداد وما يتبع ذلك من ازالة السيادة العربية وتدمير الحضارة العربية الاسلامية الانسانية العطاء، خاصة بعد ان ظهرت بوادر قضم اطراف الدولة واكتساح المدن والاغارة عليها لنهبها وتخريبها ثم الفرار عنها. وان هذه الخمسين عاماً من الزحف ومقاومة الخلافة لهذا الزحف والغزو المدمر، لم يوقظ ابداً حمية الخليفة العباسي، لكن بطانة الخلافة هي التي كانت تدبر وتخطط، لأنها في صراع على السلطة وضد السلطة، فلا مصلحة لها ابداً، بسلامتها وامانها واستقرارها.

الزحف الغادر

بعد احتلال ما وراء النهر من قبل الجيش المغولي اصبحت همذان هي العاصمة والقاعدة لهذا الجيش والسلطة المغولية، وبدأ الاستعداد للزحف نحو الغرب. فوضع هولاكو بعد المفاوضات السرية، قلاع الاسماعيليين في آلموت وقرميسين نصب عينيه، ليتقدم فيما بعد نحو ميافارقين وآمد وحلب والموصل. وقد كان الخليفة العباسي يسمع بهذا، ويعرف هذه النوايا الغادرة التي يدبرها هولاكو، لذلك قام بترضيته ومصانعته بأن ارسل اليه الاموال والهدايا، فيسكت ويوقف زحفه. ومن ناحية ثانية قام الخليفة، المستنصر بالله بزيادة عدد الجند درءً للخطر وتحسبا للطوارىء المحتملة الوقوع في حالة عدم قناعة هولاكو بالاوضاع كبقاء

الخلافة العباسية خارج منطقة نفوذه او تخريبه، لأن هولاكو والمغول والترلم يكونوا قوما محبين للاستقرار والبناء، انما هم قوم غزو وتخريب وتدمير. لذلك كان يوجه الرسائل التهديدية اذا شعر ان غاراته فاشلة في اكتساح المناطق التي يريد التوجه نحوها. وفعلا قبل ان يغير الجيش المغولي على قلاع الاسماعيليين وجه لاصحابها رسائل التهديد والوعيد والانذار دون اي سبب او اي مبرر معقول لهذا التهديد سوى عزمه على التخريب والتدمير «بناء على امر القاآن قد عزمنا على تحطيم قلاع الملاحدة وازعاج تلك الطائفة، فاذا اسرعتم وساهمتم في تلك الحملة بالجيوش والعدد والآلات فسوف تبقى لكم ولآبائكم وجيوشكم ومساكنكم وستحمد لكم مواقفكم. اما اذا تهاونتم في امتثال الاوامر، واهملتم فأننا حين نفرغ بقوة الله من امر الملاحدة، فأننا لا نقبل عذركم، ونتوجه اليكم، فيجري على ولاياتكم ومساكنكم ما يكون قد جرى عليهم»(٧).

لقد جعل هولاكو قلاع الاسماعيليين عبرة وامثولة لكل الملوك والاوطان واضافة الى ما كان يطلب من الهدايا، فأنه يطلب مدد الجيش والعدد والآلات لغرضين؛ الاول تأكيد صدق نوايا اصحاب الولايات المخاطبة تجاه هولاكو، والمساهمة في اعمال التخريب والتدمير عنوانا للتحالف المصيري بين هؤلاء الملوك واصحاب الولايات، وهولاكو، والغرض الثاني قصد اضعاف امكانية جيش اصحاب تلك الولايات لكي لا يتمكنوا في المستقبل ان اراد مهاجمتهم واحتلال ارضهم من مقاومته، وكذلك ليكون ذلك محاولة لتطمينهم ثم مفاجأتهم بالهجوم. وهذا ما فعله هولاكو حينما أخذ يحاسب الخليفة المستعصم بالله، بأنه لم يرسل له قطعة من الجيش ليدل على صدق نواياه وتحالفه مع هولاكو. وفي سنة ٦٥٥هـ. في شهر شوال رحل هولاكو عن حدود همذان نحو مدينة بغداد، وكان في ايام محاصرته قلاع الاسماعيليين قد سير رسولاً الى الخليفة المستعصم بالله يطلب منه نجدة، فأراد ان يسير، ولم يقدر، ولم يمكنه الوزير والأمراء، وقالوا: ان هولاكو

---

(٧) رشيد الدين الهمذاني: جامع التواريخ مج٢ قسم١ ص٢٤٠

رجل صاحب احتيال وخديعة، وليس محتاجا الى نجدتنا، وانما غرضه اخلاء بغداد من الرجال فيملكها بسهولة. فتقاعدوا بسبب هذا الخيال عن ارسال الرجال. ولما فتح هولاكو تلك القلاع ارسل رسولاً آخر الى الخليفة وعاتبه على اهماله تسيير النجدة، فشاور الوزير فيما يجب ان يفعلوه، فقال: لا وجه غير ارضاء هذا الملك الجبار، ببذل الاموال والهدايا والتحف له ولخواصه. وعندما اخذوا في تجهيز ما يسيرونه من الجواهر والمرصعات والثياب والذهب والفضة، والمماليك والجواري والخيل والبغال والجمال، قال الدوادار الصغير واصحابه، ان الوزير انما يدبر بشأن نفسه مع التتر، وهو يروم تسليمنا اليهم فلا نمكنه»[٨].

ومن اعمال هولاكو الستراتيجية (السوقية) انه كان يستعمل الرسل السريعي الحركة لنقل الاخبار منه واليه. ولقد كان من المقرر عند هولاكو، احتلال جميع المناطق المحيطة بالدولة العربية العباسية وعاصمتها بغداد.

الهجوم السافر

اصبحت بغداد سهلة المنال، وبمتناول اسلحة الجيش المغولي بعد المفاوضات السرية التي اجراها ابن العلقمي مع هولاكو وامراء الجيش المغولي التتري، تمت باطماع هولاكو باحتلال بغداد واسقاط الخلافة العباسية وازالة السيادة العربية، فأن هولاكو هجم هجمته الشرسة، وشرع بتطويق بغداد من جانبيها الشرقي والغربي، وقد كان زحف الجيش المغولي من غرب بغداد في اول الامر، اذ قام بالعبور اليها هذا الجيش الغازي قاطعاً نهر دجلة قرب تكريت، ثم انحدر جنوباً، ووقعت حرب بين الجيش المغولي بقيادة (سونجاق نوين)، وجيش الدولة العربية العباسية، بقيادة ركن الدين ايبك الدوادار الصغير، انكسر فيها الجيش المغولي في اول الأمر بحيلة موقوتة، عامداً الى جر الجيش

---

(٨) ابن العبري: تاريخ مختصر الدول ص٤٧١ ـ ٤٧٢

العربي واطماعه بالتقدم والمهاجمة، الا ان الجيش المغولي كان يتستر بالانسحاب والانتظار، فما ان خيم الليل حتى قام الجيش المغولي بمباغتة الجيش العربي، وعمل فيه مقتلة عظيمة، وشرسة، تمزق الجيش العربي، وهرب الدوادار الصغير، فتقدم الجيش المغولي هذه المرة نحو بغداد ليقوم بحصارها، وبالفعل احاط هذا الجيش بسور المدينة وشرع بنصب المنجنيقات والعرادات، وهم يضربون بالنفاطات والسهام من خلف السور. فشرع اهالي بغداد بالمقاومة المستميتة دون ان يحصلوا نجدة من الجانب الشرقي من بغداد، لأن هذا الجانب ايضاً تعرض الى الحصار، اذ تقدم الجيش المغولي بقيادة هولاكو بثلاثة فيالق؛ فيلق الميمنة وفيلق القلب وفيلق الميسرة، واطبقت هذه الفيالق الثلاثة على الجانب الشرقي من مدينة بغداد، وحول سورها الذي بدأ يهتز تحت ضربات منجنيقات المغول. لكن المفاوضات لم تنقطع بين هولاكو من ناحية، والخليفة المستعصم بالله من ناحية اخرى حيث اصبحت بعلم الخليفة، بعد فوات الأوان، اذ كثيرا ما اجريت المفاوضات بين المغول من ناحية وبين ابن العلقمي من ناحية اخرى سراً وبدون علم الخليفة، لأنها كانت مفاوضات تجسس وتواطؤ للتآمر على الخلافة العباسية. فأجريت المشاورات الطويلة والمستعجلة ساهم فيها الى جانب الخليفة المستعصم بالله، كل من ابن العلقمي والدوادار الصغير مجاهد الدين والدوادار الكبير ركن الدين والقضاة وامراء الجند، بعد ان ادركوا ان الخطر المحدق ببغداد يهددهم تهديداً وبيلاً، وقد شعروا ان سقوط المدينة العاصمة بغداد بات متوقعاً جداً، وليس محتملا. فتقرر القيام بالمفاوضات بالقرب من ابواب المدينة، وامام ابوابها المحاصرة. ولكن مثل هذه المفاوضات لاشك تكون فاشلة، لأن الجيش المغولي الغازي المحاصِر، قد وصل الى حد التهام اللقمة السائغة التي امامه. لذلك لن تكون هذه المفاوضات في صالح المحصورين انما في صالح المحاصِرين.

وهذه المفاوضات التي كانت تجرى بين هولاكو، والخليفة المستعصم بالله،

لم تكن ذات اتجاه واحد ولا هدف واحد مشترك، انما كان لكل من هولاكو والخليفة المستعصم بالله هدف يختلف عن هدف الثاني. فهولاكو ما زحف هذا الزحف الطويل حتى يعود ادراجه انما حتى يسقط الخلافة العباسية ويزيل السيادة العربية وهدم بغداد، وتدمير معالم الحضارة العربية الاسلامية ذات العطاءات الانسانية. فهولاكو طامع في الهدم والتخريب والدمار، والخليفة المستعصم بالله مدافع عن نفسه وخلافته وسيادة امته واشراقة حضارة بلاده. وهولاكو لا يريد العودة من حيث اتى، فقد اطمعه ابن العلقمي واوضح له نقاط الضعف في كيان الخلافة وقلة عدد الجند، وضعف همة الخليفة. وتقدم هولاكو بجيشه المغولي الجرار اضافة الى الجيوش التي انجد بها من الدويلات والولايات التي اكتسحها منذ «ان بلغ هولاكو خان الدينور في التاسع من ربيع الآخر سنة ٦٥٥هـ قاصداً بغداد، ثم قفل راجعاً، ومضى الى همذان في الثاني من شهر رجب من تلك السنة. وفي العاشر من رمضان ارسل الى الخليفة رسولاً يتهدده ويتوعده قائلاً: لقد ارسلنا اليك رسلنا وقت فتح قلاع الملاحدة، وطلبنا مدداً من الجند ولكنك اظهرت الطاعة، ولم تبعث الجند. وكانت آية الطاعة والاتحاد ان تمدنا بالجيش عند مسيرنا، الى الطغاة، فلم ترسل الينا الجند، والتمست الغدر. مهما تكن اسرتك عريقة، وبيتك ذا مجد تليد.. ولقد نصحناك من قبل، والآن نقول لك: احذر الحقد والخصام.. فاذا اطاع الخليفة فليهدم الحصون ويردم الخنادق، ويسلم البلاد لابنه، ويحضر لمقابلتنا»[9] ومن المفاوضين كان ابن الجوزي الذي حمل رسالة الخليفة المستعصم بالله الى هولاكو، فقال له: «ايها الشاب الحدث! المتمني قصر العمر، ومن ظن نفسه محيطاً ومتغلباً على جميع العالم، مغتراً بيومين من الاقبال، متوهماً من أمره قضاءً مبرم، وأسر محكم.. واذا كنت مثلي تزرع بذور المحبة. فما شأنك بخنادق رعيتي وحصونهم فاسلك

(٩) رشيد الدين الهمذاني: جامع التواريخ مج٢ قسم١ ص٢٦٨

طريق الود، وعد الى خراسان، وان كنت تريد الحرب والقتال، فلا تتوان»[10].

يبدو ان لهجة الرسالة التي نقلها ابن الجوزي عن الخليفة المستعصم بالله الى هولاكو، كانت جادة وذات محتوى انساني ودعوة للسلام ونبذ الحروب، لكن هولاكو غضب من هذه الرسالة، فأرسل رسله برسالة اخرى يقول فيها: «ان الخليفة ليست لديه كفاءة قط، اذ انه معنا كالقوس الاعـوج، فلو امدني الله الأزلي بعونه، فسوف اجعله مستقيماً كالسهم»[11] ثم ارسل الخليفة رسالته الثانية الطويلة مع هدية صغيرة الى هولاكو على يد بدر الدين دريكي منها: «.. اذ ان كل ملك، قصد أسرة بني العباس ودار السلام بغداد، كانت عاقبته وخيمة» فاشتد غضب هولاكو وبعث برسالـة تهديـد الى الخليفة يقـول فيها: «اذهب واصنع من الحديد المدن والاسوار، وارفع من الفولاذ الابراج والهياكل. واجمع جيشا من المردة والشياطين. ثم تقدم نحوي للخصام والنزال، فسأنزلك، ولو كنت في السماء، وسأدفع بك غصباً الى افواه السباع»[12].

وعندما بلغ هولاكو (اسد آباد) اوفد رسولا لدعوة الخليفة مرة اخـرى للحضور، فكان يماطل ويتعلل، ووصل ابن الجوزي الى دينور للمرة الثـانية قادماً من بغداد يحمل رسالة بالوعد والوعيد، وملتمساً ان يعود هولاكو ويتراجع في مقابل ان يسلم الخليفة للخزانة، كل ما يقرره هولاكو، «فظن هذا ان الخليفة يريد من وراء ذلك عودة الجيوش، ان يعد جنده ويهيؤهم لمقاومة المغول، فقال: كيف نترك زيارة الخليفة، بعد كل ما قطعناه من هذا الطريق. سوف نعود بأذنه بعد الحضور للقائه، والتحدث معه»[13].

---

(١٠) رشيد الدين الهمذاني: جامع التواريخ مج٢ قسم١ ص٩٩

(١١) رشيد الدين الهمذاني: جامع التواريخ مج٢ قسم١ ص٢٧٠

(١٢) رشيد الدين الهمذاني: جامع التواريخ مج٢ قسم١ ص٢٧٥

(١٣) رشيد الدين الهمذاني: جامع التواريخ مج٢ قسم١ ص٢٨٢

ولما كانت رسالة هولاكو رسالة تهكمية ساخرة، اضافة الى ما فيها من التهديد والوعيد، لأنه لم يجد مقاومة في طريقه الذي قطعه من همذان الى الدينور ثم أسد آباد. وهذه الاراضي كلها من اعمال الخلافة العباسية، ولم تقف الجيوش العربية العباسية او جيوش حلفائها من الولايات المستقلة او شبه المستقلة، لذلك لم يمنعه غروره ووحشيته من الزحف نحو بغداد، وتهديدها بالاحتلال، بل ان الرسائل المتبادلة بين قائد طلائع جيش الخليفة ببغداد (قبجان) المعروف بقراسنقر، وقائد جند المغول والتتر (جوق) وكلاهما من التركمان، اذ ان (جوق) طلب من قراسنقر ان ينحاز الى جيش المغول ويترك جيش الخليفة انقاذاً لحياته، فاجابه قراسنقر متحديا المغول والتتر وهولاكو، ومفتخراً بالدولة العربية العباسية وخليفتها المستعصم بالله الذي يجب تقديم الطاعة والتضرع له، لكي يقبل الصلح مع هولاكو. وعندما علم هولاكو بهذه المفاوضات التي يجريها قائدا الجيشين المتقابلين والرسائل المتبادلة بينهما ضحك وقال: «ان اعتمادي على الله الاعلى، لا على الدرهم والدينار»، ثم ارسل من جديد رسولاً الى الخليفة يقول: «اذا كان الخليفة قد اطاع، فليخرج، والا فليتأهب للقتال، او ليحضر الينا قبل كل شيء الوزير وسليمان شاه والدوادار، ليسمعوا ما نقول»[١٤].

هذه هي مفاوضات المرحلة الاولى المباشرة، والمراسلات المتبادلة بين هولاكو وقادته من ناحية، والخليفة المستعصم بالله وقادته من ناحية ثانية، اما المرحلة الثانية من المفاوضات والمراسلات التي أجريت بين هولاكو والخليفة المستعصم بالله فهي حينما اصبح هولاكو وجيش المغول والتتر امام اسوار مدينة بغداد.. فالمفاوضات التي حدثت لا شأن لها ولا قيمة، لأن حصار مدينة بغداد قد تم والقتال قد شب فقال «سأسلم وسأطيع»، ثم أرسل فخر الدين الدامغاني وابن درنوس مع قليل من التحف الى هولاكو، زاعماً انه لو بعث بالكثير، لكان ذلك دليلاً على خوفه، فيتجرأ العدو. فلم يلتفت هولاكو الى هذه الهدايا، وعاد

(١٤) رشيد الدين الهمذاني: جامع التواريخ مج٢ قسم١ ص٥٨٤

المفاوضان محرومين من الكلام امام هولاكو. «وفي يوم الثلاثاء التاسع والعشرين من المحرم خرج ابو الفضل عبدالرحمن بن الخليفة الثاني من بغداد للقاء هولاكو، بينما ذهب (ابن العلقمي) الى المدينة، وكان صاحب الديوان وجماعة من العظماء مع ابي الفضل، وقد حملوا اموالاً كثيرة فلم تقبل منهم ايضاً، وفي غد ذلك اليوم آخر المحرم، خرج ابن الخليفة الاكبر ومعه الوزير وجماعة من المقربين، فلم يجدوا فائدة، وعادوا الى المدينة»[١٥].

لقد بعث الملك الخواجة نصير الدين وايتيمور برسالة الى الخليفة فخرجا في صحبة رسل بغداد في غرة صفر. وارسل فخر الدين الدامغاني الذي كان صاحب الديوان، وابن الجوزي وابن درنوس الى المدينة ليخرجوا منها سليمان شاه والدوادار ومنحهم فرماناً و (پايزه) - وسام - تطميناً لهم وتقوية لموقفهم وقال: الرأي للخليفة، فله ان يخرج او لا يخرج، وسيكون جيش المغول مقيماً على الاسوار الى ان يخرج سليمان شاه والدوادار. وفي يوم الخميس غرة صفر خرج الرجلان فأعادهما مرة ثانية الى المدينة ليخرجا اتباعهما حتى ينضموا الى قوات مصر والشام، وعزم جند بغداد على الخروج معهم. وكانوا خلقاً كثيراً، لا يحصى مؤملين ان يجدوا الخلاص»[١٦].

من هذه المفاوضات بين هولاكو والخليفة المستعصم بالله، وبعد انكسار الجيش الذي قاده الدوادار الكبير ركن الدين في الجانب الغربي من بغداد، ندرك ان ابن العلقمي خرج «الى هولاكو فتوثق منه لنفسه، وعاد الى الخليفة وقال له: ان هولاكو يبقيك في الخلافة كما فعل لسلطان الروم ويريد ان يزوج ابنته من ابنك ابي بكر، وحسن له الخروج فخرج اليه المستعصم بالله في جمع من اكابر اصحابه»[١٧].

---

(١٥) رشيد الدين الهمذاني: جامع التواريخ مج٢ قسم١ ص٢٨٨ - ٢٨٩

(١٦) رشيد الدين الهمذاني: جامع التواريخ مج٢ قسم١ ص٢٨٩

(١٧) ابن الوردي: تاريخ ابن الورد ج٢ ص١٩٦

ان الخليفة المستعصم بالله لم يكن يعلم بدقة تحرك الجيش المغولي واحاطته ببغداد من الجانبين، لأن ابن العلقمي كان لا يطلعه حتى تلك اللحظات على هذا التحرك او على الرسائل التي كان يتلقاها من اي احد. ولكن لما «تواترت الاخبار بحركة التتر برزت العساكر الديوانية الى ظاهر بغداد. . ولما تحقق الخليفة حركة التتر نحوه، سير اليهم شرف الدين عبدالله بن يوسف بن الجوزي رسولا يعدهم باموال عظيمة، ثم سير مائة رجل الى الدربند»[18].

وطلب هولاكو ان يسير الخليفة المستعصم بالله «احد ثلاثة نفر، اما الوزير واما الدوادار واما سليمان شاه، فتقدم الخليفة اليهم بالمضي، فلم يركنوا الى قوله، فسير الخليفة غيرهم مثل ابن الجوزي وابن محي الدين، فلم يجديا عنه»[19]

وفي التاسع من المحرم ٦٥٦هـ/ ١٢٥٨م الموافق للحادي عشر من شهر بغشاباط من سنة موغا (موغائيل) عبر (بايجو نوين) و (بوقاتيمور) و (سونجاق) في الوقت المقرر ـ نهر دجلة عن طريق نهر دجيل، ووصلوا الى نواحي عيسى. وقد التمس (سونجاق نوين) الى (بايجو) ان يكون قائداً لجيش غرب بغداد، ثم سار بعد الاستئذان وجاء الى حربية. وقبل ذلك كان مجاهد الدين ايبك الدوادار الذي كان قائدا لجيش الخليفة ومعه (ابن كر) قد اقاما معسكرهما بين بعقوبة وباجسرى. وحينما سمعا بمجيء المغول الى الضفة الغربية، عبرا نهر دجلة وحاربا (سونجاق) و (بوقاتيمور) في حدود الانبار، على باب قصر المنصور في اعلى المزرفة على تسعة فراسخ من بغداد[20]، فلوى جنود المغول العنان وجاؤا الى بشرية من ناحية (دجيل). فلما لحقوا (بايجو) ووصل هولاكو اعادهم. وفي تلك النواحي كان يوجد نهر كبير، ففتح المغول السد المقام عليه، فغمرت المياه كل الصحراء الواقعة خلف جيش بغداد، وفي فجر يوم الخميس من نهار عاشوراء،

---

(١٨) الملك الاشرف الغساني: المسجد المسبوك ص٦٢٤

(١٩) ابن العبري: تاريخ مختصر الدول ص٤٧٢

(٢٠) ابن العبري: مختصر تاريخ الدول ص٤٧٤

دهم (بايجو) و (بوقاتيمور)، الدوادار و (ابن كر) وانتصروا عليهم، فهزم جيش بغداد، وقتل (فتح الدين بن كر) وقراسنقر اللذان كانا قائدي الجيش مع اثني عشر الف رجل، فضلاً عمن غرق او قضىٰ نحبه في الوحل. وفي يوم الثلاثاء منتصف المحرم قدم (بوقاتيمور) و (بأيجو) و (سونجاق) الى بغداد، واستولوا على الجانب الغربي ونزلوا في احياء المدينة على شاطىء دجلة، ووصل ايضاً (بوقانوين) والأمراء الآخرون من ناحية (نحاسية) و (صرصر) بجيش عظيم وترك هولاكو خان معسكراته في (خانقين)، وواصل سيره الى بغداد، ونزل في الجهة الشرقية منها في الحادي عشر من شهر المحرم ٦٥٦هـ/ ١٢٥٨م، ثم تدفق جيش المغول كالنمل والجراد من كل جهة وناحية فحاصروا اسوار بغداد، واحتموا بجدار اقاموه، وفي يوم الثلاثاء الثاني والعشرين من المحرم شرعوا في الحرب والتحم الجيشان، وكان هولاكو في القلب من طريق خراسان على الجانب الايسر من المدينة في مقابل باب العجمي، وكان (ايلكانوين) و(فربا) على بوابة كلواذى، اما (قولي) و (بولغا) و (توتار) و (شيرامون) و (ارقيو)، فقد نزلوا في عرض المدينة في مواجهة بوابة سوق السلطان، وكان (بوقاتيمور) يقف في جهة القلعة وجانب القبلة، بموضع (دولاب بقل) وكان (بايجو) و (سونجاق) يرابطان في الجانب الغربي حيث المارستان العضدي. وكان الجميع يحاربون، وقد صوبوا المجانيق مباشرة تجاه برج العجمي حتى احدثوا فيه ثغرة، وفي يوم الجمعة الخامس والعشرين من المحرم، هدم المغول برج العجمي، وفي يوم الاثنين الثامن والعشرين، وحيث كان يقف هولاكو، تسلق جنود المغول، السور عنوة، وظهروا (!!) اعالي الاسوار من الجند. لكنهم لم يتسلقوا الاسوار من ناحية سوق السلطان حيث كان يحارب (بولغا) و(توتار) فعاتبهم السلطان. كذلك لم يذهب اتباعهم، وفي المساء تسلم المغول جميع الاسوار الشرقية»[٢١].

---

(٢١) رشيد الدين الهمذاني: جامع التواريخ مج٢ قسم١ ص٢٨٠ ـ ٢٨٩

وبعد ان سيطر الجيش المغولي على اسوار مدينة بغداد، «في منتصف شهر المحرم من سنة ٦٥٦هـ نزل هولاكو بنفسه على بغداد. وفي يوم وليلة بنى المغول بالجانب ـ الشرقي ، (سيباً) .. اعني ، سوراً .. عالياً ، وبنى ، (بوقاتيمور) و(سونجاق نوين) و (بايجونوين) بالجانب الغربي كذلك، وحفروا خندقاً عميقا داخل (السيبا)، ونصبوا المنجنقيات بأزاء سور بغداد من جميع الجوانب، ورتبوا العرا ات وآلات النفط»[٢٢] و«جد المغول بالقتال بازاء برج العجمي، و (بوقاتيمور) من الجانب الغربي، حيث المبقلة، و (سونجاق نوين) و (بايجونوين) من جانب البيمارستان العضدي. وامر هولاكو البتيكتجية، ليكتبوا على السهام بالعربية: ان الاركانية (كلمة يونانية معناها الدهقان) والعلويين والداذنشمدية، وبالجملة كل من ليس يقاتل فهو آمن على نفسه وحريمه وامواله. وكانوا يرمونها الى المدينة.. واشتد القتال على بغداد من جميع الجوانب الى اليوم السادس والعشرين من محرم، ثم ملك المغول الاسوار وكان الابتداء من برج العجمي، واحتفظ المغول الشط ليلا ونهارا، مستيقظين لئلا ينحدر فيه احد»[٢٣]. «وفي يوم الثلاثاء الثاني والعشرين من المحرم شرعوا في الحرب والتحم الجيشان مقابل البرج العجمي، وكان (ايلكا نوين) و (قربا) على بوابة كلواذى، اما (قولي) و (بولغا) و (توتار) و (ستيرامون) و (ارقيو) فقد نزلوا في عرض المدينة في مواجهة بوابة سوق السلطان. وكان (بوقاتيمور) يقف في جهة القلعة وجانب القبلة، بموضع (دولاب بقل) وكان (بايجو) و (سونجاق) يرابطان في الجانب الغربي حيث المارستان العضدي. وكان الجميع يحاربون وقد صوبوا المناجيق مباشرة تجاه برج العجمي حتى احدثوا فيه ثغرة»[٢٤]، «.. ثم امر الملك ان يكتب ستة منشورات تفيد بأن القضاة والعلماء والشيوخ والسادات والتجار وكل من لا يحاربنا لهم الأمان منا، وربطوا هذه المنشورات بالنبال، والقوها على المدينة من جوانبها الستة. ولما لم تكن توجد حجارة للمناجيق في اطراف بغداد، فأنهم كانوا

---

(٢٢) ابن العبري : تاريخ مختصر الدول ص٤٧٣

(٢٣) ابن العبري : تاريخ مختصر الدول ص٤٧٤

(٢٤) رشيد الدين الهمذاني : جامع التواريخ مج٢ قسم١ ص٢٨٦

يأتون بها من جبل حمرين وجلولاء، وكانوا يقطعون النخيل ويرمون بقطعها بدلا من الحجارة» و «في يوم الجمعة الخامس والعشرين من المحرم هدم المغول برج العجمي. وفي يوم الاثنين الثامن والعشرين، وحيث كان يقف هولاكو، تسلق جنود المغول السور عنوة، وظهروا اعالي الاسوار من الجند. ولكنهم لم يتسلقوا الاسوار من ناحية سوق السلطان، حيث كان يحارب (بولغا و توتار).. وفي المساء تسلم المغول جميع الاسوار الشرقية».. و «بعد ذلك امر هولاكو خان بأن يقيموا جسرا في اعلى بغداد وآخر في اسفلها، وان يعدوا السفن، وينصبوا المناجيق ويعينوا المستحفظين. وكان (بوقاتيمور) قد رابط مع عشرة آلاف جندي على طريق المدائن والبصرة، ليصد كل من يحاول الهرب بالسفن.. ولما حمى وطيس الحرب في بغداد، وضاق الحال على الأهالي اراد الدوادار ان يركب سفينة، وان يهرب الى ناحية (سيب) ولكنه بعد أن اجتاز قرية (العقاب) اطلق جند (بوقاتيمور) حجارة المنجنيق والسهام وقوارير النفط، واستولوا على ثلاث سفن، واهلكوا من فيها، وعاد الدوادار منهزماً»[٢٥] واحتياطاً في سد جميع منافذ بغداد، لكي يتم احكام السيطرة على بغداد، فقد قرر هولاكو اقامة جسر في اعلى بغداد، وجسر آخر في اسفلها، وذلك لكي يسد الطريق شمالاً وجنوباً على السفن التي قد يهرب بواسطتها عامة اهالي بغداد او اعيانها. وكانت سفن المغول تمخر في نهر دجلة للحراسة ومراقبة الهاربين بأية وسيلة نهرية كانت. وامر هولاكو (ان ينصبوا المجانيق ويعينوا المستحفظين، وكان (بوقا تيمور) قد رابط مع عشرة آلاف جندي على طريق المدائن والبصرة ليصد كل من يحاول الهرب بالسفن»[٢٦].

هذه كانت التحركات العسكرية التاكتيكية (التعبوية) في حصار بغداد من

---

(٢٥) رشيد الدين الهمذاني: جامع التواريخ مج٢ قسم١ ص٢٨٨

(٢٦) رشيد الدين الهمذاني: جامع التواريخ مج٢ قسم١ ص٢٨٩

وجهة نظر المؤرخ الفارسي ومرافق هولاكو ووزيره المدعو رشيد الدين فضل الله الهمداني، وهي التي حدثت فصائل الجيش المغولي بحسب القيادات الموزعة في مهاجمة بغداد، اما التحركات العسكرية التاكتيكية (التعبوية) للجيش العباسي، للدفاع عن بغداد، ومحاولة فك الحصار عنها «فلما تواترت الاخبار بحركة التتر برزت العساكر الديوانية الى ظاهر بغداد، وكان قد رسم الخليفة ان يكون الاستاذ (مرشد الشرفي) احد خدام شرف الدين اقبال الشرابي في مقام استاذه، مقدماً على كافة العساكر، فأنف العسكر، وامتنعوا من ذلك لاسيما مجاهد الدين ايبك الدوادار (الصغير) وكان ذلك اول خلف وقع به الوهن، فلما تحقق الخليفة، حركة التتر نحوه، سير اليهم شرف الدين عبدالله بن يوسف الجوزي رسولاً يعدهم بأموال عظيمة، ثم سير مائة رجل الى الدربند يكمنون فيه ويطالعون بالأخبار، فمضوا الى هناك. . وسار هولاكو الى العراق في عساكره، وجيوشه، وأقبل في الجانب الشرقي من طريق حلوان فأنتشرت عساكره في طريق خراسان، واجفل الناس هاربين الى بغداد، اما الجانب الغربي، فبعث اليه عسكراً كثيفاً من المغول وغيرهم، وكان مقدمهم الأمير (بايجو) فقصدوا بغداد، فامتلأت اكنافها، فخرج عسكر بغداد وعليهم ركن الدين (دوادار العسكر) فأقتتلوا على نحو مرحلتين من بغداد، فانكسر البغداديون، فأخذهم السيف من كل مكان وغرق منهم طائفة، وهرب الباقون، كل ذلك وهم على شك من الاحاطة بهم والنزول عليهم» واقبل هولاكو قاصداً بغداد من الجانب الشرقي في عساكره وجيوشه، وأقبل الأمير (بايجو) فيمن معه من عساكر المغول قاصداً بغداد ايضاً من الجانب الغربي، فأحاطوا بها من الجانبين، فلما رأى اهل بغداد ذلك الجيش العظيم امتلأت قلوبهم رعباً، فنصبوا المجانيق على الأسوار واستعدوا للحصار، وظنوا ان مدة الحصار تدوم، فعند ذلك ضاقت الأرض بهم بما رحبت، واحاطت العساكر بجانبي بغداد»[٢٧]

---

(٢٧) الملك الاشرف الغساني: المسجد المسبوك ص٦٢٤ ـ ٦٣٠

القتال

اننا ندرك من هذه العمليات التاكتيكية (التعبوية) التي يقوم بها الخليفة ووزيره وأمراء جنده، الفرق الشاسع بين هذه القيادة العربية العباسية، والقيادة المغولية؛ ففي الحين الذي كان المغول يتقدمون ويحاصرون بغداد من جميع اطرافها، نرى امراء الجيش العباسي يختلفون ويتخاصمون ويتناحرون لمجرد ان الخليفة لسبب ما عين عليهم قائداً لم يقتنعوا به، دون بيان أسبابهم، وفي كونهم يحتقرونه لأنه من الخدم. والغريب ان يصل أمر قيادة الجيش الى احد الخدم. ولا شك ان هذا لم يكن الا لأن الخليفة لم يجد همة لدى اي من وزرائه ورجال دولته وامراء جنده، بل قد وجدهم متقاعسين عن القيام بهذا العمل الجبار، الذي تتوقف عليه حياته وحياة جميع اهالي بغداد المحاصرين. لكن ابن العلقمي كان يضحك في سره وقد انشرح قلبه فرحاً، لأنه علم ان ساعة النهاية قد دنت، وان الخليفة سينتهي أمره، وانه المرشح للخلافة او نيابة الخلافة في بغداد، بعد تلك المكاتبات السرية، وما نقله الجواسيس الذين أرسلهم والجواسيس التجار الذين لم يرسلهم هو انما كانوا يبيعون الأخبار والأسرار لهولاكو والمغول. لذلك فأن الامر كله لا يعنيه، ولا يهمه، ناهيكم عن كون المأساة التي ستحل وتقع، لا تكون الا خيراً وانتصاراً وتحقيقاً لما قصد واضمر في قلبه. ولأنه ينتظر اللحظات الاخيرة التي يتشرف بها بمقابلة سيده الذي تواطأ معه وطأطأ رأسه له، وأحنى رقبته، واذل كرامته ليحظى بثمن العمالة والخيانة. والجيش المغولي بفيالقه الثلاثة من الشرق، وفيلقه الرابع من الغرب يدق ابواب بغداد، ويطرق أسوارها بعد أن «سار السلطان حينئذ نحو بغداد، وامر الامير (سونجاق) ان يسير بقطعة من الجيوش على اربل، ويعبر دجلة ويجتمع بالامير (بايجو) ويقصدان بغداد من غربي دجلة ففعل وسار السلطان في باقي الجيوش فلما بلغ الخليفة مسيره، امر الدوادار ان يخرج من بغداد بالعساكر فخرج ونزل قريباً من (بعقوبا)، فلما بلغه وصول

(سوغونجاق) و (بايجو) عبر دجلة، ونزل حيال حربي، وارسل اميرًا يعرف بأيبك الحلبي في مقدمته فمضى واتصل ببايجو واقبل بين يدي العسكر يعرفهم الطريق ويهديهم. فلما عبر الدوادار، دجلة امر الخليفة (مرشدًا) الخصي المنسوب الى اقبال الشرابي ان يخرج في باقي العسكر للقاء السلطان بخانقين، فامتنع الامراء من المسير تحت لوائه.. واقتتلوا يوم الاربعاء تاسع المحرم فانكسرت عساكر المغول قصدًا وخديعة، فتبعهم الدوادار، وقتل منهم عدة كثيرة، وحمل رؤوسهم الى بغداد، ومازال يتبعهم بقية نهاره، فأشار عليه الامير (فتح الدين بن كر) بأمر يثبت مكانه، ولا يتبعهم فلم يصغ اليه، فادركه الليل، وقد تجاوز نهر بشير بز دجيل، فباتوا هناك، فلما أصبحوا حملت عليهم عساكر المغول وقاتلوهم قتالا شديدًا، فلم يثبت عساكر الدوادار، فانكسروا، وكروا راجعين الى بغداد، فوجد نهر بشير قد فاض من الليل وملأ الصحراء فعجزت الخيول عن سلوكه ووحلت فيه.. والقى معظم العسكر نفسه في دجلة، فهلك منهم خلق كثير.. ودخل من نجا منهم بغداد مع الدوادار على اقبح صورة.. وتبعهم الأمير (بايجو) وعسكره يقتلون فيهم.. واما السلطان هولاكو خان، فأن وصل الى ظاهر بغداد في ثاني عشر المحرم في جيش لا يحصى عدده.. وامر بعقد جسر تحت بغداد ليمنع من ينحدر الى واسط، فعقد تحت قرية (العقاب). ولم يعلم اهل بغداد به.. فكانت السفن تصل اليه فيؤخذ من بها ويقتل»[٢٨]. ولقد حدث فلك الدين محمد بن ايدمر بأن عسكر الدوادار الصغير اثناء حصار بغداد الكبير الذي انتهى بالمذبحة المعروفة عام ٦٥٦هـ كان قد التقى بنهر بشير من اعمال دجيل وكان الجند الفرسان بأبهى حللهم يخرجون الى المغول الذين كانت هيأتهم زرية جدًا، فكسروهم في اول النهار، وهرب المغول أمامهم، لكن المغول سد قطعة من نهر بشير ففاض الماء، فاغرق الاراضي التي تقع خلف جند الدوادار، فلما أصبح الصباح وقاموا للقتال اندفع جيش المغول نحوهم، فلما ارادوا

(٢٨) ابن الفوطي: الحوادث الجامعة ص٣١٩ - ٣٢٥

التراجع وجدوا ان لا طريق سوى الاوحال. فكانت حركة تاكتيكية (تعبوية) عسكرية بالتظاهر بالانكسار ثم بيتوا امرهم على تغريق الارض حتى يحصروا جيش الدوادار ويوقعوا به مقتلة عظيمة كما حدثت فعلاً. وكان جيش (بايجو) قد تقدم نحو تكريت ليسير من هناك الى الجانب الغربي حتى يحاصروا بغداد من جانبها الغربي فاذا أتى هولاكو بجيشه في القلب وجيش (بلغا) وقادة معاونون على الميمنة وجيش (كيتوبوقانوين) على الميسرة. وهذه كلها من الجانب الشرقي، بعد ان سيطروا على شواطىء دجلة من الجانبين واقاموا جسرين الاول الى شمال بغداد، والثاني الى جنوبها حتى يقطعوا النهر على الهاربين بالسفن. وكانت جيوش المغول اجفل الناس من دجيل والاسحاقي ونهر الملك ونهر عيسى ودخلوا بغداد بنسائهم واولادهم حتى كان الرجل او المرأة يقذف بنفسه في الماء. فلما وصل العسكر المغولي الى دجيل وهو يزيد على ثلاثين الف فارس، خرج عسكر الخليفة بعد قليل جداً والتقى بالجيش المغولي قرب بلد، فانكسر جيش الدوادار ولم يسلم الا من هرب نحو بلاد الشام[٢٩]. وبعد هذا الانكسار العسكري في الجانبين الشرقي والغربي من بغداد، اذ ظلت المنجنيقات ترمي بالأحجار وقطع جذوع النخيل والنفاطات والسهام، سُقط في أيدي قادة الجيش المحاصرين خلف الأسوار داخل بغداد مع افراد جيشهم المقاتلين على قلتهم، اخذ ابن العلقمي يصيح بالناس بترك السلاح لأن الصلح[٣٠] سوف يقع.. بعد المفاوضات التي اجراها ابن العلقمي مع هولاكو باشارة من الخليفة دون ان يعرف الخليفة حقيقة تلك المفاوضات التي اجريت.

---

(٢٩) ابن الطقطقي: الفخري في الاداب السلطانية ص٢٤٣

(٣٠) اليونيني: ذيل مرآة الزمان ص٨٨

بغداد . . مجزرة دامية

واذ كان ابن العلقمي ينادي بالقاء السلاح، لأن الصلح سيتم بين الخليفة وهولاكو، فأن الجيش العباسي واهالي بغداد المحاصرين اضطروا الى الكف عن القتال، لأن الذي وجه نداءات الصلح هو الوزير الفارسي عند الخليفة المستعصم بالله، فاستسلموا للامر الواقع الذي حتم عليهم الركون الى السلم وانتظار ما تتمحض عنه المفاوضات لعقد الصلح التي يقوم بها ابن العلقمي ووفد هولاكو خاصة وان الجيش المغولي كان كبيرًا الى درجة أدخال الهلع والرعب في نفوس أهالي بغداد «فأشار الوزير ابن العلقمي على مصانعة المغول والخروج اليهم في تقرير الصلح لنفسه وتوثق منهم، ورجع الى الخليفة المستعصم ليقول له ان هولاكو قد رغب ان يزوج بنته من ابنك ابي بكر ويبقيك في منصب الخلافة. فخرج الخليفة في جمع من الاعيان الى هولاكو، فأنزل في خيمة ثم دخل الوزير فاستدعى الفقهاء والاماثل ليحضروا العقد فخرجوا من بغداد، فأخذوا جميعاً، وضربت أعناقهم»[1].

قتل الخليفة واولاده

«وقتل الخليفة.. وقيل خنق، وقيل رفس، وقيل غم في بساط حتى مات.. ودخل التتر مدينة بغداد وبذلوا السيف في أهلها، واستمر القتل والسبي

(١) الملك الاشرف الغساني: المسجد المسبوك: ص٦٣٠ ـ ٦٤٠

بضعة وثلاثين يوماً، فلم يسلم منهم الا من اختفى، فأمر هولاكو بعدّ القتلى، فكانوا الف الف وثمانمائة الف وكسراً، والأصح ان القتلى في بغداد ثمانمائة الف. . فكان من قتل صبراً من بيت الخلافة الأمام المستعصم بالله وابو احمد عبدالله بن الأمام المستنصر بالله ووالداه الأميران ابو العباس احمد وابو الفضائل عبدالرحمن واعمام المستنصر بالله وابو هاشم يوسف وابو الفتوح حبيب وابو القاسم علي وابو منصور والحسن وابو الفتح سليمان اولاد الامام الظاهر، واخوة المستنصر بالله، والأميران المؤيد عبدالله الحسين والموفق أبو علي يحيى الأمير السعيد ابي الحسن علي بن الأمام الناصر لدين الله وهما أعمام المستعصم»[٢].

وقال اليونيني: فحينئذ اشار ابن العلقمي الوزير على الخليفة بمصانعة ملك التتر ومصالحته، وسأل ان يخرج اليه في تقرير ذلك، فخرج وتوثق منه لنفسه، ثم رجع الى الخليفة وقال له: انه يرغب ان يزوج ابنته من ابنك الأمير ابي بكر ويبقيك في منصب الخلافة، كما ابقى سلطان الروم في سلطنة الروم لا يؤثر الا ان تكون الطاعة له، كما كان اجدادك من السلاطين السلجوقية، وينصرف بعساكره عنك فتجيبه الى هذا، فأن فيه حقن دماء المسلمين. ويمكن بعد ذلك ان تفعل ما تريد. وحسن له الخروج اليه، فخرج في جمع من اكابر اصحابه، فأنزل في خيمة، ثم دخل الوزير فاستدعى الفقهاء، والاماثل ليحضروا عقد النكاح فيما اظهره. فخرجوا فقتلوا، وكذلك صار يخرج طائفة بعد طائفة[٣]، ثم مد الجسر وغدا (بانجو نوين) ومن معه، وبذل السيف في بغداد، فقتل كل من ظهر، ولم يسلم الا من اختفى، وقتل من كان في دار الخلافة من الأشراف، ولم يسلم الا من هرب او كان صغيراً، فأنه اخذ اسيراً، واستمر القتل والنهب نحو أربعين يوماً ثم نودي بالأمان، فظهر من كان اختفى، وقتل سائر الذين خرجوا الى

---

(٢) هؤلاء جميعا من العائلة العباسية، اي اعمام واولاد اعمام الخليفة المستعصم بالله واقاربه الأخرين.

(٣) كان يشرف على قتل وذبح علماء بغداد الشيخ ابو بكر الطهراني اضافة الى ابن العلقمي ونصير الدين الطوسي.

هولاكو من القضاة والاكابر والمدرسين، اما الوزير ابن العلقمي فلم يتم له ما أراد، ومات بعد مدة يسيرة، ولقاه الله تعالى ما فعله، ورأى قبل موته في نفسه العبر والهوان والذل مالا يعبر عنه، ثم ضرب هولاكو عنق (بانجونوين) لأنه قيل عنه انه كاتب الخليفة، وهو في الجانب الغربي. واما الخليفة فقتل، ولكن لم يتحقق كيفية قتله، فقيل انه خنق وقيل رفس الى ان مات، وقيل غرق، وقيل لف في بساط فغطس، والله اعلم بحقيقة الحال»[٤].

ويقول ابن كثير «ولهذا كان اول من برز الى التتر هو - اي ابن العقلمي - فخرج بأهله واصحابه وخدمه وحشمه فاجتمع بالسلطان هولاكو خان - لعنه الله - ثم عاد فأشار على الخليفة بالخروج اليه، والمثول بين يديه، لتقع المصالحة على ان يكون نصف خراج العراق لهم ونصفه للخليفة، فاحتاج الخليفة الى ان خرج في سبعمائة راكب من القضاة والفقهاء والصوفية ورؤوس الأمراء والدولة والأعيان، فلما اقتربوا من منزل السلطان هولاكو، حجبوا الخليفة الا سبعة عشر نفساً، فخلص الخليفة بهؤلاء المذكورين، وانزل الباقون عن مراكبهم ونهبت وقتلوا عن آخرهم، واحضر الخليفة بين يدي هولاكو، فسأله عن اشياء كثيرة، فيقال انه اضطرب كلام الخليفة من هول ما رأى من الاهانة والجبروت ثم عاد الى بغداد وفي صحبته خواجة نصير الدين الطوسي والوزير ابن العلقمي وغيرهما، والخليفة تحت الحوطة والمصادرة، فاحضر من دار الخلافة شيئاً كثيراً من الذهب والحلي والمصاغ والجواهر والاشياء النفيسة وقد اشار أولئك الملأ من الرافضة وغيرهم من المنافقين، على هولاكو ان لا يصالح الخليفة، وقال الوزير، متى وقع الصلح على المناصفة لا يستمر هذا الا عاماً او عامين ثم يعود الأمر الى ما كان عليه قبل ذلك، وحسنوا له قتل الخليفة، فلما عاد الخليفة الى السلطان هولاكو، أمر بقتله، ويقال ان الذي اشار بقتله، الوزير ابن العلقمي والمولى نصير الدين الطوسي، وكان النصير عند هولاكو قد استصحبه في خدمته لما فتح

(٤) اليونيني: ذيل مرآة الزمان ص٨٩

قلعة (آلموت) وانـتزعها من ايـدي الاسماعيلية، وكان النصير وزيراً لشمس الشموس ولأبيه من قبله علاء الدين بن جلال الدين، وكانوا ينسبون الى نزار بن المستنصر العبيدي، وانتخب هولاكـو النصير ليكـون في خدمته كالـوزير المشير، فلما قدم هولاكو وتهيب من قتل الخليفـة، هوّن عليه الوزير ذلك فقتلوه رفساً، وهو في جوالق لئلا يقع على الأرض شيء من دمه، خافوا ان يؤخذ بثأره فيما قيل لهم. وقيل بل خنق ويقال بل أغرق، فالله اعلم. فباأل بأئمة واثم من كان معه من سادات العلماء والقضاة والاكابر والرؤساء والامـراء واولي الحل والعقد ببلاده»[5]. «وقد اختلف الناس في كمية من قتل ببغداد من المسلمين في هذه الوقعة، فقيل ثمانمائة الف، وقيل الف الف وثمانمائـة الف، وقيل بلغت القتلى الفي الف نفس، . وكان دخولهم بغداد في اواخر محرم، ومازال السيف يقتل اهلها اربعين يوماً. وكان قتل الخليفة المستعصم بالله امير المؤمنين يـوم الاربعاء رابع عشر صفر، وعفي قبره، وكان عمره يومئذ ستاً واربعين سنة واربعة اشهر، ومدة خلافته خمس عشرة سنة وثمانية اشهر وايام. وقتل معه ولده الاكبر ابو العباس احمد وله خمس وعشرون سنة، ثم قتـل ولده الاوسط ابـو الفضل عبدالرحمن وله ثلاث وعشرون سنة واسر ولده الاصغر مبارك، واسرت اخواته الثلاث فاطمة وخديجة ومريم، واسر من دار الخـلافة من الابكـار ما يقارب الف بكر فيما قيل»[6]. «وقتل استاذ دار الخلافة الشيخ محي الدين يوسف بن الشيخ ابي الفرج ابن الجوزي، وكان عـدو الوزيـر، وقتل اولاده الثـلاثة عبدالله وعبدالـرحمن وعبدالكـريم، واكابـر الدولـة واحداً بعـد واحد، منهم الدوادار الصغير مجاهد الدين ايبك وشهاب الدين سليمان شاه. . ومن قتل مع الخليفة واقف المدرسة الجوزية بدمشق استاذ دار الخلافة محيي الدين يوسف بن الشيخ جمال الدين ابي الفرج بن الجوزي عبدالرحمن. . وجماعة من امراء السنة

---

(٥) ابن كثير: البداية والنهاية، ج١٣ ص١٩٨

(٦) ابن كثير: البداية والنهاية: ج١٣ ص٢٠٠

واكابر البلد. وكان الرجل يستدعى من دار الخلافة من بني العباس فيخرج بأولاده ونسائه، فيذهب به الى مقبرة الخلال تجاه المنظرة فيذبح كما تذبح الشاة، ويؤسر من يختارون من بناته وجواريه. وقتل شيخ الشيوخ مؤدب الخليفة صدر الدين علي بن النيار، وقتل الخطباء والائمة وحملة القرآن، وعطلت المساجد والجماعات والجمعيات مدة شهور ببغداد، واراد الوزير ابن العلقمي - قبحه الله ولعنه - ان يعطل المساجد والمدارس والربط ببغداد، ويستمر بالمشاهد - العزاءات العاشورية - ومحال الرفض وعلمهم بها وعليها»[٧].

«ولما انقضى الامر المقدر، وانقضت الاربعون يوماً.. والقتلى في الطرقات كأنها التلول، وقد سقط عليهم المطر فتغيرت صورهم وانتنت من حبقهم البلد وتغير الهواء، فحصل بسببه الوباء الشديد حتى تعدى وسرى في الهواء الى بلاد الشام، فمات خلق كثير من تغير الجو وفساد الريح، فاجتمع على الناس الغلاء والوباء والفناء والطعن والطاعون»[٨]. وقال المقريزي: «وفيها - اي سنة ٦٥٦هـ - ملك هولاكو بغداد وقتل الخليفة المستعصم بالله عبدالله في سادس صفر. وانقرضت بمهلكه دولة بني العباس من بغداد وصار الناس بغير خليفة الى سنة تسع وخمسين وستمائة.. وقتل الناس ببغداد، وتمزقوا في الاقطار.. وسفكوا الدماء حتى جرت في الطرقات، واستمروا على ذلك اربعين يوماً وأمر هولاكو بعدّ القتلى فبلغت نحو الألفي الف قتيل وتلاشت الاحوال بها»[٩].

ويقول ابن خلدون: «ورجع بالأمان الى المستعصم وانه يبقيه على خلافته كما فعل بملك الروم. فخرج المستعصم ومعه الفقهاء والأعيان فقبض عليه لوقته وقتل جميع من كان معه، ثم قتل المستعصم شدخاً بالعمد ووطىء بالاقدام لتجافيه بزعمه عن دماء اهل البيت وذلك سنة ست وخمسين وخمسائة. وركب

---

(٧) ابن كثير: البداية والنهاية ج١٣ ص٢٠٣

(٨) المقريزي. كتاب السلوك ج١ قسم٢ ص٤٠٩ - ٤١٠

(٩) المقريزي: كتاب السلوك ج١ قسم٢ ص٤١٠

الى بغداد فاستباحها، واتصل العبث بها اياماً، وخرج فداستهم العساكر وماتوا أجمعين. ويقال ان الذي احصي ذلك اليوم من القتلى الف الف وستمائة الف»[10].

ويقول ابن الوردي: «ثم دخلت سنة ٦٥٦هـ، فيها قصد هولاكو ملك التتر بغداد وملكها في العشرين من المحرم وقتل الخليفة المستعصم بالله فقلت:

«وخان الفاجر ابن العلقمي الى ان بدل الدولة الغراء تبديلا

ثم « جاء بجيوش سلبت عنه النعمة ونكبت الأمام والأمة وسفكت دماء أهالي بغداد، وخلدت عليه العار واللعنة:

واتى الخائن الخبيث بمغل	طبق الارض بغيهم تطبيقا
هكذا ينصر الجهول اخاه	ومن البر ما يكون عقوقا

«وخرج ابن العلقمي الى هولاكو فتوثق منه لنفسه وعاد الى الخليفة المستعصم وقال: ان هولاكو يبقيك في الخلافة كما فعل بسلطان الروم، ويريد ان يزوج ابنته من ابنك ابي بكر، وحسن له الخروج الى هولاكو، فخرج اليه المستعصم في جمع من اكابر اصحابه، فأنزل في خيمة.. ثم استدعى ابن العلقمى الفقهاء والاماثل فاجتمع هناك جميع سادات بغداد والمدرسين ومنهم ملك الامراء ركن الدين الدوادار المستنصري احد الشجعان واستاذ دار الخلافة العلاء محي الدين بن الجوزي واولاده وكذلك صار يخرج الى التتر طائفة بعد طائفة موهما لهم انهم يحضرون عقد ابن الخليفة على بنت هولاكو، فلما تكاملوا قتلهم التتر عن آخرهم، ثم مدوا الجسر وعدى (باجور) ومن معه، وبذلوا السيف في بغداد وهجموا دار الخلافة وقتلوا كل من كان فيها من الاشراف ولم يسلم الا من كان صغيراً، فاتخذ اسراً، ودام القتل والنهب في بغداد اربعين

---

(١٠) ابن خلدون: كتاب العبر: ج٣ ص١١٠٦

يوماً. ومن استشهد ببغداد «العلامة الشيخ يحيى بن يوسف الصرصري الضرير الشاعر ثم نودي بالأمان، واما الخليفة،فقتلوه وابنه ابا بكر، ايضاً قتلاً خنقاً، وقيل وضعافي عدل ورفسا حتى ماتا، وقيل غرقا في دجلة. . وبقي الوقت بعد ذلك بلا خليفة ثلاث سنين»[١٠].

ويقول ابو الفلاح عبدالحي: «فأشار ابن العلقمي على المستعصم بالله ان اخرج اليهم في تقرير الصلح فخرج الخبيث وتوثق لنفسه، ورجع فقال؛ ان الملك قد رغب ان يزوج ابنته بابنك الأمير ابي بكر، وان تكون الطاعة له، كما كان اجدادك مع الملوك السلجوقية ثم يترحل، فخرج اليه المستعصم في اعيان الدولة»[١١]. واخليت الطرق والاسواق من الناس بسبب القتل الذي حدث طيلة اربعين يوماً فاذا بغداد قد:

بادت واهلوها معاً فبيوتهم ... ببقاء مولانا الوزير خراب

وقال بعضهم؛

يـاعصبة الاسـلام نـوحي وانـدبي ... حـزنـاً عـلى مـا تم للمستعصم
دست الخـلافـة كـان قبـل زمـانـه ... لابن الفـرات فصار لأبن العلقمي

وقال تقي الدين بن ابي أيسر:

لسـائل الـدمـع عن بغـداد اخبـار ... فـما وقوفـك والأحباب قـد سـاروا
يـا زائـرين الى الـزوراء لا تعـدوا ... فـما بـذاك الحمى والـدار ديـار[١٢]

---

(١٠) ابن الوردي: تاريخ ابن الوردي ج٢ ص١٧٣
(١١) ابو الفلاح عبدالحي بن عماد الدين: شذرات الذهب في اخبار من ذهب ص٢٧٢ ـ ٢٧٣
(١٢) ابو الفلاح عبدالحي بن عماد: شذرات الذهب ج ٥ ص ٢٧٠

ويقول مؤرخ حملة هولاكو رشيد الدين الهمذاني: «وفي يوم الأربعاء الرابع عشر من صفر، استدعى الخليفة فأدرك هذا ان إمارات النحس تبدو على مصيره، وخاف خوفاً شديداً، وقال للوزير (ما حيلتنا)؟ فاجاب الوزير (لحيتنا طويلة). . تعريضاً بقول الدوادار الذي قال ذلك عن الوزير. . وذهب الخليفة الى الحمام للاغتسال بحراسة خمسة مغول وهوينشد:

واصحبنا لنا دار كجنات وفردوس

وامسينا بلا دار كأن لم نغن بالامس

وفي مساء الاربعاء الرابع عشر من صفر ٦٥٦هـ قضوا على الخليفة وعلى ابنه الاكبر وخمسة من الخدم كانوا في خدمته في قرية (وقف). وفي يوم التالي قتلوا الذين كانوا معه في بوابة (كلواذى). كذلك قضوا على كل شخص وجدوه حياً من العباسيين، اللهم الاأفراداً قلائل لم يأبهوا بهم. . وفي يوم الجمعة ١٦ صفر الحقوا الابن الثاني للخليفة بوالده واخيه. وفي نفس اليوم الذي قتلوا فيه الخليفة ارسلوا الى المدينة مؤيد الدين بن العلقمي ليقوم بالوزارة، وفخر الدين الدامغاني ليكون صاحب الديوان، وجعلوا علي بهادر شحنة لها، وعينوا المحتسبين لمراقبة المقاييس والأوزان، ونصبوا عماد الدين ابو جعفر احمد بن عمران الملقب براست دل (المخلص) والياً على اعمال شرقي بغداد من طريق خراسان وخالص وبندنجين، وأمر هولاكو بأن يكون نظام الدين عبدالمؤمن البندنجي قاضي القضاة واختار (ايلكا نوين) و (قرابوقا) ومعهما ثلاثة آلاف من فرسان المغول وبعث بهم الى بغداد، ليعملوا على استتباب الأمن»[١٣].

ويقول ابن العبري: «وعند المساء خرج الى منزله وامر الخليفة ان يفرز جميع النساء التي باشرهن هو وبنوه، ويعزلهن عن غيرهن، ففعل، فكن سبعمائة امرأة، فاخرجهن ومعهن ثلاثمائة خادم خصي. وبقي النهب يعمل الى سبعة ايام

---

(١٣) رشيد الدين الهمذاني: مج٢ قسم١ ص٢٩٣ ـ ٢٩٤

ثم رفعوا السيف وبطلوا السبي. وفي رابع عشر صفر، رحل هولاكو من بغداد وفي اول مرحلة قتل الخليفة المستعصم وابنه الأوسط مع ستة نفر من الخصيان بالليل، وقتل ابنه الكبير ومعه جماعة من الخواص على باب كلواذى وفوض عمارة بغداد الى صاحب الديوان والوزير وابن درنوس. وارسل (بوقاتيمور) الى الحلة ليمتحن اهلها، وهل هم على الطاعة ام لا. فتوجه نحوها ورحل عنها الى مدينة واسط، وقتل بها خلقاً كثيراً اسبوعاً، ثم عاد الى هولاكو وهو بمقام سياكوه»[١٤].

وقال ابو الفداء: «وعاد الى الخليفة المستعصم، وقال ان هولاكو يبقيك في الخلافة كما فعل بسلطان الروم ويريد ان يزوج ابنته من ابنك ابي بكر، وحسن له الخروج الى هولاكو، فخرج اليه المستعصم في جمع من اكابر اصحابه، فأنزل في خيمة ثم استدعىٰ الوزير الفقهاء والاماثل، فاجتمع هناك جميع سادات بغداد والمدرسون، وكان منهم محي الدين ابن الجوزي واولاده وكذلك بقي يخرج الى التتر طائفة بعد طائفة. فلما تكاملوا قتلهم التتر عن آخرهم، ثم مدوا الجسور وعدي (بايجو) ومن معه، وبذلوا السيف في بغداد، وهجموا دار الخلافة، وقتلوا كل من كان فيها من الاشراف. ولم يسلم إلا من كان صغيراً فأخذ اسيراً، ودام القتل والنهب في بغداد نحو أربعين يوماً، ثم نودي بالأمان، وأما الخليفة فأنهم قتلوه، ولم يقع الاطلاع على كيفية قتله فقيل خنق، وقيل وضع في عدل ورفسوه حتى مات، وقيل غرق في دجلة، والله اعلم حقيقة ذلك»[١٥].

ويقول ابن الفوطي: «وعاد الوزير الى بغداد يوم الأحد سابع عشر من المحرم وقال للخليفة: قد تقدم السلطان ان تخرج اليه، فاخرج ولده الاوسط.

---

(١٤) ابن العبري: مختصر تاريخ الدول ص٤٧٥

(١٥) ابو الفداء: المختصر في اخبار البشر ج٣ ص١٩٣

وهو ابو الفضل عبدالرحمن في الحال، فلم يقع الاقتناع بـه، فخرج الخليفـة والوزير يوم الاثنين ثامن عشر المحرم ومعه جمع كثير، فلما وصلوا ظاهر السور، منعوا اصحابه من الوصول معه، وافردوا له خيمة، واسكن بها. وخرج مجاهد الدين ايبك الدوادار الصغير، وشهاب الدين سليمان شاه وسائر الامراء في اول صفر، وخرج ابن الخليفة الاكبر ابو العباس احمد يوم الجمعة ثاني صفر. ثم دخل الخليفة بغداد، يوم الاحـد رابع صفـر، ومعه جمـاعة من أمـراء المغول وخواجه نصير الدين الطوسي.. ثم عاد مع الجماعة الى ظاهر السور بقية ذلك اليوم، فأمر السلطان بقتله، فقتل يوم الاربعاء رابع عشر صفر، ولم يهرق دمه، بل جعل في غرارة ورفس حتى مات، ودفن وعفي أثر قبره، وكان قد بلغ من العمر ستاً واربعين سنة واربعة اشهر..

قتل اهالي بغداد ـ الاعلام والعامة

بعد ان قتل الخليفة واولاده واقربائه، قتلت افواج اعيان بغداد وعلمائها وامراء جندها وفقائها.. بعد ان قتل ايضاً «مجاهد الدين ايبك الدوادار الصغير وامير الحاج فلك الدين محمد بن علاء الدين الطبرسي الدوادار الكبير، وشهاب الدين سليمان شاه بن برجم وفلك الدين محمد بن قيران الظاهري، وقطب الدين سنجر البكلي، الذي كان شحنة بغداد، و (عز الدين ابقرا) شحنة بغداد ايضاً، ومحي الدين بن الجوزي استاذ الدار وولده جمال الدين عبدالرحمن، واخوه شرف الدين عبدالله واخوه تاج الدين عبدالكريم وشيخ الشيوخ صدر الدين علي بن النيار، وشرف الدين عبدالله بن اخيه، وبهاء الدين داود بن المختار، والنقيب الطاهر شمس الدين علي بن المختار وشرف الدين محمد بن طاووس، وتقي الدين عبدالرحمن بن الطبال وكيل الخليفة»[١٦]. ويقول الملك الاشرف الغساني

(١٦) ابن الفوطي: الحوادث الجامعة ص٣٢٥ ـ ٣٢٨

وممن قتل صبراً مجاهد الدين ابو الميامن ايبك الدوادار المستنصري ثم امير الحاج فلك الدين محمد بن الامير الطبرسي الظاهري . . ثم الامير شهاب الدين سليمان بن محمود بن برجم ملك الايوائية . . ثم الامير فلك الدين محمد بن الامير قبران الظاهري . . ثم الامير قطب الدين سنجر البكلكي . . ثم الامير عز الدين البقرا الظاهري شحنة بغداد، ثم الامير بلبان المستنصري، واستاذ دار الخلافة محي الدين ابو محمد يوسف بن عبدالرحمن ابن الجوزي، ثم ولده الأمير جمال الدين ابو الفرج عبدالرحمن بن يوسف بن الجوزي، ثم اخوه شرف الدين ابو الفضل عبدالله بن يوسف بن الجوزي ثم اخوه تاج الدين ابو الكرم عبدالكريم ابن يوسف بن الجوزي، ثم الشيخ شهاب الدين ابو المناقب محمود بن احمد بن محمود الريحاني[١٧] ثم السيد شرف الدين بن الصدر العلوي، ثم نقيب العباسيين شمس الدين ابو المحسن علي بن النسابة، ثم شيخ الشيوخ صدر الدين ابو المظفر علي بن محمد بن النيار، ثم ابنه عبدالرحمن بن علي النيار، ثم ابن اخيه شرف الدين عبدالله بن علي بن سكينة، ثم العدل عبدالوهاب ابن عبدالرحيم بن عبدالوهاب بن سكينة شيخ الرباط الكاتبة ثم القاضيان: البرهان القزويني الشافعي وابراهيم البهر فضلي الشافعي، ثم الصدر ابو معشر الهمداني مدرس المدرسة بين الدربين (الاسبابذية) ثم الشمس علي بن يوسف، ثم النقيب الطاهر علي بن النقيب الطاهر الحسن بن المختار ثم محمد بن البوقي، ثم عمر بن الجلال عبدالله بن المختار العلوي، ثم شرف الدين ابو الفضل محمد بن طاووس العلوي ثم عبدالله بن خنفر الاديب، ثم العدل احمد بن القزويني الهاشمي شيخ رباط الدرجة، ثم السراج علي بن البجلي ثم الامير مظفر الدين محمد بن الامير

---

(١٧) ربما يكون الزنجاني وليس الريحاني

جمال الدين، ثم الموفق عبدالقاهر بن محمد الفوطي، ثم علي بن الزبيدي»[١٨].

ويقول الكتبي: و «رسم السلطان انك تخرج اليه، فاخرج اليه ولده الاوسط ابا الفضل عبدالرحمن فلم يقع الاقتناع به، فخرج اليه الخليفة والوزير ومعهم جمع كثير، فلما صار ظاهر السور افردوه من اصحابه في خيمة ومعه جماعة من امراء المغول وخواجه نصير الدين الطوسي، فاخرج اليهم من الأموال والجواهر، والحلي والزركش والثياب واواني الذهب والفضة والأعلاق النفسية جملة عظيمة، ثم عاد مع الجماعة الى ظاهر البلد، فأمر هولاكو بقتله، فقتل يوم الأربعاء رابع عشر صفر ٦٥٦هـ، ولم يهرق دمه بل جعل في غرارة ورفس الى ان مات ودفن واعفي أثر قبره. وقد كان قد بلغ من العمر ستاً واربعين، ثم قتل ولده الاكبر ابو العباس احمد ثم قتل ابن الخليفة الأوسط ابو الفضل عبدالرحمن واما ولده الأصغر مبارك واخوانه، فأنهم لم يقتلوا بل أسروهم. واخذوا اعمام الخليفة وانسابه الذين كانوا في دار الشجرة، فكانوا يطلبون واحدًا بعد واحد، فيخرج بأولاده وجواريه فيقتل، فقتلوهم عن آخرهم، ثم قتل مجاهد الدين ايبك الدوادار الصغير وامير الحاج فلك الدين، وشهاب الدين سليمان شاه بن برجم وفلك الدين بن محمد قيران الظاهري، وقطب الدين سنجر شحنة بغداد. ومحي الدين بن الجوزي استاذ الدار، وولده جمال الدين عبدالرحمن واخوته عبدالله وعبدالكريم، وشيخ الشيوخ صدر الدين بن النيار، واولاده: المختار بهاء الدين وشمس الدين وشرف الدين بن طاووس وتقي الدين بن

---

(١٨) الملك الاشرف الغساني: المسجد المسبوك ص٦٣٠ - ٦٤٠

اشار رشيد الدين الى محاكمة تاج الدين ابو الفضل محمد نقيب العلويين لابناء علي حتى لا يكون الحكم الذي يقضونه به موضعا للشكوى ولا شكوكا في تميزه ضد المتهم، فأوكل امر المحاكمة الى العلوي تاج الدين ابراهيم بن المختار الذي اقتادهم الى شاطىء دجلة فأمر اتباعه، فذبحوهم، قطعوا جسم تاج الدين ارباً وانتزعوا شعره، فثار السلطان لهذه الميتة الشنيعة لكن رشيد الدين اقنعه واسترضاه عن هذه القتلة (جامع التواريخ مج٢ قسم١ - المقدمة)

الطبال وكيل الخليفة، وقتل صدر الدين نبهان بن محمود الفاضل»[١٩]، ومالوا - أي المغول - على البلد فقتلوا جميع من قدروا عليه من الرجال والنساء والولدان والمشايخ والكهول والشبان ودخل كثير من الناس في الآبار وامـاكن الحشوش وقنى الوسخ وكمنوا كذلك اياماً لا يظهرون. وكان الجماعة من الناس يجتمعون الى الخانات ويغلقون عليهم الابواب فتفتحها التتر اما بالكسر واما بالنار، ثم يدخلون عليهم فيهربون منهم الى اعالي الامكنة فيقتلونهم بالاسطحة حتى تجري الميازيب من الدماء في الازقة، وكذلك في المساجد والجوامع والربط، ولم ينج احد منهم سوى اهل الذمة من اليهود والنصارى ومن التجأ اليهم والى دار الوزير ابن العلقمي الرافضي وطائفة من التجار اخذوا لهم اماناً، بذلوا عليه امـوالا جزية سلموا وسلمت اموالهم»[٢٠] اما الذين أُسروا من العوائل المعروفة وكانوا آنئذ اطفالاً او صبياناً، فمنهم كمال الدين ابو الفضل بن عبدالرزاق بن الفوطي صاحب كتاب الحوادث الجامعة، وكذلك عبدالعزيز بن ابراهيم الخالدي سبط المستعصم بالله، وعميد الدين سعيد بن محمد السلمي البغدادي المنجم بن نائب الجانبين ببغداد، وكذلك كان في أسر جيش المغول بدر الدين عبدالوهاب ابن عبدالرزاق بن الفوطي اخو المؤرخ ابن الفوطي.

لقد «وضع السيف في اهل بغداد، وما يزال السيف يعمل فيهم اربعين يوما في قتل ونهب واسر وعقوبة على الاموال. فقتلوا الرجال والنساء والصبيان والاطفال ما عدا النصارى لأنه كان عندهم من يحرس بيوتهم. قيل ان عدد القتلى ببغداد زاد عـلى ثلاثـمائـة الف نفس، عـدا عن الفين من الغلمان في الدخول، ومن هلك في القنى والآبار وسراديب الموتى جوعًا، وعطشاً، ووقع الوباء فيمن تخلف بعد الوقعة من شم روائح القتلى وشرب الماء الممتزج بالجيف

---

(١٩) الكتبي: عيون التواريخ ج٢٠ ص٢٠٢

(٢٠) ابن كثير: البداية والنهاية ج١٣ ص١٩٦

وكثرة الذباب، فأنه ملأ الفضاء، وكان يسقط على المطعومات فيفسدها»[21].

ويقول القلقشندي: «وعاد الى الخليفة المستعصم بالله وقال: ان هولاكو يبقيك في الخلافة كما فعل بسلطان الروم، ويريد ان يزوج ابنته من ابنك ابي بكر، وحسن له الخروج الى هولاكو فخرج... اليه المستعصم بالله في جمع عظيم من اكابر اصحابه فأنزله في جهة، ثم استدعى الوزير الفقهاء والاماثل حتى اجتمع هناك جميع سادات بغداد من العلماء وغيرهم، فصار اهل بغداد يخرجون الى التتر، طائفة بعد طائفة، حتى تكاملوا، فبذل منهم التتر، السيف وقتلوهم. ولم ينج منهم الا القليل وهجموا دار الخلافة وقتلوا كل من فيها من الاشراف والاكابر، ولم يسلم منهم الا من كان صغيرًا، فأخذ اسيرًا، ودام القتل والنهب في بغداد اربعين يومًا، ثم نودي بالامان، وقتل الخليفة المستعصم بالله، ولم يوقف على كيفية قتله، فقيل خنق، وقيل جعل في عدل ورفس حتى مات، وقيل غرق في دجلة، واستبقىٰ هولاكو الوزير ابن العلقمي مدة يسيرة في الوزارة..»[22].

ولما «رحل التترعن بغداد، الى اذربيجان. رحل اليهم بدر الدين لؤلؤ صاحب الموصل والشريف تاج الدين بن صلايا صاحب اربل، فاكرم بدر الدين لؤلؤ ورده الى بلاده، واما ابن صلايا، فقتل، وقد ذكر والله اعلم، ان بدر الدين لؤلؤ قال لهولاكو: هذا شريف علوي، وربما تطاول ان يكون خليفة، ويبايعه على ذلك خلق عظيم، فتقدم هولاكو لقتله، ولما رجع بدر الدين (لؤلؤ) الى الموصل لم يطل مقامه بها، وتوفي»[23]. وهكذا قتل حتى الشريف العلوي، وهو اقرب الناس الى الحسين، وابن العلقمي الوزير الفارسي لم يدافع عن الشريف العلوي.. قتل ولم يتشفع له ابن العلقمي الفارسي، ولم يحاول حمايته من سيوف المغول او التتر،

---

(٢١) الكتبي: عيون التواريخ ج٢٠ ص١٣٤ ـ ١٣٥

(٢٢) القلقشندي: مآثر الانافة في معالم الخلافة ص٩١

(٢٣) ابو الفلاح عبدالحي بن عماد: شذرات الذهب ج٥ ص٢٧٣

وافق على اهراق دم الشريف العلوي تاج الدين بن صلايا ولما سمح بقتله وهو من احفاد الرسول محمد (ﷺ)، والعلقمي كان يضمر الانتقام من العلويين، وابن صلايا هو رأس العلويين في اربل حيث كان نائب الخليفة. انها الاحبولة والمؤامرة من اجل اسقاط الخلافة العباسية وازالة السيادة العربية، والا فهذا هاشمي جدير بالخلافة، ولم يعين خليفة، بل قتل صبراً، كما «قتل صبراً موفق الدين ابو محمد عبدالقاهر بن محمد بن علي بن عبدالله الفوطي البغدادي الاديب الذي قال عنه ابن الساعي، كان اماماً ثقة، اديباً فاضلاً، حافظاً للقرآن، عالماً بالعربية واللغة والنجوم، كاتباً شاعراً صاحب امثال، وكان فقيراً ذا عيال، ولم يوافق نفسه على خيانة»[٢٤].

ولم يكتف هولاكو ووزراؤه بهذا القتل، لكل من قاوم وقاتل او أبدى قليلا من الاحتجاج، او اكتشف المغول انه كان يميل الى بيت الخلافة، او انه كان ينظر بازدراء لأبن العلقمي، او انه كان يستنكف من استقبال قادة جيش هولاكو والجنود المغول، بل ان القتل بلغ حداً انه اصبح لعبة او تسلية يوصي بها العالم الجليل (!!) نصير الدين الطوسي وكأن القتل لأهالي بغداد بالذات في الطرقات والازقة لا يختلف عن قتل القطط والهوام والحشرات، اذ لا قيمة لها ان لم يكن ضررها للانسان اكثر من نفعها. وهذه صورة سريعة يرويها ابن الفوطي تعبر اجلى تعبير عن احقاد الفرس وانتقامهم من العرب بهذا القتل الجماعي الوحشي، حيث لم يقم به المغول تحت راية قائدهم هولاكو، انما اشترك معهم فيه نصير الدين الطوسي العالم الجليل(!!) اذ «حكي ان السلطان لما كان بوطاة حران، وقف له جمع من الفقراء القلندرية، فقال لنصير الدين الطوسي: ما هؤلاء؟ قال: فضلة في العالم، فأمر بقتلهم، فقتلوا وسأله عن معنى قوله، فقال: الناس اربع طبقات بين امارة وتجارة وصناعة وزراعة، فمن لم يكن منهم كان كلاً عليهم»[٢٥].

---

[٢٤] ابو الفلاح عبدالحي بن عماد: شذرات الذهب ج٥ ص٢٧٣
[٢٥] ابن الفوطي: الحوادث الجامعة ص٣٤٣

ان هذه المجزرة الرهيبة الدامية، التي استمرت كما اتفق اغلب المؤرخين على مدتها التي بلغت اربعين يوماً، لتدل على ان هذا العار الذي لطخ وجه الانسانية لا يمكن ازالته اطلاقاً بمجرد الاعتذار عنه، واعتباره حدثاً تاريخياً محضاً قد مضى وانقضى. وان هذه الهجمة المغولية التترية المدمرة يندى لها جبين كل انسان خجلاً، بل يشعر بالمهانة والصغار لمجرد سماع مثل هذه المجزرة التي تمت، والدماء القانية الزكية التي اهرقت وسالت من مرازيب اسطح المساكن، وجرت في الطرقات حتى صبغتها، وانحدرت الى الغدران وانسربت مع مياه الامطار التي هطلت بغزارة على اكوام الجثث التي ذبحها المغول وتركوها على الطرقات. . فجرفت سيول الامطار المنهمرة دماء هذه الجثث وانحدرت بها الى نهر دجلة، فصيرته احمر قانياً. . ولابد ان يصير ماء نهر دجلة أحمر بفعل تهريق دماء آلاف الناس المذبوحين من اهالي بغداد العظيمة المعظمة، التي اراد المغول بوصية ابن العلقمي كسر شوكتها وازالة هيبتها، لأنه لا يريد أن تكون حاملة مشعل الحضارة العربية الانسانية العطاء، الاسلامية المبادىء. . الدم. . دم المذبوحين في كل مكان. . الدم يصرخ في اسماع كل انسان للاخذ بثأر الشهداء الذين اهريقت دماؤهم بسيوف المغول التي لم تفرق بين رؤوس اهالي بغداد وان اختلفت مذاهبهم تلك التي قصفت، ولم تفرق بين الكبير والصغير، او بين المرأة والرجل، او بين الشاب والشيخ. . الكل قتلوا بسيوف المغول والتتر لأنهم عرب ولأنهم مسلمون، وليسوا ملاحدة، . . والعار يلحق كل انسان، وكل ذي سلطان في كل عصر وزمان أن اقدم على اقامة مثل هذه المجاز الرهيبة المريعة التي قام بها هولاكو. . او شن حرباً عدوانية ضد شعب أو امة تعيش في سلام وتروم السلام، وتطلب الأمان. لأن الحرب ما كانت في اي يوم من الايام سبيلاً الى الحق. . والحرب مهما كانت، ما كانت ولن تكون وسيلة لحل المشكلات والمعضلات، ولم يحارب النبي محمد (ﷺ) يوم شرع يبث الاسلام، ولم يقاتل. . بل وضع خياراً بين ثلاثة خيارات لكل من يقف بوجه الاسلام. والرسالة

المحمدية السامية. . فأما الاسلام وان ابى، فالجزية وان ابى فالقتال. . والجزية ليست جزاء، ولا عقوبة ولا غرامة. . انما هي فرض على غير المسلمين مثل الزكاة التي فرضت على المسلمين للاستفادة من هذه الأموال بنوعيها الزكاة والجزية لبيت المال للانفاق على الفقراء والمعوزين وابناء السبيل وغيرهم، واي أمر آخر تحتاجه الدولة. والجزية هي جباية لحماية من دخل الاسلام، والانفاق على كل المرافق التي باتت بيد المسلمين لأصلاحها وتنميتها وتطويرها. . والجزية كأية ضريبة تفرض على المواطنين. . فلم يكن الاسلام، ولا كان النبي محمد (ﷺ) قد رفع سيف الحرب، وهبط براية الاسلام والسلام. . انما الحرب كانت لمن يقاتل المسلمين، ومن لا يفسح الطريق بوجه نشر الرسالة المحمدية. اما من لا يقف ضدها، فأنه اما ان يسلم اي يؤمن بالرسالة المحمدية السامية، واما ان يدفع الجزية، لأنه لا يريد الدخول في الاسلام، لأنه لم يؤمن به بعد، فيبقى على دينه. والاسلام لم يكن نقضاً للاديان التوحيدية، انما جاء مكملاً، ومتمماً لها، وهو خاتم لها ايضاً. وقد دعا الاسلام الى التعايش السلمي بين ابناء الاديان التوحيدية والمسلمين ومؤاكلتهم والتزوج منهم ايضاً. وهذا ما يدل على رحابة الاسلام، ودعوة للمؤمنين به على عدم ترفعهم على الأقوام الأخرى الذين يعيشون بجوارهم او بين ظهرانيهم ويحتمون بظلال دينهم.

ومهما كانت الحرب الغازية، فلا يمكن ان تكون رسالتها او هدفها الاستباحة والتدمير والتخريب. لكن ما قام به هولاكو وجنده المغول والتتر من السبي الوحشي والاستباحة اللاخلاقية، والتخريب والتدمير اللانسانيين، تعتبر دحراً لكل القيم الانسانية الخيرة والنبيلة، فأن هولاكو وجنده المغول والتتر «استولوا من قصور الخلافة، وذخائرها على ما لا يبلغه الوصف ولا يحصره الضبط والعد. واعتزم هولاكو على احراق بيوتها بالنار فلم يوافقه اهل المملكة». . . و«هجموا دار الخلافة (اي ضربوها)[٢٦] و«قصارى القول ان كل

---

(٢٦) ابن خلدون: كتاب العبر مج٣ ص١١٠٦

ما كان الخلفاء قد جمعوه خلال خمسة قرون، وضعه المغول بعضه على بعض، فكان كالجبل على جبل، وقد احترق اكثر الاماكن المقدسة في المدينة، مثل جامع الخليفة ومشهد موسى الكاظم عليه الرحمة، وقبور الخلفاء».. و «اخيراً أوفد سكان المدينة (شرف الدين المراغي) و (شهاب الدين الزنجاني) و (الملك دل راست) الى هولاكو، وطلبوا (الامان) فصدر الامر بالتوقف من بعد ذلك عن القتل والنهب، لأن بغداد اصحبت ملكاً لنا»[٢٧] ولكن جنود التتر الذين اعلنت لهم فتح بغداد، فكان اهل بغداد «يجتمعون الى الخانات ويغلقون عليهم الابواب، فتفتحها التتر اما بالكسر واما بالنار»[٢٨].

الاستباحة

ان هولاكو وثنياً كان او مجوسياً او بوذياً، وقواده كذلك، كما كان افراد جيشه المغولي التتري، ولكن عدداً لا بأس به كان في (جيش هولاكو من المسلمين والمسيحيين ومن هؤلاء المسلمين الذين كانوا في جيش هولاكو وزيره ومرافقه في رحلته الغازية ومؤرخ مسيرة هولاكو، هو الوزير الفارسي رشيد الدين فضل الله الهمذاني الذي كان مسلماً والمفروض ان يكون مؤمناً بالرسالة المحمدية، ومن يؤمن بالرسالة المحمدية، يؤمن انه لا يجوز قتل المسلم الذي يؤدي الفروض الاسلامية، الا اذا كان زانياً مثلا او زانية ومن المحصنين ايضاً، اما الذين قتلهم المغول والتتر بقيادة هولاكو، فلم يكونوا زناة ولم يكن قتلهم عقوبة على الزنى، وكان ايضاً في جيش هولاكو ليس من التتر والمغول ايضاً، انما من الفرس المسلمين الهاربين او الهارب من الاسماعيليين الملاحدة في قلعة آلموت. وهذا هو نصير الدين الطوسي العالم الفلكي ووزير هولاكو ومشاوره في مفاوضات احتلال بغداد، وفي حصار بغداد كان هناك مسلم فارسي ايضاءهو

---

(٢٧) ابن الوردي: تاريخ ابن الوردي ج٢ ص١٩٦

(٢٨) رشيد الدين الهمذاني: جامع التواريخ مج٢ قسم١ ص٢٩٣

الوزير الفـارسي ابن العلقمي في زمن المستعصم بالله ومن قبله في زمن ابيـه المستنصر بالله . وهذا الوزير الفارسي المسلم قد غضب وحنق على الخليفة وابن الخليفة الكبير ابي بكر ، وعلى السنة الذين اعتبرهم المسببين لفتنة بغداد الكبيرة او الصغيرة التي سبقت الاحتلال المغولي وهو الذي شجع على قتل اهالي بغداد بعد ان شجع على قتل الخليفة واولاده واقاربه واعيان بغداد وقضاتها وعلمائها ، ولم يدافع حتى عن الشيعة الذين حنق من اجلهم ، ولا عن العلويين الذين يريد لهم الخلافة لكننا واستقراءوللتاريخ واحداثه لم نجده قام بذلك ، بل انه لم يحم حتى الشخص العلوي الواحد ، وهو صاحب اربل الشريف العلوي تاج الدين بن صلايا ، حينما قدمه صاحب الموصل بدر الدين لؤلؤ ، قائلا لهولاكو ، ربما يتطاول هذا العلوي للخلافة ، فأمر هولاكو بقتله . . فقتل ولم يتحرك ابن العلقمي او نصير الدين الطوسي لقتـل هذا الشريف العلوي ، حتى الهارب من قلعة آلموت الاسماعيلية بدعوى الحـرص على الاسـلام والمسلمين وحـرض هولاكـو على احتلال آلموت وتدميرها ، وهو اي نصير الدين الطوسي يرى بـأم عينيه مقتـل صاحب آلموت علاء الدين بن جلال الدين ، بعد خدعه بالنزول الى هولاكو . لم يتحرك ابن العلقمي وزير هولاكو الجديد ولم يتحرك نصير الدين الطوسي ولم يتحرك رشيد الدين الهمذاني للشفاعة للعلوي تـاج الدين بن صـلايا ، وهم ينظرون اليه يذبح وتسيل الدماء من عنقه ويقطع رأسه . فالمسألة اذن ليست قتل الخليفة العباسي لأنه اساء الى الخلافة او لم يحسن ادارتها ، ولا طمعاً في مال او جاه . . المسألة هي اسقاط الخلافة العباسية وازالة السيادة العربية بالنسبة للرتل الخامس في بغداد الذين كانوا يعملون في مؤسسة الدولة العـربية العبـاسية ، وتخريب وتدمير المدن بالنسبة لهولاكو والمغول . لأن المسلمين الفرس لم يدافعوا عن السيادة العربية وعن العرب ، ولم يدافعوا حتى عن العلويـين الهاشميـين ودفعوا القتل عن تاج الدين بن صلايا العلوي ؛ ولتكون الخلافة علوية بعد ازالة الخلافة العباسية ، مثلما ازيلت الخلافة الاموية وجعلت خلافة عباسية . وهذه

هي الحجة الكبرى التي تؤكدها في ان ابن العلقمي وجماعته من الفرس المدعين للاسلام لم يكونوا ناقمين وحانقين على الخليفة وحده انما على الخلافة العباسية العربية. . لأن سيوف هولاكو والمغول لم تفرق بين رؤوس اهالي بغداد اي ما تكون، لأنهم قتلوا وذبحوا جميع اهل بغداد من قاتل ومن قاوم، ومن لم يقاتل ومن لم يقاوم، وقد ذبح حتى الذين رفعوا المصاحف على رؤوسهم، وهم يطلبون الأمان من هولاكو والمغول، ولاشك ان سبب عدم حماية او عدم الدفاع او عدم الاستشفاع ولو للشريف العلوي ابن صلايا فقط،صاحب اربل، لكون ابن صلايا من اقارب حسام الدين بن صلايا الذي قام بالوساطة بين حاكم (درتنك). حسام الدين عكة، وبين المستعصم بالله ، اذ ان حسام الدين عكة قال: لقد قدرت هولاكو خان، وما هو عليه من كفاءة وكياسة ومهما يكن له من العنف والتهديد، فليس له عندي قدر، ولا وزن، فلو طيب الخليفة خاطري وطمأن قلبي وبعث الي بجيش من الفرسان لجمعت انا ايضاً ما يقرب من مائة الف من فرق المشاة من كرد وتركمان ولسددت الطرق في وجه هولاكو خان، ولا ادع اي مخلوق من جنده يدخل بغداد».

فالمسألة هي الخلاف السياسي، ومقاومة كل من يقف مع السلطة العربية. . مهما كان هذا المقاتل او المقاوم، ولن تكون له شفاعة، ولن يكون جزاءه الا القتل او الذبح، ليزول كل مطالب بالخلافة العربية. والا ليس من المعقول ان لا يتمكن ثلاثة وزراء فرس مسلمون من الشفاعة لشريف علوي واحد هو ابن صلايا، لا لشيء الا لمجرد احتمال كونه يتطاول الى الخلافة العربية، فلا يريد هؤلاء الوزراء الفرس ان تكون الخلافة علوية هاشمية، لأنها بالتأكيد تكون خلافة عربية علوية. وهذا لا يختلف عن كونها خلافة عربية عباسية. . لذلك لم يدفع هؤلاء الوزراء الثلاثة عن ابن صلايا التهمة ولم يحموه لأنه عربي ويريد السيادة العربية.

لم يكتف هولاكو ولا جنده المغول والتتر بالقتل، ونهب البيوت وحرقها وحرق الكتب او القائها في الاوحال والبرك ونهر دجلة ايضاً، انما امر هولاكو قواده وجنده بمداهمة المساكن واستباحة مدينة بغداد بكامها وقتل وذبح كل من يجدونه واستحياء النساء وسبيهن عذراوات او عازبات او متزوجات او مترملات، محصنات او غير محصنات، فالكل سواء نساء عربيات يلدن رجالاً عرباً. ونفذ قواد هولاكو وجنده المغول هذا الأمر من المداهمة والأستباحة والأستحياء. فكانوا يداهمون الأزقة ويدقعون الأبواب ويكسرونها او يحرقونها ويكبسون من فيها من النساء، ولا فرق بين المساكن الآهلة بالناس او غير الآهلة بالناس، فما ليس فيها نساء، فيها اموال، والاموال العسيرة على النقل تحرق. . لأن اكثر الناس قد قتلوا او هربوا واختفوا في الآبار والقنى والبساتين فلم يبق الا القليل من النساء فقام المغول بكل الأفعال التي يندى لها جبين الانسان والانسانية خجلاً وكل واحد منهم «ارتكب الفواحش مع النساء الاشراف وافتضت ابكارهن بما لا يعلمه الا الله تعالى»[٢٩]. «وقال له ـ اي لابن العلقمي ـ بعض اهل بغداد: يا مولانا انت فعلت هذا جميعه، وحميت الشيعة حمية لهم، وقد قتل من الاشراف الفاطميين خلق لا يحصون، وارتكب من الفواحش مع نسائهم وافتضت بناتهم الابكار، مما لا يعلمه الا الله تعالى»[٣٠].

لقد حدثت الأستباحة بعد ان تم قتل الخليفة المستعصم بالله واولاده وأعمامه وأعيان خلافته وكل المدافعين والمقاومين لحماية بغداد حتى بدأت تضعف المقاومة والدفاع مما شمل حتى النساء والصبيان لذلك قتل الكثير من الصبيان في

---

(٢٩) الكتبي: عيون التواريخ ج٢٠ ص١٩٤

(٣٠) الصفدي: الوافي بالوفيات ج ص١٨٤

هذه المداهمة والاستباحة لأنهم وجدوا وسيلتهم في المقاومة بضرب المغول بالأحجار الصغيرة والقصب وسعف النخيل وبكل ما تيسر من سطوح مساكنهم، حتى لو كانت قشة صغيرة، فأثار غضب هولاكو وجنده المغول فأصدر أمره بأباحة المدينة وقتل كل من يلاقيه المغول، وقرر توزيع المدينة على قواده وجندهم، بأن تكون ثلاثة ازقة لكل قائد يعبث بها ما شاء له العبث، ويفسد فيها ما شاء له الفساد قتلاً او هدماً او حرقاً واستباحة نساء ونهب اموال. ومن صور المداهمة والاستباحة، ان أحد قادة هولاكو المغول وجنده أرادوا مداهمة أول مسكن في أول زقاق من نصيبه، فظهر ان هذا المسكن لصفي الدين عبدالمؤمن بن فاخر الارموي المقرب من الخليفة المستعصم بالله، ومن خواصه. وقبل ان يحاول جند القائد المغول والتتر كسر باب المسكن خرج اليهم صفي الدين الارموي بملابس زرية، وبكل منعة اجاب القائد المغولي بأنه وجيه هذا الزقاق وأحد اكبر اعيانه، وانه المسؤول عنه، فيطلب من القائد ان يغفر لأهل هذا الزقاق ولا يعاقبهم، بالمداهمة والأستباحة لأنه سيقدم له كل ما يريد، ويمكنه ايضاً ان يداهم الأزقة الأخرى ويستبيح ما يشاء من النساء فيها، بعد ان قدم فروض الطاعة والولاء، ودعاه الى دخول المسكن، وقدم له الهدايا والحلي والمرصعات والتحف التي لم يكتف بها القائد المغولي، انما أراد المزيد، فجمع له صفي الدين الارموي من أهالي مساكن الزقاق جميعا ما تيسر لهم من الأموال والتحف والحلي، فقدمها للقائد (بانونوين)، فيقول المحامي عباس العزاوي: «قال العز حسن الاربلي في تاريخه: جلست مع عبدالمؤمن في المدرسة المستنصرية، وجرى ذكر واقعة بغداد.. قال عبدالمؤمن.. اما أخرج اليه، ففتحت الباب وخرجت اليه، وحدي، وعلي ثياب وسخة. وانا انتظر الموت، فقبلت الارض بين يديه فقال للترجمان: قل له من انت؟ أكبير هذا القوم الذي في الدرب؟ قلت: نعم! فقال اذا اردتم السلامة من الموت فاحملوا لنا كذا وكذا. وطلب شيئاً كثيراً، فقبلت الأرض مرة ثانية، وقلت: كل ما طلب الأمير

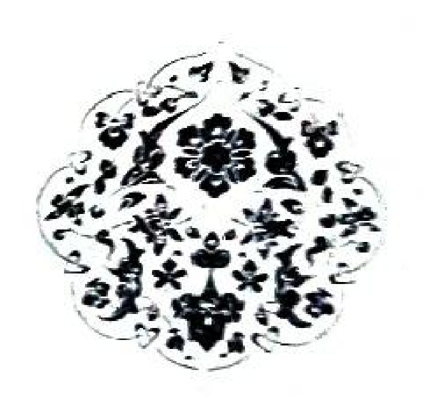
يحضر. . وقد صار كل ما في هذا الدرب ملكك. فمر جيوشك ينهبون باقي الدروب. . وانزل حتى اضيفك، ومن تريد من خواصك. . فلما فرغ من الأكل عملت له (مجلساً ملوكياً) وأحضرت له الأواني المذهبية من الزجاج الجلي، وأواني فضة فيها شراب مروق، فلما دارت الاقداح وسكر قليلا،اخترت (عشر جوق) مغاني كلهن نساء، كل جوقة تغني بملهاة، غير ملهاة الاخرى، وامرتهم فغنوا كلهم على(ساز) واحد، فارتج المجلس وطرب، وانبسطت نفسه، وثم واحدة من المغنيات اعجبته فواقعها في المجلس، ونحن نشاهده، وتم يومه في غاية الطيبة. فلما كان وقت العصر، حضر أصحابه بالنهب والسبايا فقدمت له ولأصحابه الذين كانوا معه تحفاً جليلة من أواني الذهب والفضة ومن النقد والذهب ومن الاقمشة الفاخرة شيئاً كبيراً سوى العليق»[31].

ان هذه الحادثة مخجلة جداً، وهي اكثر واكثر من المجزرة الدامية المريعة التي اوقعت ببغداد العظيمة المعظمة، لأن فيها من الأهانة اكبر من الموت بسيوف المغول والتتر، وتدل ايضاً على وضاعة صفي الدين الارموي الفنان ومن خواص الخليفة المستعصم بالله، فأذا به يتهالك الى ذرجة أن يرى بأم عينيه المغول وهم يفتضون البنات والنساء البغداديات الباكرات او غير الباكرات، استباحة بمشهد خالٍ من كل وقار،اذ انه يعترف بأنه رأى مشهد المواقعة الجنسية للقائد المحتل، هو وغيره من أعضاء الفرق المغنين والمغنيات والعازفين والمستمعين. ولا عبرة ان تكون هذه الفتاة مغنية عاهر او غير عاهر، المهم انها عراقية وعربية. . ومن أهالي بغداد المستباحة لأن صفي الدين الارموي لم يصبح بعمله هذا اكثر من قواد لجيش الاحتلال على بنات قومه ووطنه، ويقدمهن مجاناً ايضاً، وعلى حسابه الخاص، وعلى حساب كرامته لهؤلاء المغول والتتر قادة وجنداً من الذين احتلوا بلاده وقتلوا اهلها، ولا يشفع لصفي الدين الارموي حتى لو لم يكن عربياً. فهو فارسي او تركماني من منطقة بحيرة اورمية الواقعة على تخوم بلاد فارس وتركيا،

(٣١) عباس العزاوي المحامي: الموسيقى العراقية في عهد المغول والتركمان ص٢٧

وبهذا الثمن الحقير جداً، اراد ان يسلم من الذبح . . والثمن هو الكرامة . . وكرامة المرأة العراقية . . العربية التي استبيحت أمام الانظار . . ولا شك ان هذه المرأة التي استبيحت في المجلس من قبل القائد المغولي (بانـو نوين) كـانت مسلمة . . ان لم تكن عربيةفوصفي الدين الارموي، كان مسلماً ايضاً وان لم يكن عربياً . . انما هي النفوس التي ذلت واذلت ذواتها وسهلت احتلال البلاد . . الوطن . . وهونت اسقاط الخلافة العباسية، وتخريب بغداد العظيمة المعظمة، عاصمة الفكر والشعر والحضارة، ثم إزالة السيادة العربية . . ومع ذلك، وبعد ذلك لا يمكن الا ان يقال ان جميع هؤلاء الأعاجم الفرس او الغلمان السلاجقة او اي قوم آخرين، لم يكن لهم هم من أمر بغداد، وأمر العراق، وأمر الخلافة العباسية والخليفة العباسي والسيادة العربية ان لم يكن همهم الأول والأخير دعوة العدو لاحتلال بغداد واسقاط الخلافة العباسية وازالة السيادة العربية وافناء الحضارة العربية الاسلامية الانسانية الأبعاد. وبقيت الخلافة ثلاث سنوات بدون خليفة، يتعاور على تسيير امور البلاد وادارتها جلاوزة مغول او فرس . . وقد انيطت ادارة البلاد فترة قصيرة بابن العلقمي، ثم نحي عنها، بعد ان اهين اهانات اورثته الى الندامة وذلك لعدم ثقة الغزاة والفاتحين بالعملاء الذين يهيئون لهم فتح بلدانهم، والتجسس على ابناء اوطانهم لأن من لا يحترم ولا يخلص لوطنه وقادة امته المخلصين لا شك انه لن يحترم ولا يخلص لوطنه وقادة امته - فالذي يبيع وطنه وكرامة ابناء امته بثمن بخس من المال او الجاه، فهو لا يبالي ان يبيع الذين تجسس لهم واغراهم باحتلال وطنه. فهو قد خان وطنه وخان ابناء امته، فلا يمنعه اي مانع من ان يخون غير ابناء الوطن، وهم الذين لا تجمعه واياهم اية رابطة سوى رابطة المطامع وتحقيق المصالح. والغزاة والمستعمرون يعرفون امثال هؤلاء الذين يتعاملون معهم من الخونة . . لذلك لا يمكن ان يسلموهم اية مسؤوليات، خوفاً من تنكيلهم وخوفاً من خيانتهم هم ايضاً كما خانوا اسيادهم من ابناء وطنهم.

بعد زوال السيادة العربية عن العراق وخلو الخلافة لمدة ثلاث سنوات بدون خليفة وبعد وفاة السفاح هولاكو ، جعلت بغداد وهي المملكة للعراق جزء من الدولة الإيلخانية يدير شؤونها أمير إيلخاني مغولي



الفصل الثاني عشر

الخراب الحضاري . . اسقاط الخلافة

بعد ان اتم هولاكو وجيشه المغولي التتري، قتل اهالي بغداد، واستنفدوا كل رغباتهم في اهدار الدماء العربية الزكية، التفتوا الى بغداد وعمرانها ومعالمها الحضارية ووسائل تلك الحضارة الانسانية. فأمر هولاكو، قادته وجيوشه بعد القتل والذبح، نهب بغداد، فعاث جند المغول والتتر فساداً في المدينة العذراء ـ بغداد مدينة السلام، التي ما كفوا عن ضربها بالمنجنيقات الا بعد ان رأوا اكثر مساكنها واسواقها اصبحت ركاماً، حتى المساجد والجوامع والمدارس والمكتبات واشعلوا النيران فيها ايضاً، بحيث ظلت النيران تتأجج ليالي عديدة تسطع وهاجة في حلك الظلام، وقد نهب المغول كل التراث الذي امتلكه الخلفاء العباسيون واهالي بغداد من اثاث وسجاد واقمشة من حرير واقطان وكتان، وفساطيط، وسروج الخيل وافرشة وبسط و «دام القتل والنهب اربعين يوماً»[1]. وبعد هذه الاربعين يوماً من التخريب والتمزيق «عادت بغداد بعدما كانت آنس المدن كلها، كأنها خراب ليس فيها الا القليل من الناس»[2]. . و «كان الجماعة من الناس يجتمعون الى الخانات، ويغلقون عليهم الأبواب فتفتحها التتر اما بالكسر او بالنار. . ثم يدخلون عليهم»[3]. . «ولم يحدث مثل هذا الدمار والتخريب والنهب في اية بقعة من بقاع العالم قبل ذلك وربما بعده، وبمثل تلك

---

(١) القلقشندي: مآثر الانافة في معالم الخلافة ج٢ ص٩١

(٢ ـ ٣) ابن كثير: البداية والنهاية ج١٣ ص١٩٤ ـ ١٩٥

الوحشية التي فعلها هولاكو وجنده المغول والتتر، فقد ابقي النهب يعمل الى سبعة ايام»[4]. . لقد «اعتزم هولاكو على تخريب وتدمير واضرام بيوتها ناراً، فلم يوافقه اهل مملكته. . واتصل العبث بها اياماً»[5]. . وقد نهبت البلاد وسلبت من اعز ما فيها من الاموال وغيرها»[6]. . ولقد وصل الخراب والدمار في بغداد مشهداً لا تصدقه العيون. فقد كانت صورة بغداد ضاحكة مشرقة رائعة في النظر وفي السمع اذ كانت محط الانظار، ومهبط الاسفار يحج اليها كل طالب علم وطالب دين وطالب فن ولهو، فهي قصر في غابة، اذ كانت تحوطها الحدائق المكتضة بانواع الزهور، والبساتين بأنواع الأشجار، والمروج الخضر بانواع الخضار لذلك، «حدثنا قاضي تبرز وهو من ثقات المحدثين وسادات المحدثين قال: كنت لا اريم عن بلدي المألوف ولو رغبت بالألوف. وكنت ضنيناً ان افارق بلدة بتربتها، نيطت علي التمائم. الا اني كنت اسمع من جوّاب الاقطار وطراق البلاد والامصار، ان دار السلام هي كعبة الأسلام وحرم الأمام ومعدن الكرام، ودار الخلافة، ومحل الأمن من المخافة. . « . . وافتيتها بلدةً خاليةً وامةً باليةً، ودمنةً حائلةً ومحنةً جائلةً، وقصوراً خاوية، وعراصاً باكيةً. . وقد رحل عنها سكانها، وبان عنها قطانها، وتمزقوا في البلاد، ونزلوا بكل واد. وقصورها المشيدة مهدومة، ونعماؤها مسلوبة معدومة، موحشة لفقد قطانها، باكية، تسفي عليها الرياح السافية فهل نرى لهم من باقية. . فوقفت ابكيها واندب ربوعها، ومن كان فيها:

واندب اطلالها تارة | وابكي على فرقة الظاعنينا
فلو ذهبت مقلة بالبكاء | لفرط الغرام لكنا عمينا»[7]

(٤ ـ ٥) ابن العبري: تاريخ مختصر الدول ج٣ ص١١٠٦

(٦) ابن الفوطي: الحوادث ص٢٧٨

(٧) الكازروني ظهير الدين: مقامة في قواعد بغداد ص١٤ ـ ١٥. تحقيق كوركيس عواد

«وقصارى القول ان كل ما كان الخلفاء قد جمعوه خلال خمسة قرون وضعه المغول بعضه على بعض فكان كجبل على جبل، وقد احرق اكثر الاماكن المقدسة في المدينة، مثل جامع الخليفة، ومشهد موسى الكاظم عليه الرحمة وقبور الخلفاء»[٨]

ودخل هولاكو . . ودخل المغول والترليتفرجوا على الخراب والدمار الذي احله المغول ببغداد مدينة السلام العظيمة المعظمة، بعد احراق البيوت وهدمها واحراق الاسواق بما فيها من ثروات . . اقمشة وملابس واطعمة واثاث واصواف واقطان وحبوب . . ثم دمار البساتين واغراق الاراضي الزراعية، وطمر الانهار والخنادق، وتحطيم القناطر والسدود، ونبش القبور وهدم المساجد واحراق الكتب او القائها في الانهار او الأوحال، وتكديس جثث المقتولين المذبوحين وتكويم الجماجم ورصفها ور صها على هيئة تلول لأرهاب من بقى من اهالي بغداد وارعابهم . . وظلت هذه الجثث في الطرقات والشوارع «ولما انقضى الامر المقدر، وانقضت الاربعون يومًا . . والقتلى في الطرقات كأنها التلول، وقد سقط عليهم المطر فتغيرت صورهم وانتنت من جيفهم البلد، وتغير الهواء، فحصل بسببه الوباء الشديد حتى تعدىٰ وسرىٰ في الهواء الى بلاد الشام، فمات خلق كثير من تغير الجو وفساد الريح، فاجتمع على الناس الغلاء والوباء والفناء والطعن والطاعون»[٩].

ازالة معالم الحضارة

لا يشك ان هذه الحالة التي سببها المغول بقيادة السفاح هولاكو تدل على بدائية وتوحش التفكير والاساليب عند هؤلاء المغول والتتر. لأن الحروب

(٨) رشيد الدين الهمذاني: جامع التواريخ مج٢ قسم١ ص٢٩٣
(٩) ابن كثير: البداية والنهاية ج١٣ ص٢٠٣

الغازية، او الاستعمارية تقوم بعملية الاكتساب والاستفادة واستنزاف الخيرات وموارد البلد، دون محاولة القضاء او افناء او تدمير تلك الموارد والخيرات، او تحطيم وسائل انتاجها. لكن الغزو المغولي اثبت جدارته الوحشية في عملية التخريب الانتقامية، ليس الا، وان هؤلاء القوم وقائدهم هولاكو وقادتهم الصغار او الثانويين لا يدركون اي معنى من معاني المدنية والحضارة والتحضر والتمدن. والذي يؤسف له اشد الأسف ان تحل هذه الموجة الانتقامية التخريبية الآتية من الشرق، وتكتسح امامها كل معالم الحضارة الانسانية، وتدمر اكبر مركز حضاري انساني في ذلك الزمان، وما يعتبرلحدالوقت الحاضر احد اهم المراكز الثقافية والحضارية في العالم. لأن بغداد بالذات كانت هي هذا المركز الحضاري، الذي تميز بالاشعاع الفكري والثقافي والفني على الانسانية جمعاء.
فلقد انطلق من بغداد بالذات ليس المئات من الشعراء من الكتاب والمؤرخين والجغرافيين والادباء والمصنفين والعلماء والاطباء والفلاسفة، انما الألوف المؤلفة منهم، وقد كتبوا او الفوا ودونوا وترجموا الألوف المؤلفة ايضاً من المصنفات والتآليف والدواوين التي ما تزال لحد هذا الوقت تمثل اعظم ثروة فكرية وثقافية ابداعية؛ بل ظلت الكثرة الكاثرة من تلك الثروة الفكرية والثقافية الأبداعية مرتكزاً ومعتمداً ومستنداً للثقافة المعاصرة، حيث كانت هذه الثروة في متناول ايدي علماء اوربا وجميع طلاب العلوم فيها لمدة اربعة قرون بعد احتلال بغداد واسقاط الخلافة العباسية وازالة السيادة العربية، اضافة الى ما كانت تشعه من ثقافة طيلة خمسة قرون قبل ذلك ايضاً؛ اي ان الثقافة العربية الأسلامية قد سيطرت على الفكر العالمي ورفدت العلوم الانسانية طيلة تسعة قرون كاملة، ونقلت الانسانية جمعاء من دياجير ظلمات الجهل والأمية والاملاق الفكري، الى أنوار المعرفة والعلم والغنى الفكري. وهذا ان يدع ؛ الى الفخر، فأنه لا يدعونا الى الغرور والتعالي والاستكبار، لأن العلوم والمفاهيم التي ابدعها الفكر العربي، كانت ذات عطاءات نبيلة لخدمة الانسانية ولم تكن فردية انانية، او قومية

احتكارية للامة العربية وحدها التي احتضنت الرسالة المحمدية ورفعت مبادئه راية للسلام بين كل الشعوب.

لا شك اذن ان يكون تخريب بغداد وتدميرها من قبل هـولاكو وجيش المغول والتتر، مثلما فعل قبله قمبيز الفارسي وجيوشه المجوسية بوادي الرافدين وتخريب العواصم الرافدينية الى درجة تغريق مدن بابل وهدم قلاع نينوى وآشور وهدم اسوارها وقواعد بنائها حتى اسس دورها، لكي لا تقوم لها قائمة،انما هذا العمل لا يتسم بأية سمة من سمات الانسانية ومعانيها النبيلة في العطاء والبناء اللتين اتصفت بهما الثقافة والحضارة الرافدينية فيما قبل، والعربية الاسلامية فيما بعد. لذلك فأن تخريب هذا المركز الثقـافي والحضاري ذي العـطاء الانساني الهادف النبيل لا يعني الا ان هؤلاء المخربين المدمرين من المغول والتتر بقيادة السفاح هولاكو، لا يسجلون الا وصمة عار في جبينهم وجبين جيوشهم وجبين شعوبهم التي كانت تزودهم بالمقاتلين، وكذلك وصمة عار في جبين كل من تواطأ معهم، او هادنهم او مهد لهم السبيل للاحتلال والقتل والذبح والتخريب في هذا المركز الاشعاعي لحضارة من اعظم حضارات الانسانية المعطاء في العالم.

وانحنت في بغداد المنائر، واخذت احجارها تتسـاقط حجرة حجـرة، وتصـوحت الاشجار، واخذت اوراقها تتقصف ورقة ورقة، وتيبست النخيل وتلوى سعفها سعفة سعفـة، وهبت الريـح السموم وسـدت نوافـذ البيوت، وتصاعد الغبار، فسد عين الشمس، واظلمت الدنيا. . محمرة. . وتقـطعت الانفاس. مبهورة واختلطت الدموع بالتراب، وجرت الانهار بفيض من الدموع والدماء، وطفت الجثث على صفحة مياه الأنهار. . دجلة والصراة. . والجثث الأخرى ملقاة على أرض الشوارع والدروب، والغربان المحومة، والبزاة والحداة تنهش تلك الجثث. . ثم. . تصـدعت الأسـوار، وانبثقت الأنهار، ومـاجت الأمواه في الحارات والدكاكين والاسواق والبيوت، وانقطع الأذان في المآذن، وتوقفت الصلوات في المساجد والجوامـع، وانطلق الصراخ والنحيب وخفتت

الأنوار في كل مكان حتى حوانيت العطارين والبزازين، وتكسرت قوارير العطور وفاحت عطورها في الطرقات والدروب والأزقة واختلطت بنتونة جيف القتلى المذبوحين. . ولا احد يذهب للصلاة. . فيصلي في مسجد او جامع. الكلاب وجند المغول وحدهم هم الذين كانوا يسعون في طرقات بغداد وحاراتها وازقتها. . يجوبون الليل والنهار. ولا احد يجسر على القول ان ابن العلقمي ونصير الطوسي الفارسيين كانا يسمعان الأذان من مآذان المساجد والجوامع. .
ومن يجسر على القول ان ابن العلقمي ونصير الدين الطوسي قد صليا في أحد المساجد او الجوامع التي خفتت فيها الانوار. . في صلاة عصر او مغرب او عشاء. . او في صلاة الجمعة. . وهل صلى ابن العلقمي او الطوسي او خطب في المصلين في جمعة من الجمع. . ومن الذي قتل أذن. . ومن بقي حتى يصلي. .
ان كان رشيد الدين الهمذاني وزير هولاكو نفسه يقول، ان سيوف المغول والتتر كانت تحصد رؤوس اهالي بغداد لمدة اربعين يوماً، فأية رؤوس كانت تحصدها سيوف المغول والتتر اذا لم تكن قد حصدت رؤوس رجال بغداد ونسائها وشيوخها وأطفالها. فلم يبق بعد هذه السيوف وتحت هذه السيوف من يصلي ويشهد الجمعة الجامعة. . ويسمع الخطبة. . ولا يمكن ان نكذب رشيد الدين الهمذاني ولا يمكن ان نكذب من نقل عن رشيد الدين الهمذاني من المؤرخين. .
ولا يمكن ان نكذب مئات الناس. . فقط المئات من الناس الذين بقوا على قيد الحياة، مختفين في الاقنية والآبار والبساتين او تحت اكداس التبن او الحطب او بين البهائم، او من هربوا في ليلة ليلاء. فرووا بعدئذ ما شاهدوا. . لأنهم لم يسمعوا. . وممن يسمعون. . انهم وحدهم الناجون. . وعدد ضئيل من الأسرى الذين كان احدهم ابن الفوطي الذي صار مؤرخاً، فأرخ لبغداد ومجزرتها الدامية المريعة، بعد ان شاهدها وهو صبي، لما يتجاوز الثالثة عشرة من عمره، ومن عاصره في الأسر ايضاً من أمثال عبدالعزيز بن ابراهيم الخالدي سبط المستعصم بالله الخليفة العباسي، وعميد الدين سعيد بن محمد السلمي

والمدارس، والمكتبات لطلاب العلم. . فلم تسلم هذه الكتب والمجلدات وصحف القرآن من الحرق والرمي في مياه الأنهار، ولا يمكن لأي أحد ان يقول ان هولاكو وجنده المغول قد احترموا المساجد والجوامع والمدارس والمكتبات والكتب، ومن لا يحترم هذه كلها، فليس من المعقول ان يهملها، بل من المعقول جداً، ان يمزقها ويحرقها ويرميها في مياه الأنهار، سواء اسودت عندئذ صفحة مياه النهر ام لم تسود. . المهم انهم لم يتورعوا عن تمزيقها ورميها في الأنهار. . والكتب والمكتبات والمدارس والجوامع والمساجد لم تجد لها قيمة او احتراماً في عرف هولاكو والمغول، لأنهم لم يكونوا محبين للعلم والمعرفة لأن المحب للعلم والمعرفة لا يجرؤ على قتل الناس وذبحهم مثلما تذبح الشياه دون تفريق بين الرجال والنساء او الشيوخ والاطفال، والمقاتلين وغير المقاتلين.

ان الكتب اكبر مظهر من مظاهر الحضارة ووسائل نقلها وتطويرها . . فلم يجد هولاكو والمغول والتتر وابن العلقمي ونصير الدين الطوسي ان القضاء على الدولة العباسية والسيادة العربية وقيم الاسلام الرفيعة، الا بالقضاء على مظاهر الحضارة العربية الاسلامية المتمثلة بالكتب. . المجلدات التي اذهل منظرها عقول هولاكو والمغول، وهي على ارفف المساكن والمدارس والمكتبات والمساجد والجوامع وربط الصوفية، فقضى على هذه المظاهر ليقضي على السيادة العربية وانتشار الاسلام. . لأن الانسان العربي باقٍ يمكنه ان ينشر الحضارة والدين اذا ما توفرت مظاهرها فكان القرار القضاء على هذه المظاهر فلقد «القيت كتب العلم التي كانت بخزائنهم جميعاً في دجلة، وكانت شيئاً لا يعبر عنه، مقابلة في زعمهم بما فعله المسلمون أول الفتح في كتب الفرس وعلومهم»[11].

وهنا بانت الحقيقة. . فلقد احرق هولاكو والمغول الكتب العربية، انتقاماً للكتب الفارسية التي أحرقها المسلمون في أول الفتح الاسلامي. . وهولاكو والمغول لا يعرفون هذه الواقعة بالطبع، انما قد عرفوها من الفرس. . فالفرس

---

(١١) ابن خلدون: كتاب العبر ج ص١١٠٦

هم الذين اثاروا هولاكو والمغول لحرق الكتب وتغريقها في مياه الانهار . . وهم لم يرعوا حرمة الكتب فحتى اذا «خرج النساء والصبيان وعلى رؤوسهم المصاحف والالواح، فداستهم العساكر وماتوا اجمعين»[١٢]. فلا شك ان هذه الوحشية لا يوجد اقسى منها حينما تدوس حوافر الخيول المغولية النساء والاطفال وعلى رؤوسهم المصاحف والالواح، وهم يطلبون الأمان والسلام ويعلنون لهم باسم المصاحف والالواح ان يكفوا عن قتلهم وسبيهم وتحريق دورهم وتخريبها، فلم يكفوا. لأنهم متعطشون للدماء، ناقمون على العرب. . حاقدون على الحضارة العربية الاسلامية العباسية الانسانية العطاء وعلى بغداد ذات العصر الذهبي وعلى دور علمها ومدارسها ومكتباتها وكتبها. والمدينة التي فيها مثل هذه الكتب النفيسة وبمثل هذه الأعداد الجمة بحيث شكلت اكوامها تلالاً، أحرقت في الأزقة والأسواق، بعد ان تعب من حملها جنود المغول لألقائها في نهر دجلة، لا شك انها مدينة عظيمة في بلاد حضارية راقية معطاء.

يقول ابن تغري بردي: «واحرقت كتب العلم التي كانت بها سائر العلوم والفنون»[١٣] كلف مع كل ذلك لم تنته بغداد، بل ظلت مناراً للعلوم والمعارف وظلت وماتزال تصدح بحضارتها الانسانية الاصيلة.

---

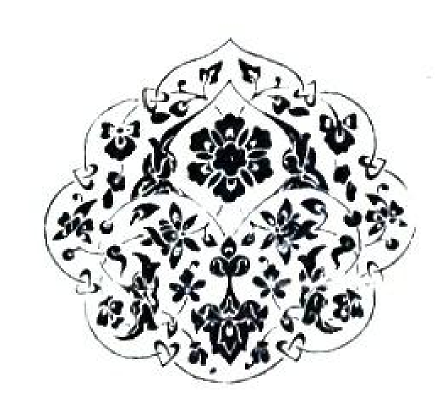
(١٢) ابن خلدون: كتاب العبر ج ص١١٠٦

(١٣) ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة ج٧ ص٥١

المصادر

١ ـ الخطيب البغدادي	تاريخ بغداد
٢ ـ البكري	المسالك والممالك
٣ ـ ابن العبري	تاريخ مختصر الدول
٤ ـ ابن الجوزي	المنتظم في تاريخ الامم
٥ ـ ابن الجوزي	مناقب بغداد
٦ ـ ابن الاثير	الكامل في التاريخ
٧ ـ ابو الفداء	المختصر في تاريخ البشر
٨ ـ ابن الطقطقي	الفخري في الآداب السلطانية
٩ ـ ابن فضل الله العمري	مسالك الابصار
١٠ ـ ابن خلكان	وفيات الاعيان
١١ ـ السيوطي	تاريخ الخلفاء
١٢ ـ البلاذري	فتوح البلدان
١٣ ـ الصفدي	الوافي بالوفيات
١٤ ـ ابن رسته	الاعلاق النفيسة
١٥ ـ ابن مسكونية	تجارب الامم
١٦ ـ الجهشياري	كتاب الوزراء والكتاب
١٧ ـ ابن عنبه	عمدة الطالب في انساب آل ابي طالب
١٨ ـ ابن الفوطي	الحوادث الجامعة
١٩ ـ القلقشندي	صبح الاعشى
٢٠ ـ ابن الرسولي	العسجد المسبوك
٢١ ـ اليونيني	ذيل مرآة الزمان
٢٢ ـ الكتبي	عيون التواريخ

٢٣ ـ ابن الوردي	تاريخ ابن الوردي
٢٤ ـ ابن طيفور	بغداد
٢٥ ـ المقريزي	كتاب السلوك لمعرفة دول الملوك
٢٦ ـ ابن عماد الحنبلي	شذرات الذهب
٢٧ ـ ظهير الدين الكازروني	مقامة في قواعد بغداد في الدولة العباسية
٢٨ ـ اليعقوبي	البلدان
٢٩ ـ الحموي	معجم البلدان
٣٠ ـ رشيد الدين الهمذاني	جامع التواريخ
٣١ ـ عباس العزاوي	الموسيقى العراقية في عهد التركمان
٣٢ ـ ريتشارد كوك	بغداد مدينة السلام
٣٣ ـ جورج لسنر	خطط بغداد
٣٤ ـ جورج مقدسي	خطط بغداد
٣٥ ـ ابن الفقيه	بغداد مدينة السلام

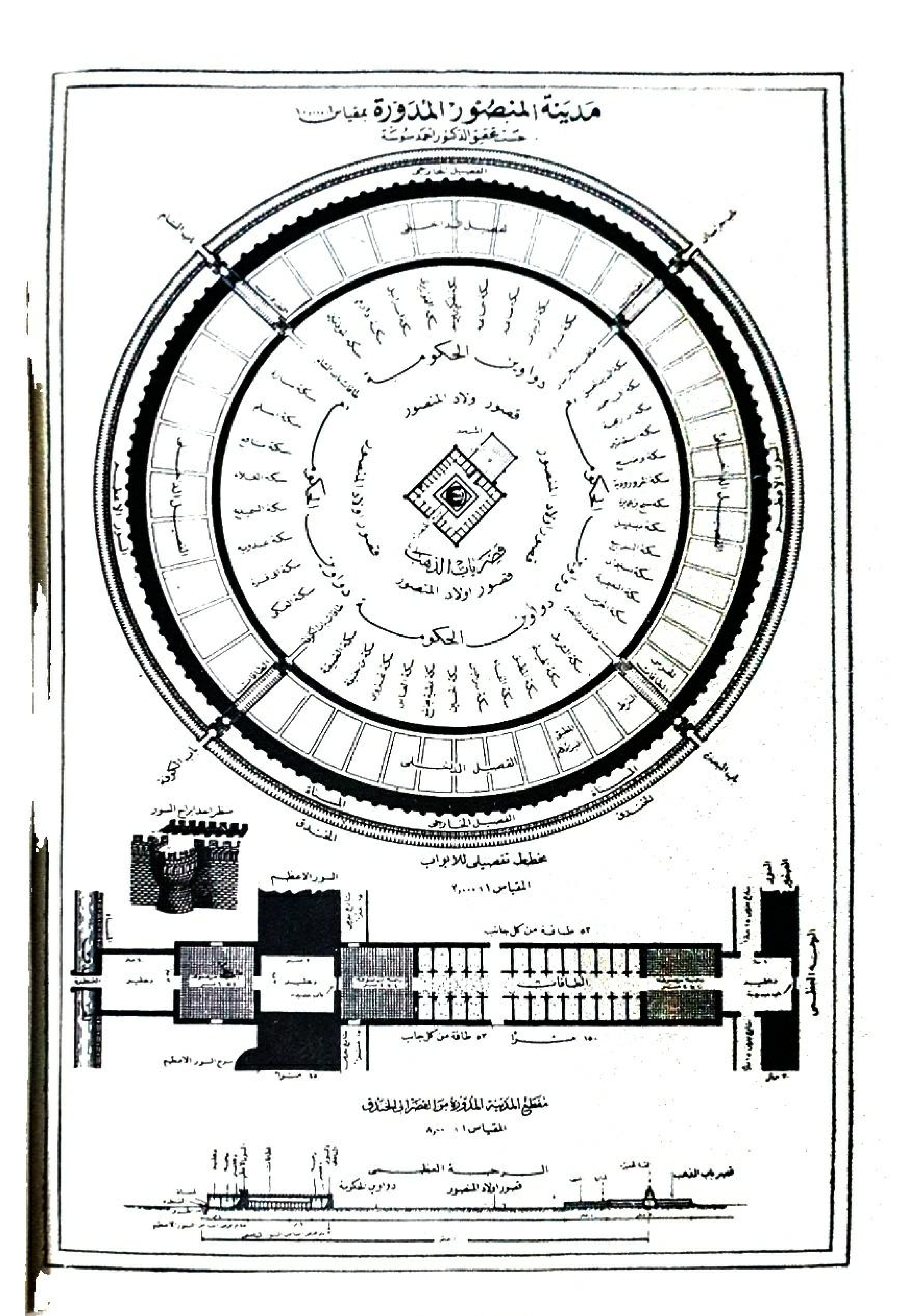


المراجع

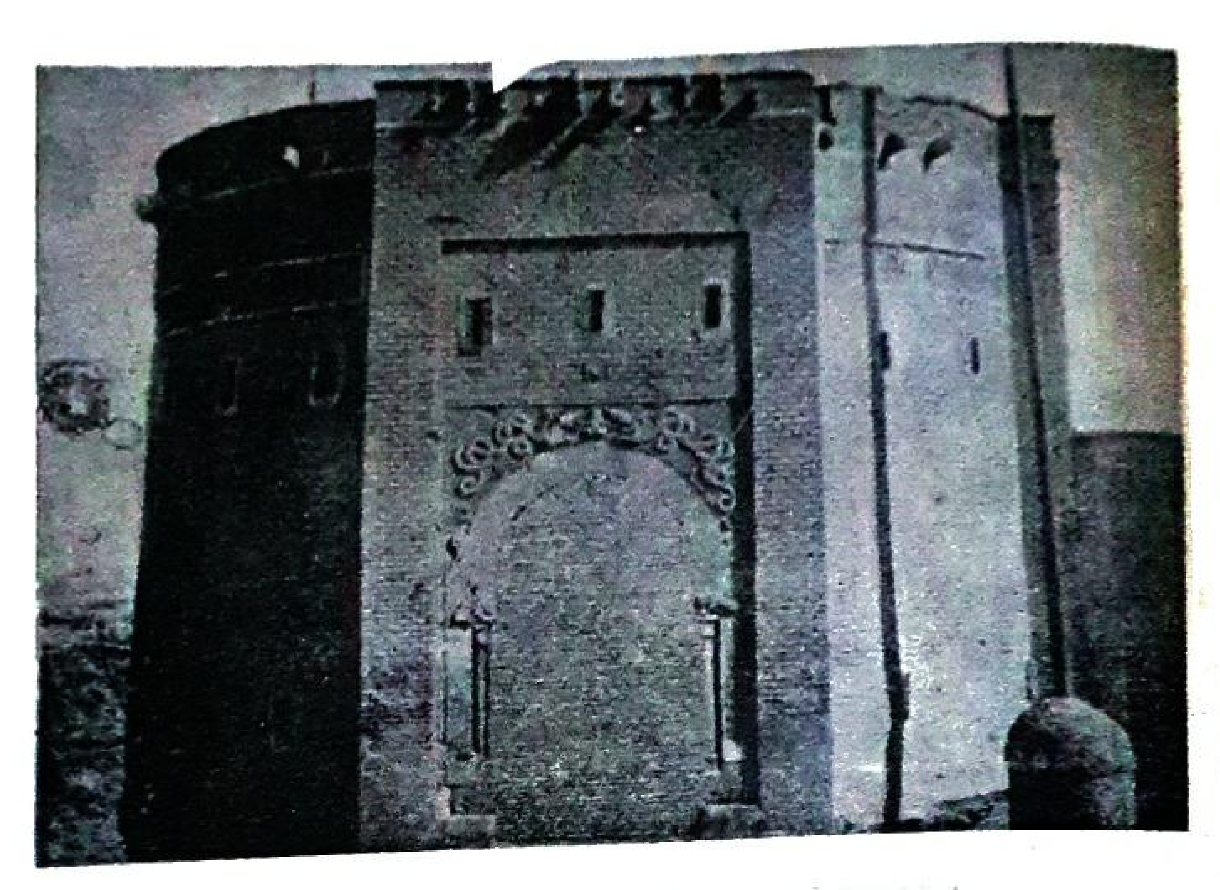
١ ـ ابن الساعي — الجامع المختصر في عنوان السير
٢ ـ ابن الوردي — تتمة المختصر في تاريخ البشر
٣ ـ الصابي — نكت الهميان
٤ ـ ابو فضل الكاتب — بغداد في تاريخ الخلافة العباسية
٥ ـ ابن طاووس — كشف الحجة لثمرة المهجة
٦ ـ ابن عبدالحي عبد المؤمن — مراصد الاطلاع على اسماء الامكنة والاصقاع
٧ ـ السيوطي : — حسن المحاضرة
٨ ـ القلقشندي — نهاية الارب في معرفة قبائل العرب
٩ ـ السبكي — طبقات الشافعية
١٠ ـ ابن تغري بردي — النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة
١١ ـ ابن الصابوني — تكملة اكمال الكمال
١٢ ـ ابن عربشاه — عجائب المقدور في اخبار تيمور
١٣ ـ التنوخي — نشوار المحاضرة واخبار المذاكرة
١٤ ـ الهمذاني — تكملة تاريخ الطبري
١٥ ـ القفطي — تاريخ الحكماء
١٦ ـ اليعقوبي — التاريخ
١٧ ـ مطهر بن طاهر المقدسي — البدء والتاريخ
١٨ ـ ابن الابار — تكملة الصلة
١٩ ـ الرشيدي — الذخائر والتحف
٢٠ ـ الذهبي — العبر في خبر من غبر

٢١ - الذهبي	سير اعلام النبلاء
٢٢ - الذهبي	فوات الوفيات
٢٣ - حمدان الكبيسي	أسواق بغداد
٢٤ - د. صالح احمد العلي	بغداد/ الجانب الغربي(١)
٢٥ - د. صالح احمد العلي	بغداد/ الجانب الغربي (٢)
٢٦ - فان فلوتن	السيادة العربية
٢٧ - بشير فرنسيس	بغداد: تاريخها وآثارها
٢٨ - د. مصطفى جواد	بغداد: عرض تاريخي مصور
٢٩ - د. مصطفى جواد واحمد سوسه	دليل خارطة بغداد
٣٠ - سعاد العمري	بغداد كما وصفها السواح الاجانب

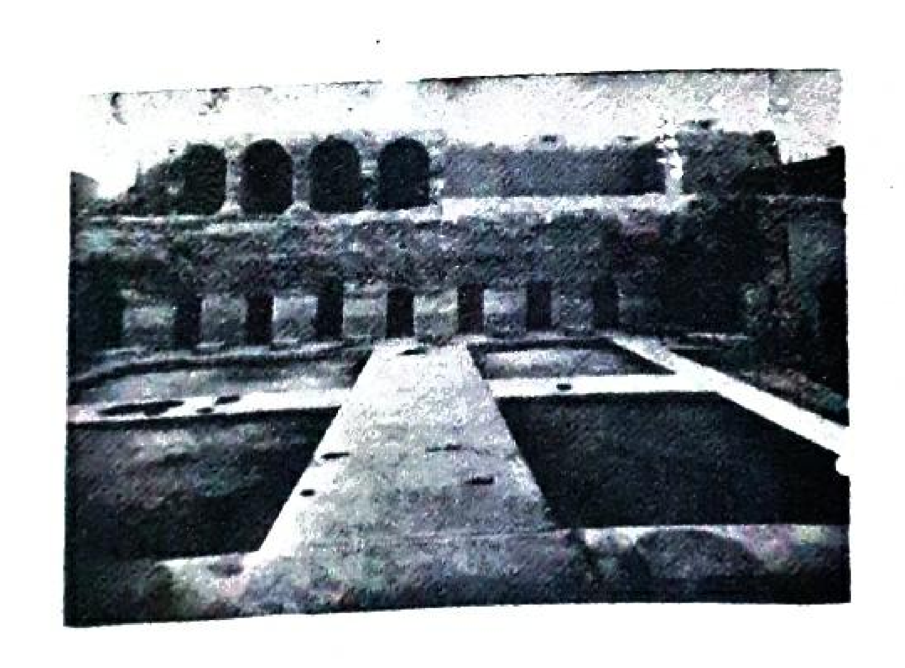




مدينة المنصور المدورة بمقياس ١ : ١٠٠٠٠
حسب تحقيق الدكتور احمد سوسة
الفصيل الخارجي
دواوين الحكومة
قصور اولاد المنصور
المسجد
قصر باب الذهب
دواوين الحكومة
قصور اولاد المنصور
باب الكوفة
باب البصرة
المسناة
الفصيل الداخلي
الفصيل الخارجي
الخندق
الخندق
منظر احد ابراج السور
مخطط تفصيلي للابواب
المقياس ١ : ٢٠٠٠
السور الاعظم
٥٢ طاقة من كل جانب
الطاقات
٥٢ طاقة من كل جانب
١٥٠ مترا
الرحبة العظمى
مقطع المدينة المدورة من القصر الى الخندق
المقياس ١ : ٨٠٠٠
الرحبة العظمى
قصر باب الذهب
قصور اولاد المنصور
دواوين الحكومة



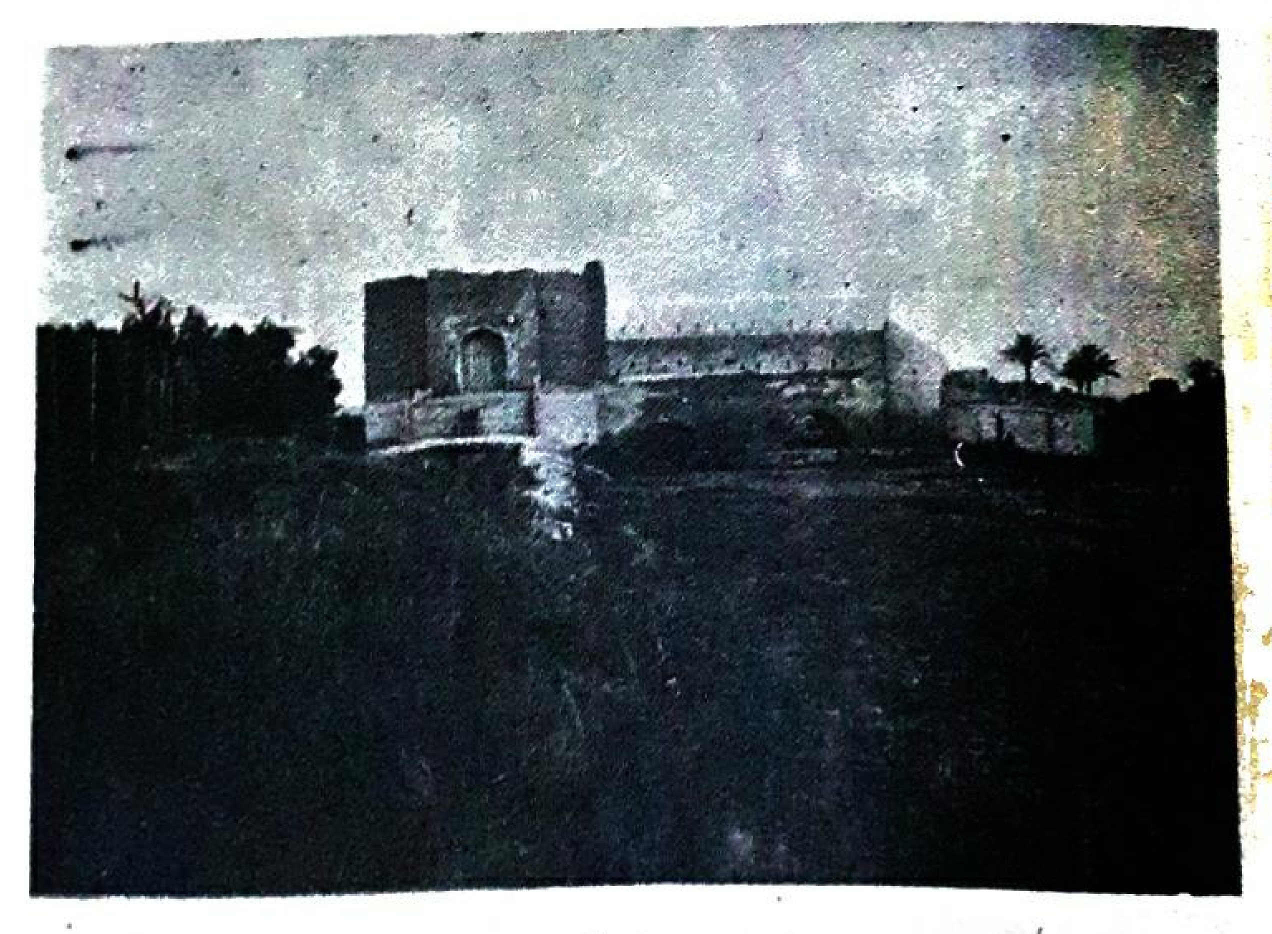
باب الحلبة (باب الطلسم) جدد فى عهد الناصر لدين الله





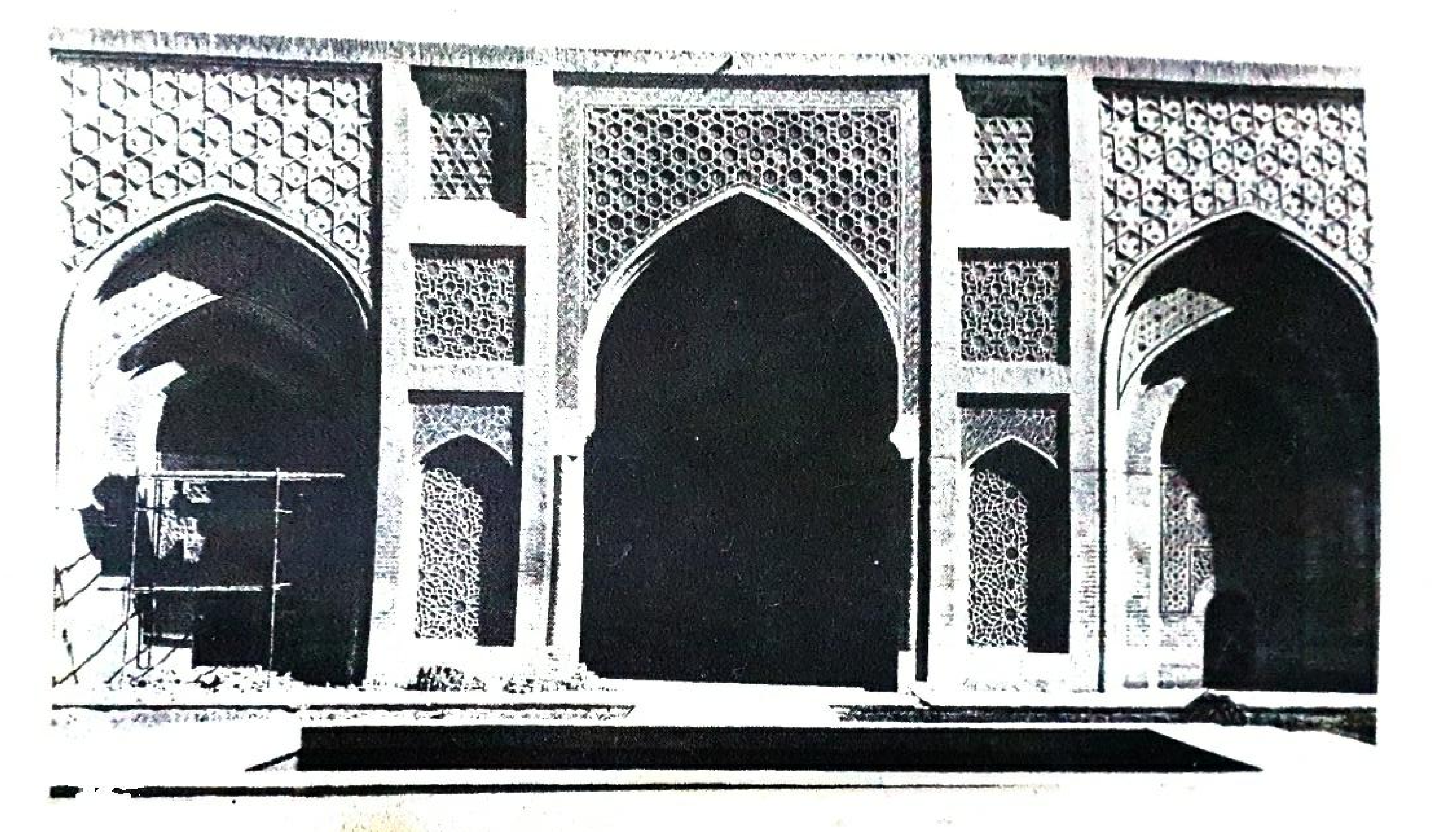
مدخل بغداد عند باب المعظم سنة ١٨١٦



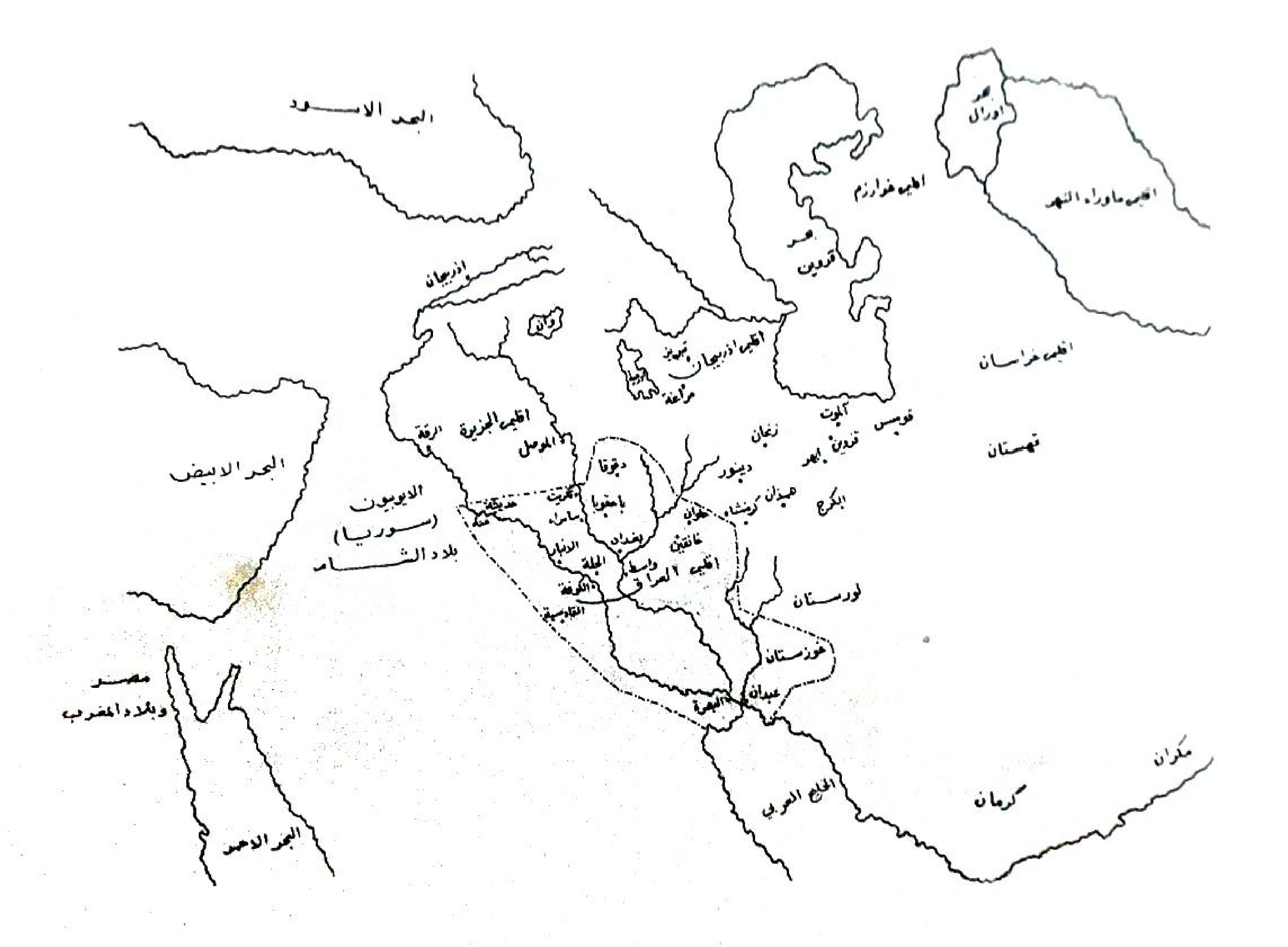


باب الظفرية (الباب الوسطاني)

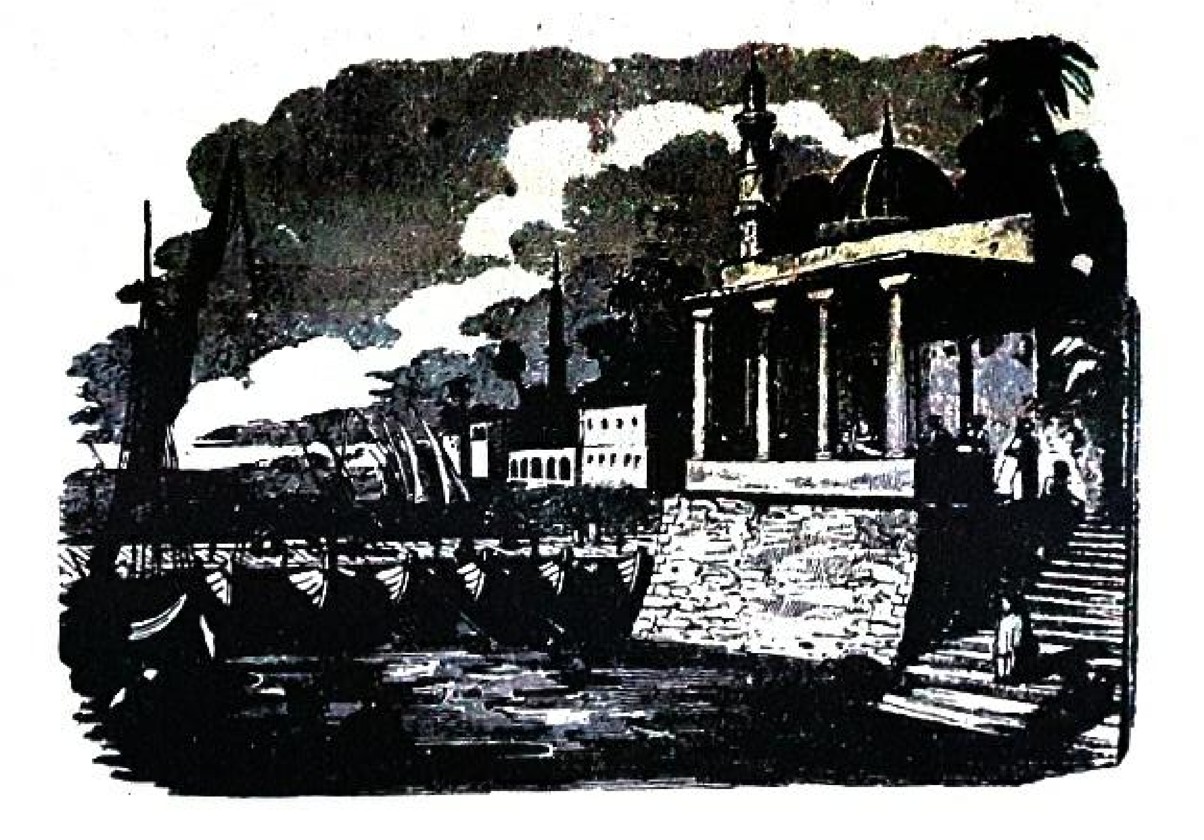




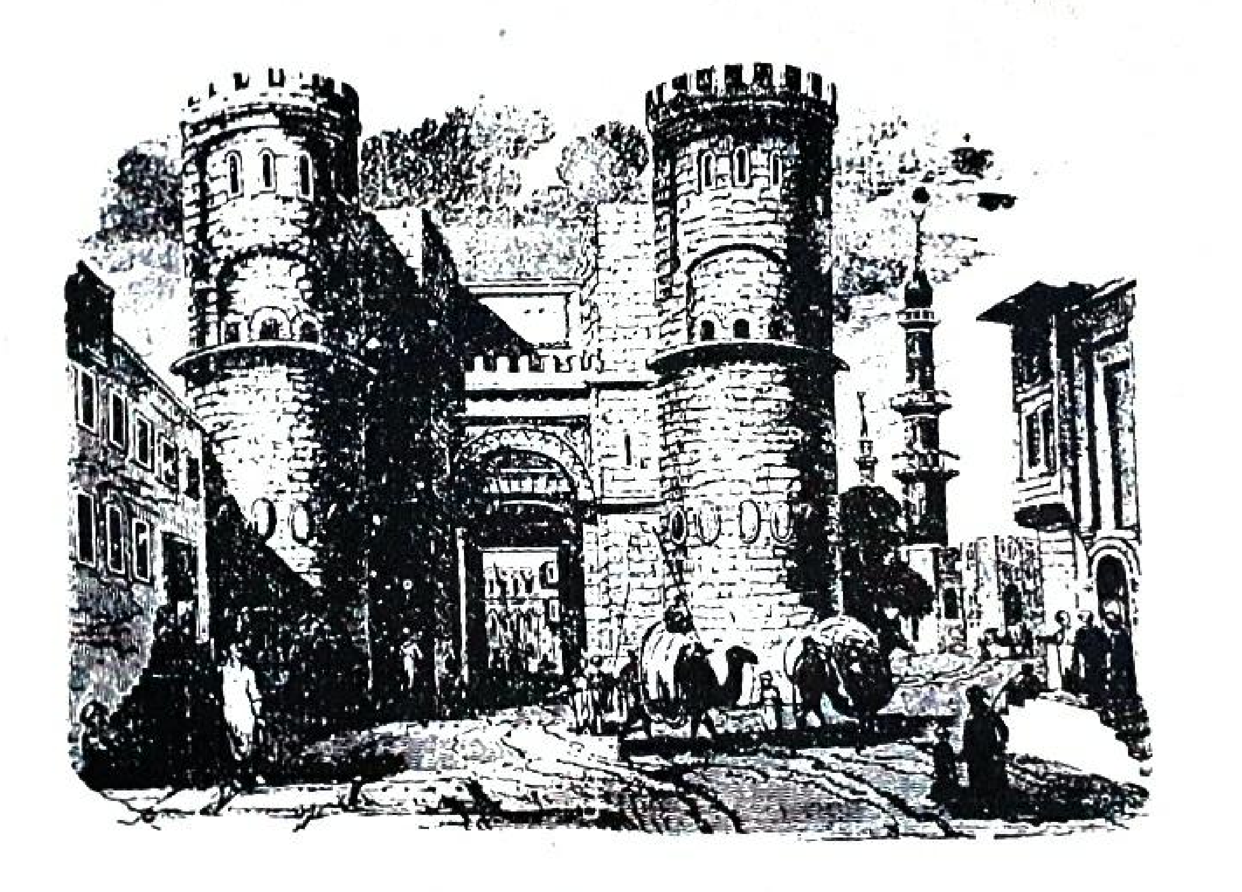
أحدى واجهات المدرسة المستنصرية أثناء الصيانة


البحر الاسود
اقليم ماوراء النهر
بحر اورال
اقليم خوارزم
بحر قزوين
اذربيجان
اقليم اذربيجان
تبريز
مراغة
اقليم خراسان
قوميس
الموت
قزوين
ابهر
زنجان
قهستان
البحر الابيض
الرقة
اقليم الجزيرة
الموصل
دقوقا
باجسرا
دينور
همذان
كرمنشاه
الكرج
حلوان
خانقين
الايوبيون
(سوريا)
بلاد الشام
تكريت
سامراء
بغداد
الانبار
الحلة
واسط
اقليم العراق
الكوفة
القادسية
لورستان
خوزستان
عبدان
البصرة
مصر
وبلاد المغرب
البحر الاحمر
الخليج العربي
كرمان
مكران

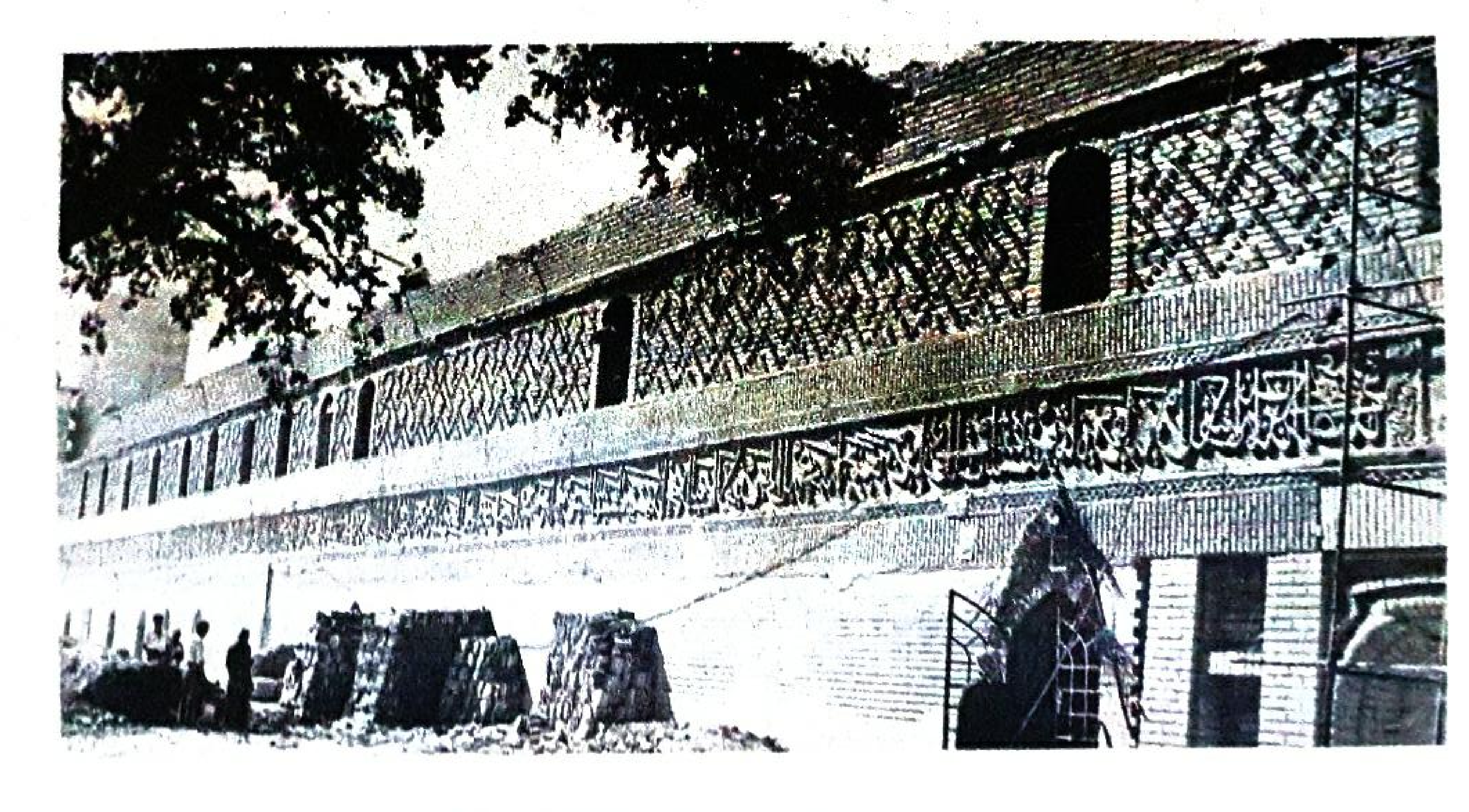




جسر بغـــداد سنة ١٨١٦



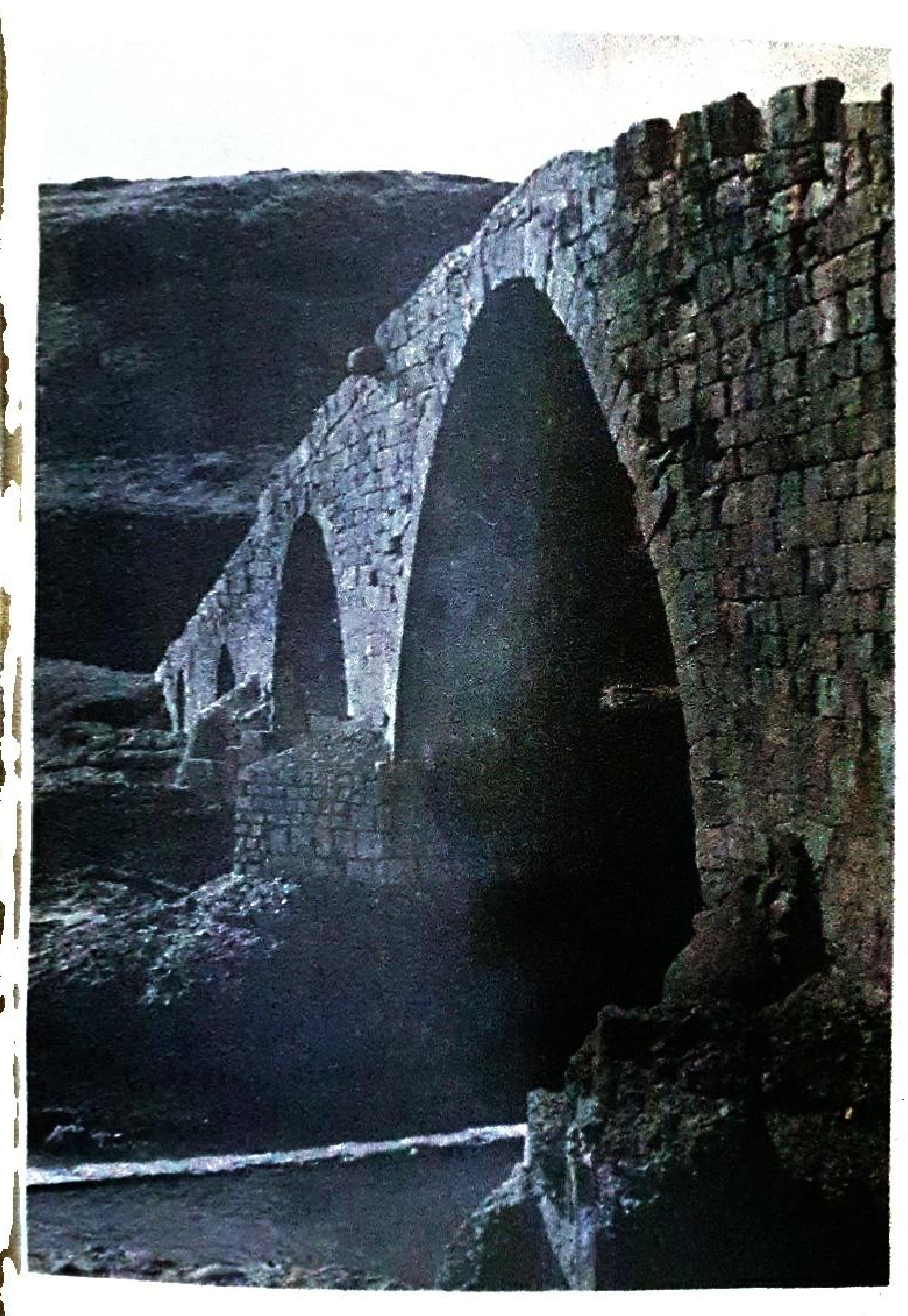
باب المعظم كما رسمها أحد الرحالة الأوربيين



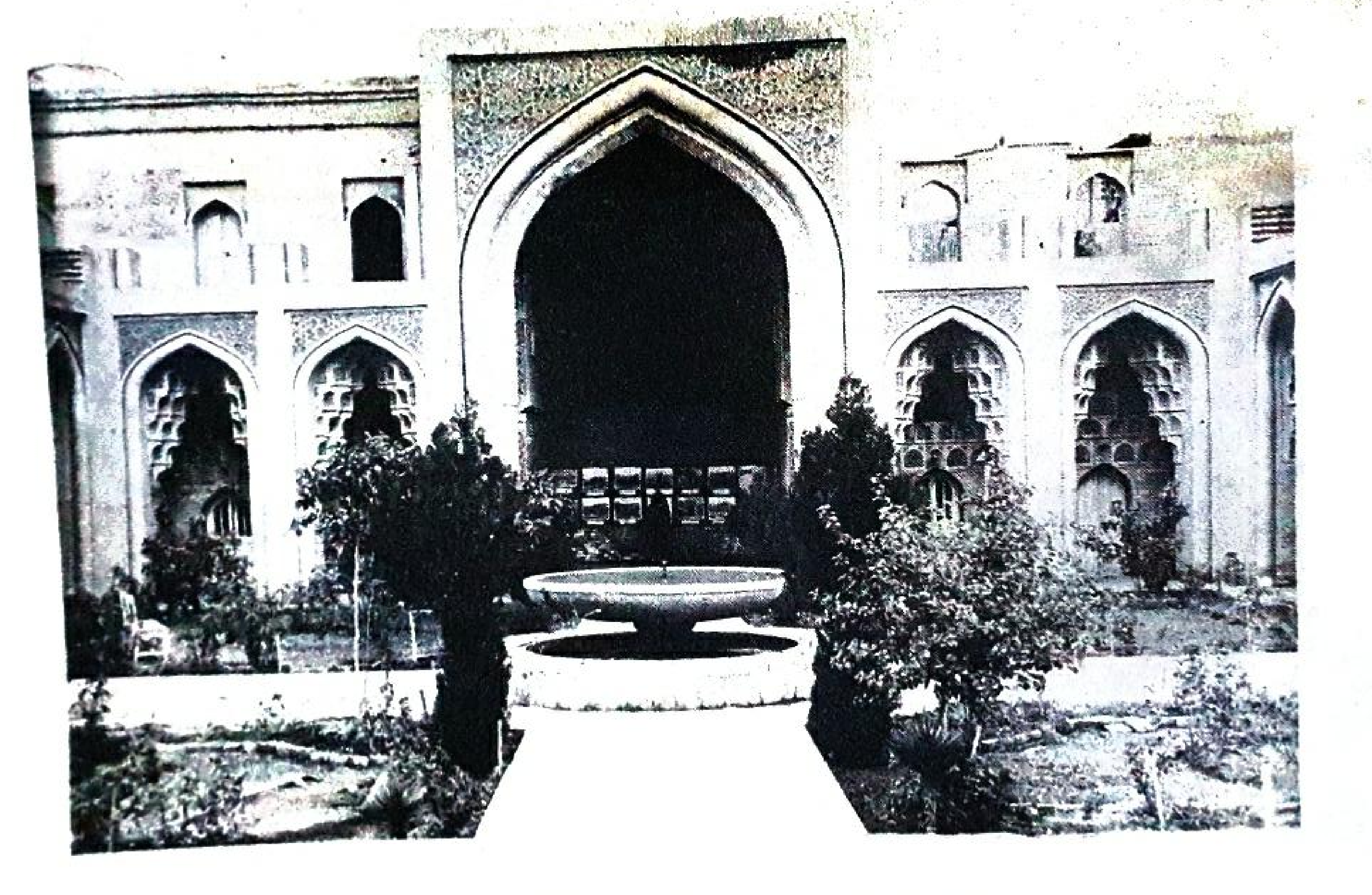
واجهة المدرسة المستنصرية المطلة على نهر دجلة



بغداد في منتصف القرن التاسع عشر



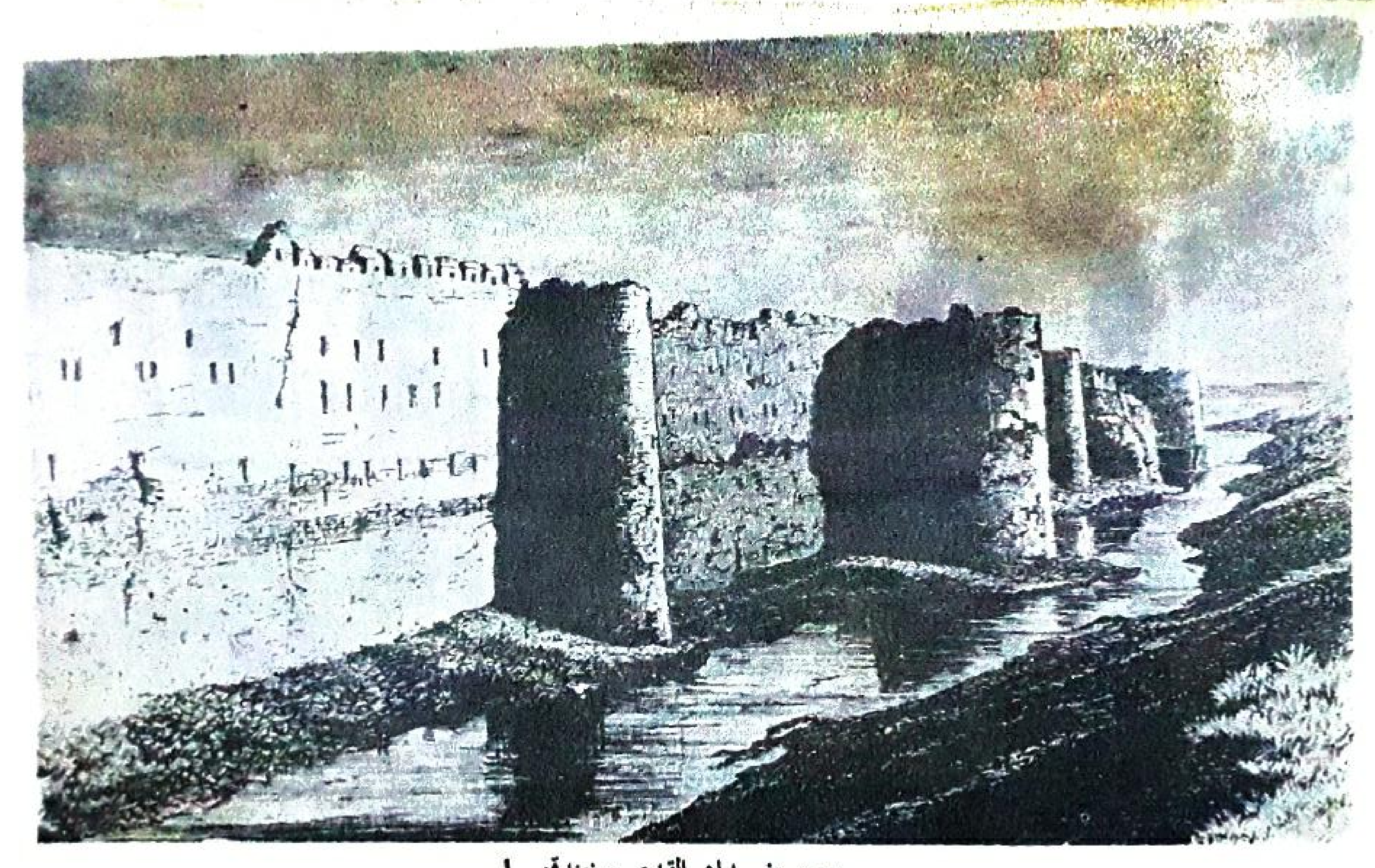
الجسر الذى عبرت عليه جيوش هولاكو والمغول



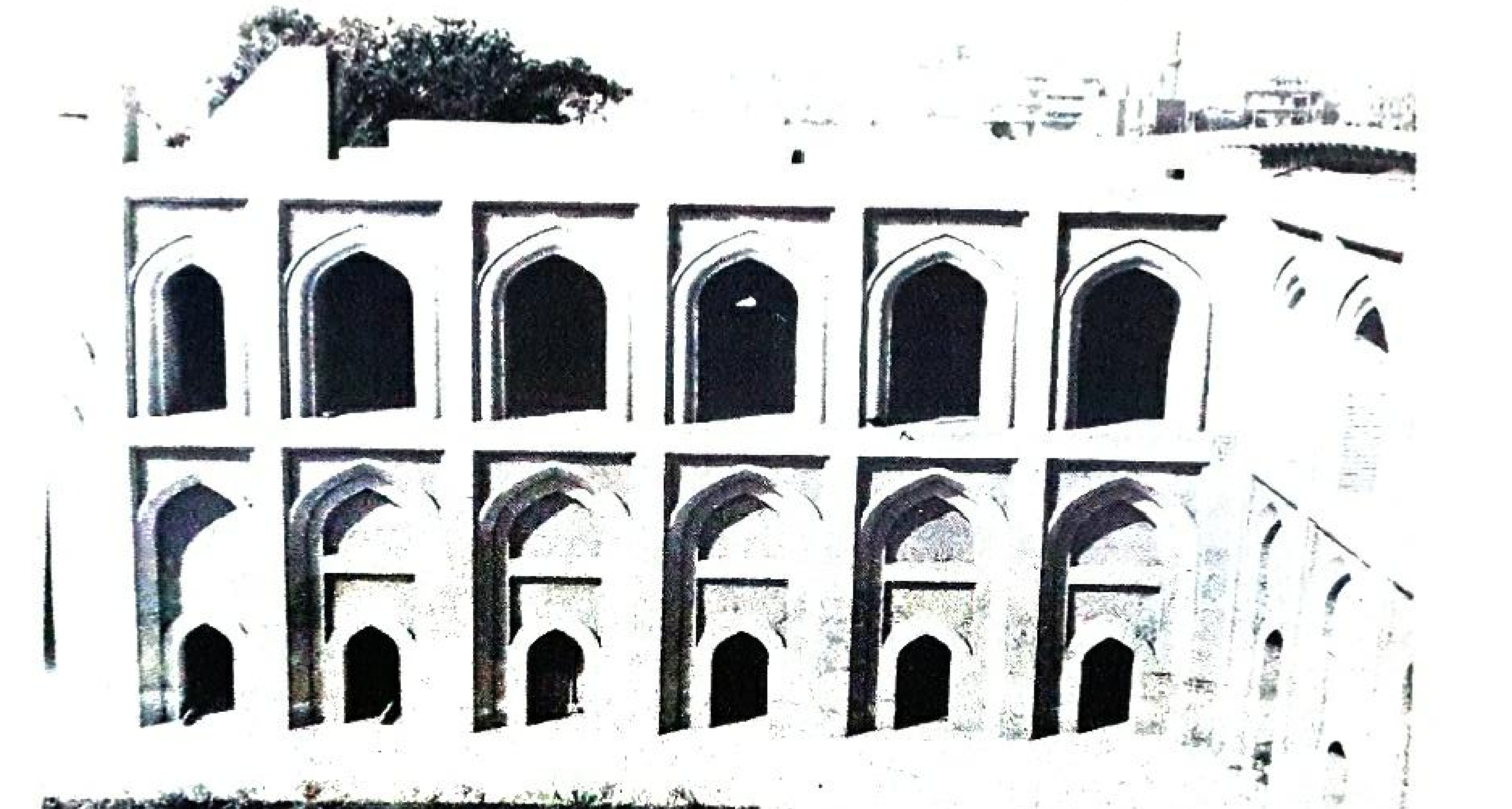
المدرسة المستنصرية بعد الصيانة



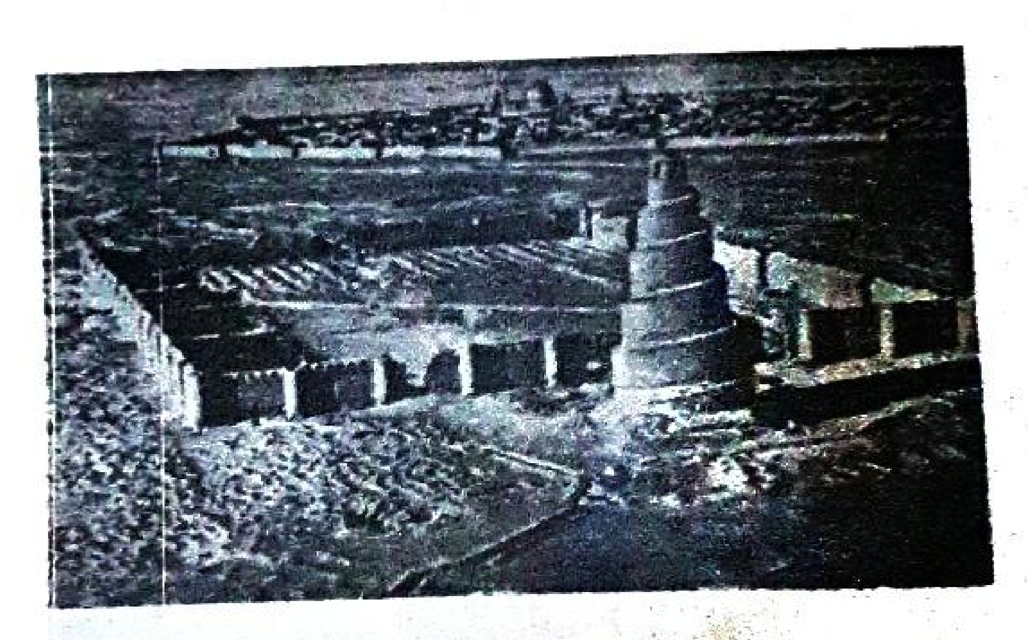
بقايا القصر العباسي في بغداد



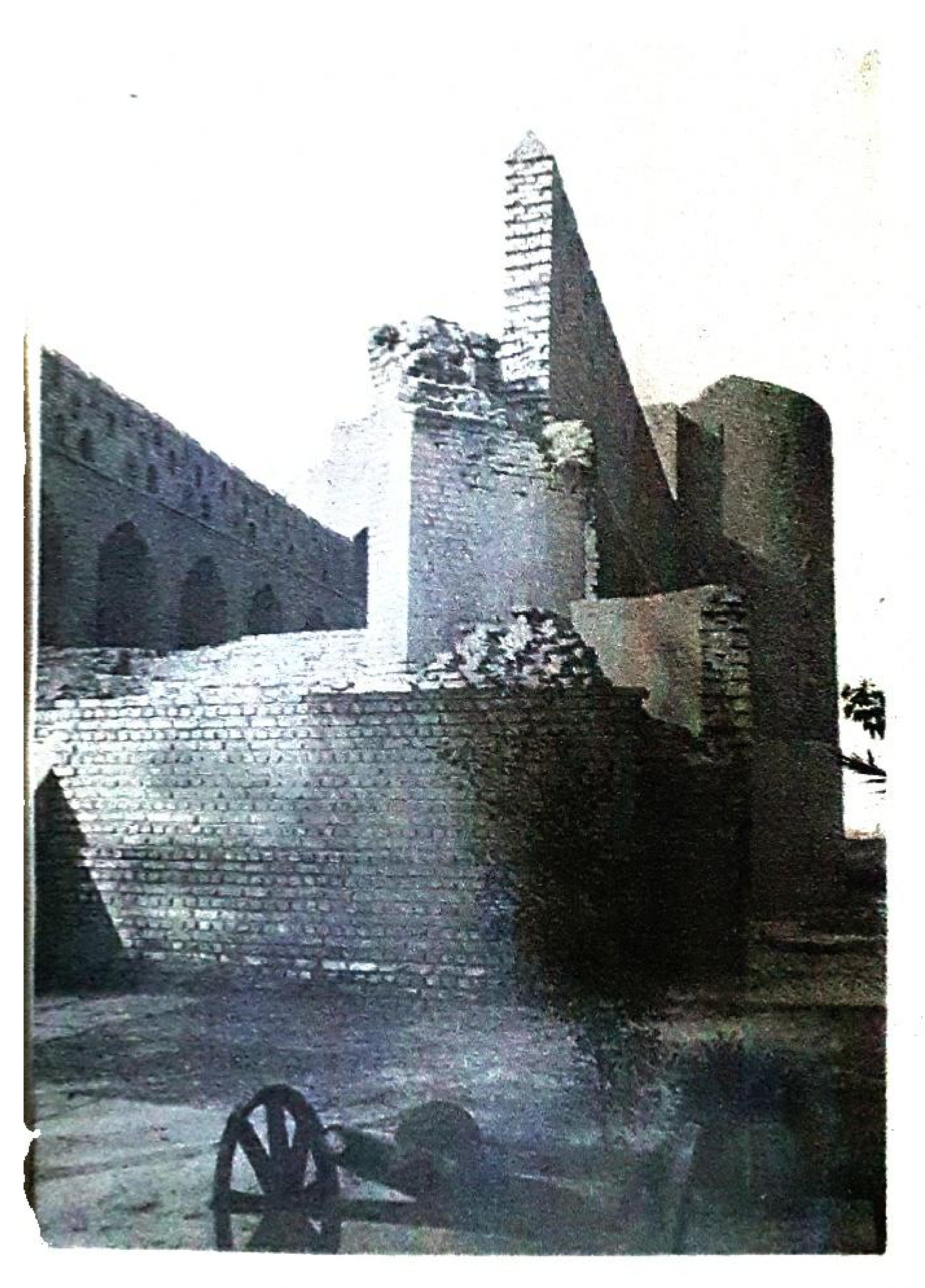
سور بغداد القديم وخندقها



أحَد أجنحَة المدرسة المسَتنصرية بعَد الصيانة



بقايا الجامع الكبير فى سامراء ومئذنته الملوية



بقايا الباب الوسطاني من سور بغداد

رقم الايداع في المكتبة الوطنية ببغداد (٦٠٠) لسنة ١٩٨٨م



ولد المؤلف عام ١٩٣١ (٢٤) كانون الأول الموافق ١٤ شعبان عام ١٣٤٩ هـ في محلة التكارتة بكرخ بغداد، وتربى في الرضوانية الغربية، وعاش في محلة الفضل بالرصافة، اكمل الدراسة الابتدائية في مدرسة الفضل والدراسة المتوسطة في المتوسطة الغربية والاعدادية في الاعدادية المركزية. ودخل جامعة بغداد - كلية الآداب ١٩٥٠ - ١٩٥١ وتخرج في قسم الفلسفة - الدورة الثانية عام ١٩٥٣ - ١٩٥٤.

بعد تخرجه اشتغل مدير اعاشة تكريت، ثم مأمور مخزن في الخطوط الجوية العراقية. وفي أواخر عام ١٩٥٥ عين مدرساً للاجتماعيات ثم الانكليزية واشتغل في المغرب العربي لتدريس الفلسفة وفي المملكة العربية السعودية لتدريس علم الاجتماع والانكليزية.

كتب اول قصيدة نثر عام ١٩٤٧ لم تنشر: وفي عام ١٩٥٠ نشر عدة قصائد نثر في جريدة الهاتف بتوقيع (سلمان ذيبو)، ثم شرع بكتابة القصة، فقرأ اول قصصه عام ١٩٦١ في اتحاد الادباء، فيما كان مدرساً في متوسطة بهرز. وقد نشر قصصه ومقالاته في المجلات العربية.

اشتغل محرراً في جريدة الثورة، ومجلة الثقافة الاجنبية، ومحدثاً اذاعياً ناجحاً لمدة تسع سنوات، توقف عن ذلك عام ١٩٨٥.

له من الكتب (اساطير بابلية) و (اوسكار وايلد). وهو عضو اتحاد الادباء منذ عام ١٩٦٢؛ وامين سر جمعية المترجمين العراقيين عام ١٩٧٤ و١٩٧٥.

مطبعة منير ٤١٦٢١٧٥

السعر ٣, دينار

الطبعة الاولى

١٩٨٨ م